الهروب من الجنة

عبد الكريم الصابري

الكتاب : الهروب من الجنة

المؤلف : عبد الكريم الصابري

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٥

رقم الإيداع : ١٥٠٩١ / ٢٠١٤

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978-977-493-193-2

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٨٠٥٣ ش الجامعة الحديثة. الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت فاكس ٢٧٢٧٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة



الهروب من الجنة

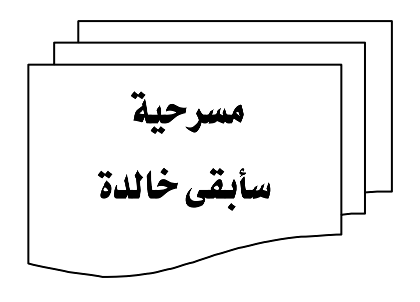
The Escape from Paradise

قصص – أفكار – مسرح

عبد الكريم الصابري

A. F. S. ALSABIRI

الفهرس



المشهد الأول

المكان: مِنْطَقَةُ القُطبِ الجنوبِي.. ثلوجٌ بيضاءُ منبسطة ومُتللة.

الفتاة الأولى: تَرَبَّعَت على تلةِ ثلج، جميلة ولها شعرٌ طويلٌ أحمر، ترتدي ثوبًا مُمْتَلِئًا بطبقاتٍ ذاتِ ألوانٍ زاهية.

الفتاة الثانية: تَرَبَّعَتْ على تلةِ ثلج، تقابل الأولى بِجِلسَتِها، قبيحة الشكل، ترتدي ثوبًا مبقعًا برسومِ سيوفٍ ورماحٍ وبنادقَ ومدافعَ وطائرات.

(تقابلت الفتاتان في هذه المنطقة؛ حيث لا تستطيع أي منهما أن تقوم بفعلتها، فلا شرارة تُذكي نارًا ولا أحد يعلن حربًا، تحاورتا حوارًا هادئًا بفعل برودة الجو الشديدة، فلا مجال لانفعالهما).

....

- الأولى: أقدِّم نفسي لكِ، أنا بنتُ الطبيعةِ والمغامرين من البشر، ومن تدليل الطبيعةِ لي، أنها تقدِّمُ لي بعضَ الجبال لأصهرها

فأحوِّل باطنها المعدنيَّ والصخريَّ إلى صهاريجَ تَسِيلُ من أعاليها، وتقدِّمُ لي غاباتِهَا فألتهم أشجارَهَا وحيواناتِهَا، وأجَفِّفُ مياهَهَا، وأعمي البصرَ على بُعْدِ أميالٍ بدخاني؛ ولهذا يَخَافُنِي كلُّ البشر والحيوان والحشر.

- الثانية: وأنا أقدِّمُ نفسي لكِ أيضًا، أنا بنتُ المغامرين والمجانين من البشر، ومن تدليل مثل هؤلاء لي، أنهم يُقَدِّمُونَ لي السَّهْلَ والجَبَلَ، والبحرَ والنهرَ، والأرضَ والسماء، لأسرح فيها وأمرح، وأعمي البصرَ وأبتِرُ الكفَّ والقَدَمَ وأزهِقُ الأرواح؛ ولهذا يخافُنِي العقلاءُ من البشر.

- الأولى: أنا أبدأ من شرارة فقط، ومنها أكبُرُ وأكبُرُ فأصبحُ عملاقًا.

- الثانية: أنا أبدأ بأمرِ مجنونٍ بحبي من قادةِ البشر، فأتوسَّعُ وأتوسَّعُ حتى آتي على مجنوني فأنهيه.

- الأولى: أبدأ بأكل ما يَبِسَ وما تَخَشَّبَ، ثم آتي على الأخضر، وكثرةُ الماء تنهيني.

- الثانية: أبدأ بأكلِ ما يَفَعَ وما صَبَا من البشر، ثم آتي على ما تبقى من الأعمار، وكثرةُ العقلاءِ تنهيني.

- الأولى: أحيانًا الخطأ والسهو من عاقلٍ أو مجنون، يذكيني.

- الثانية: أمرٌ مجنونٌ بحبي وحدَهُ يُذكيني.

- الأولى: إن انطلاقتي من أي مكان أريد، من جبلٍ أو غابةٍ أو مسكنٍ أو مصنع.

- الثانية: وا أسفاه، إن انطلاقتي فقط من حدِّ السيف أو فوهة سلاح مجنوني.

- الأولى: سرعان ما يُعمِّرُ الإنسانُ تخريبي؛ لأني بعيدةٌ عن تخريب الإنسان نفسه، فأنا صمّاءُ عمياء، فلا هدف لي غير الأكل.

- الثانية: أبطأ ما يُعمِّرُ الإنسانُ تخريبي؛ لأني أهْدِمُ كِيانَ الإنسانِ نفسه، فأنا واعيةٌ لهدفي، وأبرِّرُ كلَّ الوسائل التي توصِلُنِي إلى هدفي.

- الأولى: جَنَت على نفسِهَا بَرَاقِش، يجب أن تُحاكَمِي كمجرمة حربٍ؛ لأنكِ واعية لما تفعلين.

- الثانية: حقًّا إنكِ صماءُ عمياء، أنا الحربُ نفسها، كيف إذن أحاكم؟ فالمحاكمة لمن أذكاني، فنادي على مجانيني.

المشهد الثاني

جلس المجانينُ الذين أشعلوا الحروبَ منذ حروب السيف إلى حرب الذّرة أمام القاضي الذي اختير من دعاةِ السلام.

سأل القاضي المجنونَ الأول.

ـ لماذا أقمتَ الحرب؟

ـ احتجتُ عُشبًا وماءً من أرضٍ غنيةٍ بهما؛ لأُطعمَ جياعي وأروي ظِمَائي، فجئتُ أهلَهَا بالحوار بين إنسانٍ وإنسان فرفضوا، فأشهَرْتُ سيفي على مَن فيها.. وهذا من حقي.

سأل القاضي المجنون الثاني.

ـ لماذا أقمتَ الحرب؟

ـ وجدتُ قومي مشتَّتِينَ ضعفاءَ، فجمعتهم وأسكنتهم أرضًا، أعدتها بالسلاح قال عنها أجدادي الأوائلُ إنها كانت من أطيانهم.. وهذا من حقي.

ـ وما كان من أمر ساكنيها؟

ـ منهم مَن سَكَنَ آمِنًا بيننا، ومنهم من اقتنع بتجارةٍ فاغتنى، ومنهم من أشهر سيفه فعاملناه بالتي هي أدمى.

سأل القاضي المجنونَ الثالثَ.

ـ لماذا أقمْتَ الحربَ؟

- لقد سَحَرَنِي جمالُهَا حتى فقدْتُ عقلي بحبِّهَا، فطلبتُ يَدَهَا فقط مقابلَ كنوز الأرض، فجاءني الرفض، فأشْهَرْتُ السلاحَ على أهلها، فامتلكتها، فهي غنيمةُ حربٍ كعادتنا.. وهذا من حقي.

سأل القاضي المجنونَ الرابع.

- لماذا أقمتَ الحربَ؟

- لقد صنعتُ السيارةَ والطائرة، وأقمتُ المصانعَ ومددت خطوطَ الكهرباء وأنابيبَ الماء، فوجدت الطاقة التي تُحَرِّكُها في بلدِ العميان، تعرّفتُ عليهم فوجدتهم يرقصون على أصواتِ البنادق، فتاجرتهم بها فرقصوا وطَربُوا، وأخذَ بعضهم يوجِّهُ أفواهَهَا إليَّ، فخاطبت بصيرتهم إلا أنهم رفضو أن يبصروا.. وهذا من حقي.

سأل القاضي المجنونَ الخامسَ.

- لماذا أقمتَ الحربَ؟

- أنا مجنونٌ بالعظمة، وجنوني هذا يُبَرِّرُ إشهاري الحربَ التي صفَّق لها مواطنوني وزادوني جنونًا، فمَنْ مِنَ البشرِ لا يُحِبُّ العظمة؟ وهل يحاكم مجنونٌ على عظمته؟

صمت القاضي طويلاً ثم قال.

- أكتفي بهذه العينات وأقول.. ظهر أن لكل واحد منكم مبرراتِهِ التي أقامَ بها الحربَ، ولمَّا كان كلُّ مبررٍ مُمْكِنًا تلافيه، وتُحَاشَى الحربُ بمشورةِ العقلاءِ من مواطنيكم، قرَّرْنَا إصدارَ الحُكمِ عليكم - بدون استثناء - حسبَ قوانين مجرمي الحرب.

صاح الجميع سوية: نعترض، نعترض، ومن حقنا الاعتراض، يجب محاكمة كل المحاربين.

سأل القاضي باستغراب:

- ولماذا كل المحاربين؟ ليتكلم واحِدٌ نيابةً عنكم..

تشاوروا بالأمر.. بعضهم أرادَ إنابة الخطيبِ عنهم، فظهر معظمهم خطباءَ مفوَّهِين ولم تتم الإنابة.. وقال أحدهم:

- نُنيب عنا مَن له ملكة التأثير على العقل، فنحن نحتاجُ مثلَ هذا الشخص أن يحاجِجَ القاضي.

فلم يظهَرْ منهم واحدٌ يَمْلِكُ هذه المَلَكَة.

قال آخر:

- نُنِيبُ عنَّا من له ملكة التأثير العاطفي.

فظهر غالبية الحاضرين لهم هذه الملكة، فهم خطباءُ ومتحدثون لهم ملكة التأثير والسيطرة على شعور الآخرين، فصَعُبَ الاختيار.

ولمَّا لم يَجِدِ القاضي مَنْ ينوبُ عنهم أشار على أحدهم - لا على التعيين - بأنه هو النائب عنهم..

تكلم هذا - دون استعمال مصطلحات السيادة للقاضي - وقال:

- أولاً، ليس من حقِّ القاضي أن يُحاكِمَ مجنونًا.

ثانيًا، أنا أعطيتُ إشارة بَدءِ الحرب حقًّا، ولكن بعد التأييد والتصفيق، فهل أنا وحدي هيَّأتُ الظروفَ لذلك التأييد؟ وهل أنا بنفسي قتلتُ ودَمَّرْتُ؟ إني لم أرْمِ طلقةً واحدةً ضد العدوِّ فالأيادي التي استعملت السلاحَ - لو امتنعت عن ذلك - لمَا استطعْتُ أن

أُشْعِلَ حربًا واحدةً، الكلُّ جعلني واجهة ورمزًا للقتال الذي يسري حبُّه في دمائِهم، إنهم جميعًا ذِئابٌ، ولو لمْ أرفعْ إشارةَ الحرب لأكلتني، وهذا التسجيلُ الذي أحمله معي خيرُ دليل على ما أقول (بالحب، بالدم، نفديك... هاي، هاي، هاي... إلى السماء إلى النجوم نحلق.. شعب اللّه شعب الله).

قال القاضي بعد صَمْتٍ طويل.

- إن دفاعَكم مقبول، إنكم مجانينُ حقًّا، فجميعُ العقلاءِ وَسَمُوكُمْ بهذه الصفة، وأنتم كنتم مجرَّدَ رموزٍ للحروب بسبب امتلاككم بعض الصفاتِ التي تحملونها دُونَ غيرِكُم.. ولمَّا كانَ القانونُ يقضي بعقوبة مَنِ استعمل السلاحَ ومَنْ حرَّضَ على القِتَال، فأجد من المستحيل محاكمةُ كلِّ هؤلاء البشرِ الذين شاركوا بالحروب، من حروب السيف إلى حرب الذرة، وعليه قرَّرْتُ الانسحابَ مِنْ مقاضاتكم، وأترك الأمْرَ إلى التاريخ.

سادَهُمْ صَمْتٌ طويلٌ، ثم انفجروا ضاحكين وأخَذَ بَعضُهُم يُقَبِّلُ بعضًا ويصرخون (نحن الذين كتبناه.. نحن الذين كتبناه).

المشهد الثالث

لقد عاد الحاضرون من حيث أتوا..

بقيتْ النارُ والحربُ وحدَهُمَا، أحسّتِ النارُ بالخفوت التدريجي وسط هذا الانجماد، فاستعجَلَت في إنقاذ نفسها، وقالت للحرب:

- بعد الذي سَمِعْتُهُ سأعودُ إلى أوطاني لأُريحَ ضميري بالانفصال عنكِ، فقد استغللتي صداقتي واستخدمتيني للتدمير، فلا ترتجين بعد هذا مساعدتي.. ثم اختفت بسرعة.

دُهِلَتِ الحربُ لهذا القرارِ الذي لم تتوقعْهُ أو تصدقْهُ، فالنارُ كانت سلاحَهَا الماضي والفعَّال.. خافت أن يتركها البشرُ إذا ما وجدوا فيها أداةً غيرَ فاعلة.. صمتت تُفَكِّرُ.. ثم مَزَّقَتِ الصَّمْتَ بقهقهةٍ عاليةٍ وهي تُكلِّمُ نفسها.. ليذهب سِلاحُ النارِ إلى الجحيمِ ليُستَفَاد منها، ما زالَ حُبُّ السيطرة والتملك يسري في دماء البشر، فأنا باقية معهم.. عليَّ أن أفتِّشَ عن سلاح أقوى وأمضى.. فَكَّرَتْ طويلاً بما وصل إليه البشرُ من علوم وتكنولوجيا ومعارف، ثم صاحت.. إذن سلاحُ العقولِ أدهى وأمضى وأعظم.. قامت منتصبةً ونزعت ثوبها القديم المبقع وارتدت ثوبًا جديدًا مُبقعًا برسومِ مختلفِ الكومبيوترات وأجهزة التكنولوجيا، ثم عادت إلى مجتمع البشر وهي تصرخ:

سأبقى خالدة.. سأبقى خالدة.

هولندا / ٢٠٠٠م



المشهد الأول

المكان : جنة الخلد.

الزمان : البداية ما بعد يوم الحساب وبلا نهاية.

الأشخاص : الله، الملائكة، حوريات، غلمان، أهل الجنة.

الحالة : يأكلون، ينكحون.

الصفات : كما جاء في مفهوم بعض الأديان.

....

الله هالة من ضياء على العرش، حوله الملائكة، أهل الجنة حشود ضخمة لا ترى لها نهاية في انتظار الدخول.

أمر الله الملائكة بإدخالهم الجنة. طارت إلى أبواب الجنة. شاهدوا الحشود الضخمة من أطفال ونساء ورجال، سأل ملاك الآخرين:

- هل بالإمكان إدخال هذه الحشود الضخمة من أبواب الجنة المعدودة؟

- لا تستطيع هذه الأبواب استيعاب دخولهم.

- ما العمل؟

- لنخبر ربّنا القدير.

طارت الملائكة إلى الرب، سجدوا له وأخبروه.. أعطى ملاكٌ رأيَهُ:

- إذا أدخلنا الأولين من الأبواب، سيكون هناك انتظار طويل للآخرين.

ملاك آخر:

- وهذا لا يحقق العدالة في المساواة التي أمر بها ربنا العادل.

ملاك آخر:

- الأفضل رفع الأبواب وجعل الجنة مفتوحة لإدخالهم من كل جانب.

ملاك آخر:

- تبقى نفس المشكلة، حشود ضخمة يتمتع الأولون قبل غيرهم، وهذا ينفي قاعدة العدالة في المساواة التي أمر بها ربنا القادر القدير، قالها وهو ينظر إلى ربه.

ملاك آخر يسجد ويقول:

- بقدرتك أن تجعلهم فردًا واحدًا يدخل الجنة مرة واحدة ثم يتفرد.

ملاك آخر:

- ستظهر مشكلة جديدة، سيكون من الضخامة لا تستطيع رجلاه تحمل ثقل جسمه، وسيكون رأسه من الارتفاع لا يرى ما دونه من أشجار وسواقي وبحيرات وحواري، فتحدث كارثة.

سجد كبير الملائكة:

- إلهي، آمرنا وأنت على كل شيء قدير.. أمر الله برفع أبواب الجنة وإدخال أهلها.

شاور ملاك آخر(لا يحق لنا التعقيب بعد أمره سبحانه، فللضرورة أحكام. ردّ مشاورًا، أجّلَ ربنا عدالته في المساوات بعد دخولهم) ..

طارت الملائكة المختصة، رفعت الأبواب.. دخل أهل الجنة حشودًا بعد حشود، أعداد ضخمة سقطت وسُحقت، ولكن سرعان ما ينهضون، فالجنة لا تعرف الموت..

انتشر أهل الجنة في أرجائها.

المشهد الثاني

يأكل أهل الجنة من هذه الثمار، ويقطفون ثمارًا أخرى. يشربون عسل هذه السواقي وينتقلون إلى سواقي اخرى. وهكذا مستمرون. في البدء، انتبهوا إلى قطف الثمار، فتظهر في الحال مكانها أخرى. وما إن يدسوا الثمر في أفواههم تختفي في الحال دون لوك أو مضغ.. تساءلوا:

- ما الأمر؟

أجاب أحدهم وهو فرح:

- معناه، سنأكل من جميع الثمر ولا نتوقف فليس هنا شبع أو تخمة.. توجهت الحشود إلى أشجار أخرى وأخرى..

صاح أحدهم:

- انظروا هناك، سواقي تجري لنذهب إليها. ركضوا إليها. غرفوا عسلاً، شربوا، واستمروا..

رفع أحدهم إناءه وصاح:

- ملأت هذا الإناء عسلاً مصفًّى كما وعدنا وشربت ثم شربت وشربت وسرعان ما يختفي في فمي. أَيَّدَهُ آخرون وهم يشربون ويضحكون. ثم ذهبوا إلى جداول أخرى. وهكذا استمروا.

قام أحدهم وصاح متسائلاً:

- نحن الحشود شربنا عسل هذا الجدول ولكنه لم ينقص أو ينضب. أجابه آخر.

- بل يستمر في جريانه.

قال آخر:

- لا شيء ينضب في الجنة، هذا هو الخلود الموعود. استمروا في فرح.

تساءل أحدهم:

- أكلنا وشربنا دون توقف، ولكن كم مضى علينا من الوقت؟ تساءلوا عن الوقت.

صاح أحدهم:

- حتى الوقت لا ينضب في الجنة، هذا هو الخلود.. أشار لهم ملاك أن يذهبوا إلى هناك.. تراكضوا، اقتربوا، صاحوا:

- أنهار بيضاء، لنرى ما بها. غرفوا، شربوا، صاحوا.

- لبن، لبن. صاح أحدهم.

- كما وعدنا، كما وعدنا، لبن لم يتغير طعمه. قال أحدهم.

- لم أذق طعم اللبن بعد الفطام، إنه طعم لبن أمي فلم يتغير طعمه. أجابه آخر:

- لا بل طعم لبن النوق. قال آخر:

- من أين جاءت أنهار الحليب هذه؟ هذه هي القدرة، سبحانه تعالى.. صاح آخر:

- كنت لم أتذوق طعم اللبن ولا أستسيغه، ولكن هذا الطعم يختلف.. استمروا. صرخت مجموعة منهم ومؤشرة.

- هناك أنهار حمراء.. ركضوا إليها فرحين، جماعات جماعات، يكتشفون. صاح بعضهم.

- إنها أنهار خمرة حمراء. ما إن سمعوا خمرة، تزاحموا، تدافعوا، حتى سقط الكثير فيها وأخذوا يسبحون ويغوصون مالئون أفواههم بها دون أن يقذفوها. مرّ وقت يشربون.. تساءلوا.

- إنها لا تسكر؟ ردّ آخر:

- ألا قرأتم وقد أنهيتم حياتكم الدنيوية في العبادة (أنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى).. مرّ وقت طويل مع الخمر أكثر من أوقات الأنهار الأخرى.. جاءهم ملاك، أمرهم:

- اخرجوا من النهر فهو للشرب لا للسباحة. لم يأبهوا بل استمروا.

غنوا فرحًا، رقصوا طربًا، ثم توقفوا رأسًا، بعد فترة من السكون والسكوت، تساءل أحدهم.

- غنينا ورقصنا بحرية وقد عملنا في التحريم، ما معنى هذا؟

- معناه، لا ممنوع في الجنة. صاح أحدهم:

- إذن لنرقص بأية رقصة وطريقة ونغني أية أغنية ولأي مغنٍّ، ونعوض ما حرمناه في تلك الأرض اللعينة. صاحوا سوية.

- لعنة الله عليها، لعنة الله عليها.

المشهد الثالث

شاهدوا عن بُعد أشجارًا وأزهارًا وبحيرات، تقربوا منها، وإذا بهم يصرخون من الفرح، يرقصون ويركضون.

- حوريات، حوريات، هذا ما وعدنا به ربنا في الجنة. منهن من تسبح ومنهن من انمطلت على تربتها الزعفران ومنهن من تلعب وترقص.

انتشروا بينهن يختارون، يتغازلون ويتناكحون، هذا ينكح حورية وذاك يغازل، هذا يترك حوريته ويذهب إلى أخرى. وهكذا استمروا دون أن تعرف أجسامهم تعبًا ولا يعرفون مللاً. تساءل أحدهم.

- ما الأمر، أنكح وأنكح، دون تعب أو ملل؟ أيّده الآخرون.

- ونحن أيضًا.

- هذا هو الخلود.

- فزنا بالجنة بعد أن أنهينا عمرنا تعبدًا وتسبيحًا وحرمنا الأجساد والنفوس من كل معصية.

اجتمعت الزوجات يتساءلنَ عن أزواجهن، الذين اختفوا في الجنة، طلبن مساعدة الملائكة. طارت الملائكة تتبيّن، حامت حول البحيرات ورجعت تخبر النساء عن مكان الأزواج. وصلت جموع النساء البحيرات، شاهدن الأزواج مع الحوريات لاهين. اتفقن على مناقشة الأزواج بهدوء لكسبهم. ولم يتفقن في الرأي.

- هذا ما وعدهم به إلهنا العلي.

- ولكن أمرهم أيضًا بمصاحبة الزوجة التي أنهت معه حياتها في العبادة والتسبيح.

- ما ذنبنا نحن.. لنحاور الأزواج، قالت إحداهن لهم.

- ربنا عادل فاعدلو مثله، من حقكم الحوريات الموعودات، وكذلك الزوجات. أجاب أحدهم.

- لم يحدد ربنا ما نختار في المناكحة، بل تركنا احرارًا، ردّت أخرى:

- وما ذنبنا نحن؟ أجابها.

- ليس في الجنة ذنوب لتشتكي. قال آخر:

- هذا أمر ربنا فأطعه. شاوَرَت إحداهن أخرى.

- أنهينا حياتنا الماضية بإطاعته ورضاءه. قالت أخرى مشاورة.

- ولكن لم يذكر إلهنا العادل نكاح الزوجات في الجنة. قالت أخرى مشاورة:

- ما معنى مصاحبة الزوجة الصالحة زوجها في الجنة؟ ردت:

- تأكلين وتشربين وتخلدين.

- وعد الله الرجال بالحوريات وأنت على علم بذلك، صاحت أخرى:

- هذه ليست عدالة، نهرتها مجاورتها:

- اصمتِ، لا تسمعك الملائكة.

سمعت الملائكة وهي تحوم حول أهل الجنة تتفقد كالعادة، قال ملاك:

- أنتن هنا كما موعودات وليس لكن خيار، تأكلن وتشربن وتتمتعن بجمال الجنة. ردّت واحدة:

- من طبيعتي النكاح والولادة.

- لا ولادة في الجنة، فليس لكن أرحام لتحبلن، أما النكاح فاغري زوجك.. ردت:

- أغريته عندما كنا في الجنة الأولى فطردنا ربنا منها، فهل تريدنا أن نُطرد مرة ثانية، شاركت أخرى النقاش:

- ما اكتفى الزوج بزوجته تشبع غريزته، فتريده الآن يكتفي وهو بين الحوريات؟ أجابها

- لاغرائز في الجنة. ولا طبيعة. فأنتن هنا خالدات، وكما وعد الله ربنا جلّت قدرته.. عادت الملائكة.. شاورت مجاورتها:

- أنسيتِ الرجال قوّامون على النساء. ردت.

- كان ذلك ولكن الأمر هنا يجب أن يختلف. أجابتها:

- كلام الله سبحانه لا يختلف، لا في الزمان ولا في المكان، إنه أبديٌّ. قالت أخرى.

- كنا في غير عدالة ولا زلنا، الله هذه حكمتك سبحانك.

صمتن خائبات وهن ينظرن إلى الأزواج في لهوٍ ونكاح وقد عاد لهم الشباب كما وعدهم الله.. صاحت إحداهن.

- انظرنَ هناك بين الورود والأزهار. تلك مصيبة أعظم. نظرن جهة إشارتها. رجال تغازل وتضاجع غلمان. علقت واحدة:

- هذا ما كتبه لنا. شاركتها أخرى.

- قال ربّنا عنهم، ولن يعدلوا، ولكن بقدرته أن يجعلهم يعدلون، وهوالعادل. قالت لها مشاورة:

- لا تنسين، إنه ذكر.

- إذن ما الحل لمشكلتنا؟ قالت إحداهن.

- بما أننا خالدات بإمكاننا أن نتصرف كما يتصرف الرجال ولا خوف علينا ولا هم يحزنون. تساءلت أخرى:

- وكيف؟ نتمتع مع الرجال كما هم يتمتعون. ردت:

- وما من زوجي؟

- ألا تعرفين؟ لا انفعالات في الجنة ولا خوف. سمعن هذا، صحن بأعلى الأصوات:

- أحسنت، أحسنت، سنعمل ما نريد. قالت إحداهن بصوت مسموع ولم يأتها الخوف:

- ربنا ما نصفنا مع الأزواج، وهنا سننصِفُ نحن أنفسنا.

انتشرن في كل مكان، منهن مَن أقنعن أزواجهن وتضاجعن مرارًا دون تعب أو ملل. سألت واحدة زوجها.

- هل الحوريات باكرات كما كنا نحن عند ليلة الدخلة. أجابها.

- لا؛ لأنهن مباحات.

انتشر خبر المباحات بينهن ثم استغربن من عدم وجود رعشة أو لذّة وكذلك الأزواج. قالت واحدة:

- استغربت عندما لم أجد رعشة ولا لذة معه وهو كذلك. بل قال، وكذلك مع الحوريات والغلمان.. مر ملاك. سألته واحدة عن هذا الأمر. أجابها:

- قلنا ونقول لا غرائز في الجنة.

المشهد الرابع

بعد أكلٍ ونكاح، تجالس جمع كبير يتحادثون، شاهدوا تصرفات أفراد غريبة، لا يتصرفون كما هم يتصرفون، لا ينسجمون مع الآخرين، يتكلم كل فرد مع نفسه. سألوا أحدهم:

- مَن أنت؟ أجاب دون خوف فلا خوف في الجنة.

- أنا من ختم تعاليم بوذا وأصبحت من كبار كهنته، ولكن لا أعرف كيف أتيت هنا، ولم يعدني بوذا بما أنا فيه، كان على روحي أن تحل في جسد آخر أعلى لأن أعمالي كانت صالحة، ولا أعلم كيف جاءت هنا. التفت بعضهم إلى بعض مستغربين. سألوا الثاني، أجاب:

- كنتُ سادنًا لمعبد هندوسي، قضيت حياتي فيه متعبدًا، ولكن لم أوعد بمثل ما أنا عليه الآن قبل حرق جثماني. سألوا الثالث، أجاب.

- جسدي روحاني لا أحتاج إلى طعام أو شراب ولا جماع بل متعتي هي رؤية الله فقط ورؤية الله هي الجزاء الأعظم الفائق كل خير ويشبع شهواتي.. سألوا آخر. أجاب:

- الروح تذهب إلى (آلما دنهورا) عالم الأنوار، ولا أعرف كيف جاءت إلى هذا العالم التجسيدي.

كان ملاك يستمع لهم، قال أنا أخبركم:

- عند صعود الأرواح وهي تملأ الكون اللا نهائي، تيهت بعض الأرواح طريقها إلى حيث تذهب كما وُعِدَتْ، وهؤلاء منهم. أمر هؤلاء بالذهاب معه إلى الله ليقرر مصيرهم.

بعد أكلٍ وشربٍ ونكاح الحوريات والغلمان، اشتاق أحدهم أن يحمد ربه بالطريقة التي كان يشكر بها في حياته الماضية، نهض وأخذ ينود رأسه يمينًا شمالاً وهو يردد، الله، الله، الله، يا رحمن يا رحيم، يا جبار يا معين، يا غفار، يا قهار، يا عليم يا معين، يا قهار، يا قهار.. أحاطوه وأخذوا يعملون مثله، الله، الله، الله، يا رحمن يا رحيم، يا جبار، يا معين، يا قهار، يا قهار، يا قهار.. واستمروا هكذا دون توقف، جاءت ملائكة وأمرتهم بالتوقف. سأل ملاكٌ أحدَهُم ولم يتوقف الآخرون.

- ما هذا؟ أجابه:

- هذا تعبد. ردّ الملاك:

- انتهى التعبد مع حياتك الأولى، هذه الحياة أبدية وأنتم فيها خالدون، أكل وشرب ونكاح. صاحوا جميعًا.

- ملَّيْنا ومللنا، وإلى متى هكذا؟ أعطونا عملاً هواية حبًا لذة. أجابهم ملاكٌ:

- وهل أفضل وأجمل وألذ مما أنتم تخلدوه؟ رد أحدهم.

- أين اللذة يا ملاكي، ننكح ولا نرتعش، نأكل ولا نلتذ. رد الملاك:

- ألا سمعتم، لا غرائز ولا حواس في الجنة. سأله أحدهم.

- ولماذا؟ أجابه:

- عدالة الله القدير، تقضي مساواتكم، لا يتميز واحدكم عن الآخر والتي تعملها الغرائز والحواس كما كنتم في حياتكم الأولى، هنا كلكم كما بعضكم كما واحدكم.. ذهبت الملائكة إلا واحد.. صمتٌ عمّ الجميع، ثم تهامسوا (نأكل ولا نشبع لا لذة لا رعشة خالدون هكذا لا نموت) .. حكَّ أحدهم رأسه واستمر، انتبهوا إليه، سألوه.

- هل من شيء؟ أجابهم:

- لا شيء، بل قلت لنفسي، هل مخي موجود؟ قال آخر:

- سنرى إن كان لك مخ. رد

- وكيف؟ أجابه:

- نفتح قحفك ونشاهد. صاح:

- لا، إني أخاف. أجابه آخر:

- لا خوف في الجنة ولا إحساس، بعد أن نشاهد سيعاد قحفك من نفسه كما الثمار، لا دم ولا ألم.. أحاطوه، فتحوا قحفه لم يشاهدوا مخًا، عاد القحف من ذاته بقدرة، تساءلوا:

- لا غرائز، لا إحساس، أيضًا لا مخ؟ تساءل أحدهم:

- ولكن كيف نتحاور مع بعضنا ونحن من شتى الأمم وكيف نكلم الملائكة؟ فتحوا أفواههم، لم يجدوا ألسنة ولا حناجر ولا لعابًا ولا أسنان.. قال لهم الملاك الذي لم يذهب:

- وكيف إذن تتساوون وتخلدون، هذه العدالة الإلهية وقدرته. سأله أيضًا.

- ولكن كيف يكلّمُ بعضنا بعضًا والملائكة؟ ردّ الملاك:

- هنا أمور لم تتوصلوها في حياتكم الأرضية، هناك أشعة كونية نستعملها، سأل:

- وننظر ونسمع؟ ردّ الملاك.

- وهذا أيضًا.. وضعوا أياديهم على عيونهم ليتأكدوا، لم ينقطع النظر. أغلقوا آذانهم، لم يتوقف السمع. أكّد الملاك.

- وهذا كلّه من قدرته. ردّ آخر:

- إذن القدرة هي استخدام أشعة وليست من كنهه، صاح به الملاك:

- اصمتْ، تجاوزت حدودك، رد:

- ولكن أين هي الحرية؟.. نظر إليه الملاك ثم همس في نفسه (لأذهب، سيجرُّنا الحوار إلى ما لا يحمد عقباه وكشف ما لا يُراد كشفه، ربي اغفر لي). طار.. سألوا الذي ناقش:

- ماذا كنت تعمل فتسأل هكذا؟ أجاب:

- كنت باحثا في الضوئيات. أفدت البشرية كثيرًا، انخرطت مع مجموعة مسلحة بالإكراه والخوف، في العبادة وذكر الله تعالى. ردّوا:

- أحسنت صنعًا، والآن تقطف الثمرة الخالدة لتعبدك وعبادتك ربك.. وقف بينهم وكأنه يعيش الحالة مع المسلحين، أخذ ينود رأسه

ويهز.. الله، الله، الله، يا رحمن يا رحيم، الله حي، الله حي، يا قيوم، يا قيوم يا قيوم، يا.. نهضوا معه مستسلمين، نوّدوا، الله حي، الله حي، يا رحيم، يا رحيم، خلصنا، خلصنا، خلصنا.

أثناء التجوال في مكان من الجنة شاهدوا حدائق معلقة وقربها قصور ليست بنفس الضخامة وخيم ضخمة مقامة من لؤلؤ، تحيطها الأشجار والأزهار وطيور تغرد.

- ما أسعد هذه الطيورالمغردة، لا بد أنها مثلنا خالدة.

- إنها لا تنقطع عن التغريد، لا بد أنها ليست مثلنا في الملل.

- ما رأيكم أن نتسلل إلى الخيم والقصور ونشاهد ما فيها؟

- علينا أن نحترس من الملائكة.. تسللوا إلى أول خيمة. شاهدوا عرشًا كبيرًا من ذهب مرصع بالزمرد والياقوت. يجلس عليه صاحب لحية كثة وسمار داكن وملامح غليظة، على جانبيه غلمان وحواري، يرقصن ويغنين، أمامه طبق كبير من فضة مملوء بأنواع الثمار وكؤوس عسل وخمر، وجدران مطرزة بالورود والنباتات وطيور تغرد، يأكل ثمارًا وسرعان ما يظهر غيرها دون نقصان ويشرب العسل وسرعان ما تمتلئ الكؤوس وكذا الخمر. شاور أحدهم الآخر.

- هل تعرفوا هذا المميّز؟

- لا بد أنه من الذين وعدهم الله ربنا بمثل هذا المكان.

- أراه في ملامح بدوي.

- طالت مشاهدتنا، لنذهب إلى قصر.. شاهدوا غير ما شاهوه في الخيمة، ولكن الجالس مختلف السمات والوصف، وجه طويل لحية خفيفة تنزل على شكل مثلث وعلى جانبيها شاربان خفيفان طويلان، بلون أشقر، بلا عرش يجلس ساجدًا، وليس أمامه فاكهة ولا كؤوس عسل، ولا حوله حوريات أو غلمان.. تسللوا إلى قصر آخر، شاهدوا ما سبق لهم أن شاهدوه في القصر الأول، لكن عرش أصغر وملامح تشبه ملامح البدوي، ثم استمروا في المشاهدة والتشاور، فجأة ظهر لهم ملاك. صاح بهم:

- إنكم تتلصصون على قصور أنبيائكم وأوليائهم. تعالوا معي إلى إلهنا العظيم كي يتخذ اللازم بحقكم.. شاور أحدهم مجاوره.

- كلنا أهل جنة، وفضّل بعضنا على كلنا.

جماعة أخرى وصلت الحدائق. ابتهروا بجمالها. تندّر أحدهم.

- نبتهر ونحن لا نملك إحساسًا. أجابه مجاوره:

- أليست هذه قدرة. تكلم أحدهم:

- كنت مختصًا بالتارخ القديم. سأله البعض مستغربين:

- مختص بالتاريخ؟ وليس بالكتاب الكريم؟ رد:

- مع الاختصاص كنت أتعبد وأسبح وأقرأ خاصة نهاية حياتي السابقة عندما يبقى الأمل في نيل الجنة. ردوا عليه:

- الحمد لله، ذهبنا إلى المساجد منذ الصغر، وابتعدنا عما يوسوس لنا به الشيطان في تلك المدارس. صمت فترة ملتفتًا إلى غيرهم ليفهموه، أكمل كلامه:

- أقارن هذه الحدائق بحدائق بابل المعلقة، كانت مشيدة على وادٍ واسعٍ يجري فيه نهران عظيمان يُسميان دجلة والفرات، وقد ذكرا في الكتب المقدسة. تغطي الوادي الأشجارُ والنباتات، حتى سموها أرض السواد. وقد سكنتها أقوام وشعوب وقادة عظام.. لكن النهران جفّا واختفت النباتات وأصبحت أرضًا مالحة انتشرت فيها مساكن الفقراء والكلاب السائبة، سأله أحد المنتبهين إليه:

- وكيف عرفوا جفاف النهرين؟

- عن طريق أشعة خاصة، هذا تاريخ قديم جدًا. قال آخر:

- يا للصدفة. كان اختصاصي في التاريخ القديم، لكنه في ما يسمى الأهرامات والفراعنة، ومثلما جفّ دجلة والفرات، جف نيلهما وانتقلت الحضارة التي كانت تقام على المياه، كانت الأهرامات رمز إرادة الإنسان وجبروته، وفيها من الأسرار لم تُحل رموزها إلا بعد وقت طويل من الدراسة والبحوث، قاطعه الآخرون، قالوا:

- الحمد لله، قضينا حياتنا في الصلاة والتعبد ولم نتوجه إلى المحرمات.

مرّ زمن لا يعرفون فيه الأيام لا ليل ولا نهار، ولا السنوات لا فصول ولا تقلبات، لا موت أو فناء، ويأكلون كما أكلوا، ويشربون كما شربوا، وينكحون كما نكحوا. كل شيء ثابت وخالد.

سأل أحدهم أحد الملائكة الحارسين.

- كم سنة مرت ونحن على هذه الحالة؟ أجابه:

- ما تقصد بالسنة؟ التفتوا إلى بعضهم مستغربين سؤاله، أجابوه:

- السنة، اثنا عشر شهرًا، ٣٦٥ يومًا، فصول أربعة.

- لا يوجد مثل هذا هنا كما أرضكم التي كانت. قياسنا هو الضوء. سألوه:

- وما معناه.. ؟ قال:

- أين هو الذي كان باحث ضوئيات، يجيبكم. صاح.

- أنا.. قال له أجبهم.

- السنة الضوئية تقاس بسرعة الضوء في الثانية.. قاطعوه.

- لا نفهم، ما كنا دارسين، بل كنا عابدين ساجدين، قل لنا كم مضينا من هذه التي ذكرتها؟

- جزءًا منها.. صرخوا جميعًا دون استثناء.

- يا ويلاه، يا مصيبتاه، وكم نبقى مثلها؟ أجابهم.

- بلا نهاية.. نقل الملاك ما دار بينه وبينهم إلى الله عن طريق كبيرهم الذي هو وحده الواسطة بين ربه والآخرين. نقل كبيرهم ما قاله، ثم أسمعه ما قاله له الله.

- كيف لا تعرف سنتنا التي نقيسها بالنانو؟

- سجد له وقال.

- سامحني وأنت المسامح الكريم. علمني ما قياسها بالضوء؟ أجابه عن طريق كبيرهم:

- أطول من السنة الضوئية بأضعاف مضاعفة. همس الملاك لنفسه (ماذا يعملون لو عرفوا) صاح به الله وهو أبعد منه بأنهار.

- اخرج ساجدًا. سجد وخرج مسرعًا خوفًا من أن يسمعه اخرج من الجنة.

المشهد الخامس

عرف الجميع ما هم عليه ولا نهاية لذلك. تجمعوا كيوم الحشر واتفقوا على العودة إلى حياتهم السابقة. سمعهم الملائكة المراقبون، وتوقعوا حجم المشكلة التي ستحدث.

- بماذا أنتم تفكرون؟

- نفكر بالتغيير أولاً.

- طلباتكم كاملة كي ننقلها إلى رب العُلا.

- الطعم في الأكل والشرب، إعادة الشهوة والرعشة، تحديد الحياة. ردوا عليهم:

- ما ذكرتموه لا يعود، حياتكم لن تتغير، أنتم بانفسكم اخترتم هذا الطريق المستقيم طريق الخلد. ردّوا ومعهم المختصون.

- ليس بأنفسنا اخترناه، بل بالتخويف والوعيد والترغيب والترهيب وما كان ينقصنا من الملذّات التي كان يتمتع بها الآخرون.

علق آخر:

- حرمنا أنفسنا حتى من سماع الأغاني والرقص والطبول. علق آخر:

- حتى الحرير والذهب ما لبسناه ولا رائحة الورد تعطرناه.

ردّ ملاك:

- هذا غباء منكم فسادتكم عملوا ذلك، قال آخر:

- كنت أعيش الأنهار والبحار وغذائي اللحوم والأسماك وحرمت منها الآن.

سألهم ملاك:

- ما فائدة التغيير هذا لكم؟

نعود إلى وجودنا الذي كان، تعود أعضاؤنا وحواسنا ومشاعرنا، نأكل بطعمٍ، ننكح برعشة ولذة ونحب بقلوبنا.

- هذا لا يحدث فطريق الخلود ثابت وأنتم في جنة الخلد، كل ما وعدكم به الله موجود.. تناقشوا أهل الجنة علانية فقد خرجوا من حاجز الخوف والرعب وهنا قاد النقاش رجال ونساء أهل العلم والدراسة. أكدوا للملائكة ما ناقشوه.

- نعود إلى ما كنا عليه، نأكل بطعمٍ ونشبع، ننكح برعشة ونلتذ، ونحس ونشعر ونحب. أكملن النساء له.

- ونحبل وننجب.

- هذا رددنا عليه. وبعد.. صرخوا جميعًا:

- العودة إلى أمنا الأرض.. اهتزت الملائكة مما سمعت. أكملوا:

- حتى نعرف الليل من النهار ونبحث وندرس. نحرث الأرض ونزرع. نصنع ونعمل. نجوب المياه متنقلين صائدين ما لذَّ من أسماك. نتجول في الغابات والبراري ونشاهد الحيوان ونصيده وندجن. نطير في الهواء ونكتشف.. أضاف آخرون.. نستمع إلى

الموسيقى والغناء ونرقص ونطرب، ننحت ونرسم.. أضافت النساء.. نحبل ونلد ونربي أطفالنا بعاطفة وشعور.. صاح الجميع مرة واحدة.

- ولنا عمر معدود.

المشهد السادس

قاطعوا النكاح فلا معنى له من غير لذته. قاطعوا الطعام والشراب فلا شبع عندهم ولا جوع. ولم تنفع أوامر الملائكة ونصائحهم بالعدول عن هذا، مرارًا وتكرارًا قبل إيصالها لله العليم السميع القدير.. حدثت تجمعات هنا وهناك من أهل الجنة والحوريات، أما الغلمان لا يخرجون عن خرسهم.

اجتمعن الحوريات يتناقشن مشكلتهن، عزوف الرجال عن مناكحتهن، فقررن الشكوى إلى الرب.. ذهبن وفي الطريق شاهدن الرجال مجتمعين. صرخن من خلال الأزهار والنباتات وهن عاريات فظهرن بمنظر سحري.

- لقد خلقنا الله لكم لتنكحوا وأنتم عنا عازفون. ردوا عليهن.

- لا عودة، نريد حلاً جذريًا لمصيبتنا.. صرخن الزوجات بهنّ.

- اذهبن ولا نريد رؤيتكن وإلى الأبد.

وصلن إلى الرب، سجدن خاشعات.

- ربنا العادل القدير، خلقتنا ووعدتنا الجنة لمناكحة رجالها. عزفوا عنا وقرروا عدم مناكحتنا. صاح بهن الملاك الأكبر:

- عدن من حيث أتيتن، لا طلبات في الجنة، كل شيء خالد، لا خوف ولا هم يحزنون.. صحن:

- لن نعود ما لم يلبى طلبنا وهو موعود.. صاح كبير الملائكة:

ـ أمركم الله العلي بالعودة.. صحن سوية:

ـ وما فائدة العودة ونحن على غير ما وعدنا به.. هددهن الملاك:

ـ أتعصين أوامر ربكن؟ أجبن:

ـ نحن خالدات في الجنة، فلا عصيان فيها ولا أنتم قادرون. أجابهن:

ـ الله ربنا، قادر قدير. أكملن:

ـ ومستجيب الدعوات. صمتَ ثم رد عليهن.

ـ ربنا صابر صبور، فانتظرن الحكم.. جلست منهن على الأرض الزعفران وأخريات على أسيجة اللؤلؤ وياقوت منتظرات.

عادت بعض الملائكة تستقصي الوضع. همس أحدهم.

ـ الله في ورطة، كيف يعدل عن أمره وهو المستقيم. أضاف.

ـ وهو أيضًا القادر. رد:

ـ هذا تناقض. رد:

ـ الخلود هو الذي يحل التناقض. رد:

ـ بل يزيدها كما يحدث.

ـ اصمت وإلا وقعنا في معصية.

تجمعت حشود أهل الجنة كأنه يوم الحشر، صاح أحدهم:

- لا نستطيع بهذه الحشود أن نتحاور أو نناقش ربنا العلي القدير، فعلينا أن نختار قائدًا حازمًا، مفوّهًا، له إمكانية إقناع المقابل، لا يتراجع عن مطلبه.. لم يهتدوا لى ما وصف، صاح أحدهم.

- علينا أن نتوجه إلى أهل الخيام والقصور، لماذا فضّلهم الله لا بد أنهم يتميزون بالصفات التي نريدها.. توجهت الحشود إلى المكان. في الطريق تقابلوا مع جميع أهل الخيام والقصور وهم في نقاش وصياح أيضًا، تناقشوا معهم، كانت مصيبتهم واحدة ومطاليبهم أيضًا واحدة، أرادوا اختيار صاحب اللحية المثلثة الشقراء قائدًا. قال لهم:

- أنا نشرت المحبة والسلام بين أتباعي لكن بعض أتباعي فسروا تبشيري بمختلف، منهم من فسر الآخرة أرواحًا تذهب إلى ربها في جسد روحاني لا يحتاج إلى طعام أو شراب أو نكاح بل متعته هي رؤية الله، ومنهم من فسرها بوجود الملذات هذه. ولا أعرف كيف أتيت هنا. أنا أدعوكم إلى الحوار مع ربنا الآب.

كان البدوي هو القائد وهو المتكلم وهو المطالب، اختاروه قائدًا. قال لهم.

- لما أصبحت أنا المصطفى فيكم، تتبعوني فيما أعمل وما أقول. أجابوا سوية.

- موافقون.

وصلت هذه الحشود العرش تفصلهم عنه أنهار، شاهدوا كتلة تحيطها هالة من ضياء ساطع يُعمي الأنظار، وحولها الملائكة، وعن بعد تجمعت الحوريات ينظرن إليهم بعتاب.

سجد البدوي، حتى احتكت جبهته بزعفران الجنة، تبعته الحشود ساجدة، وصاحب اللحية الشقراء يضع بأصابعه إشارة على جبهته وقلبه، استمر السجود طويلاً. صاح بهم الملاك الأكبر.

- كفي سجود. لماذا جئتم؟ أجاب القائد.

- ربنا سبحانه تعالى سميع عليم، يعلم ما في الغيب والنفوس، وهو عالم لماذا أتينا. رد الملاك:

- ولكن نريد أن يسمع الجميع. أجاب:

- كنتُ سيدَ قومي، وخسرتها في الجنة، سادت لي القبائل والشعوب بسيفي، فانهالت عليَّ الغنائم والسبايا والجواري والمحظيات، وتزوجت الكثيرات، من كل لونٍ وجنس، وخضعت لي دول فكانت غنائم ذهب وزمرد، وطعام من كل صنف وطعم. والآن حياتي خالدة نلت وعد الله الجنة بما حققت له من نشر دين الله حتي استمر إلى يوم القيامة. وأصبحت حياتي هنا خالدة في النكاح دون رعشة ولذة، وفاكهة دون شبع وطعم، وعسلاً لا يغذي ولا يشفي وخمر بطعم اللا لذة، وحوريات لا مشاعر ولا حب، لا يشبَعن ولا يُشْبعن. أغاريد الطيور تتكرر، وأريج الزهور لا يُزكي الأنوف. كل شيء في الجنة خالد لا يتبدل تبديلاً. أريد أن أعود والآخرون إلى أرضنا،

رضيعًا أولد، صبيًّا ألعب، رجلاً قائدًا وسيدًا.. خرجت النساء على ما هو متفقٌ عليه من الصمت وصحن سوية.

- ونحن الإنجاب.. ساد صمت.. أعطى البدوي إشارة السماح بالكلام. تكلم آخر من أهل القصور.

- كان الحب يحركنا ويزرع فينا الأمل فينتج لنا ما آملناه، نسالم من أجله ونقاتل، نغازل ونقبل، ونشعر بألم الفراق وأمل اللقاء. قال آخر:

- كنت أسأم وآملّ، فأغيّر ما سأمت منه وما مللت ولم آمل فلا شيء خالد. قالت امرأة:

- كانت لي نظرة تحرق الرجال ونظرة مني يسقط من الرجال أفواهم وتسلب لبّ أعقلهم، وصرخة تولّدُ الأنبياء والقادة، وقلب يسعد الأبناء، وصوت يضاهي زغاريد الطيور. شارك آخر:

- كنت أزرع، أصنع، أعزف، فأنتجت ما عظم.. صاح الملاك الأكبر:

- كفى.

سجد القائد، سجدوا مثله. استمر السجود. صاح بهم الملاك الأكبر.

- كفي.. نهضَ، نهضوا. نوّد، نودوا، الله، الله، الله، يا سميع يا مجيب، الله، الله، الله، أكلنا، نكحنا، مللنا، الله الله.. صاح بهم الملاك:

- توقفوا.. لكنهم استمروا، الله حي، الله حي، السميع الملبي الدعوات، السميع، الله، الله، الله.. هذه الأثناء جاء صوت من أعماق الفضاء، أخذ يقترب ويعلو. موسيقى وغناء. كرة زرقاء تقترب وتكبر. أداروا رؤوسهم نحوه ينظرون إلى المصدر ويسمعون (أهلا أهلا بأولادي البررة، أهلا وسهلاً بمن ما نسوا أمهم، حياتي بعدكم أصبحت سكون، المياه طفحت بالأسماك فلا صائد لها. والتربة امتلأت حشائش وأدغال فلا أحد ينظفها. والهواء امتلأ حشرات وأمراض فلا أحد يكافحها، لا أرض تزرع ولا مياه تشرب ولا صوت من مصنع أو معمل يسمع، ظلام الليل لا شمعة تضويه ولا عود ولا طبل ينقر فيه) استمرت الموسيقى والغناء حتى لامست الكرة الجنة.. فرحوا، صاحوا، تحركوا، جئناك، جئناك.. شاركهم صوت قوي مِنْ مَن جلس على صخرة كبيرة عالية أمام الله في جسدٍ روحاني يتمتع بسنائه.

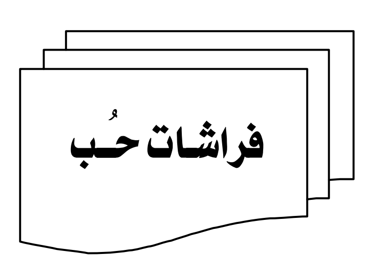
- جلست وتمتعت دهورًا بعد دهور، فمللت وسأمت وإلى متى، العودة العودة.

وإذا بصوت الله يهز الجنة. أسقط الثمار وجفف السواقي والبحيرات وطير الملائكة والحوريات، يدعو عليهم (عودوا حيث تتقاتلون وتتحاربون، على بطونكم تزحفون وتمرضون، لا تشبعون مهما أكلتم ولا ترتوون مهما شربتم. سبتكم الكذب والنفاق، وإلى التراب جثث يأكلكم الدود. اخرجوا لعنتي الأبدية عليكم وعلى ذريتكم أجمعين)، اختفت الجنة ومعها الله فلم تبقى له جزره يغري بها. دخلوا الأرض حشودًا حشودًا. انتشروا فيها في البراري

والصحاري والمياه والبحار والسهول والكهوف والجبال، يكدون ويكدحون وينتجون. واختفى الخلود وحلّت التناقضات والاختلافات والتنوع.

هولندا

أكتوبر ٢٠١٣



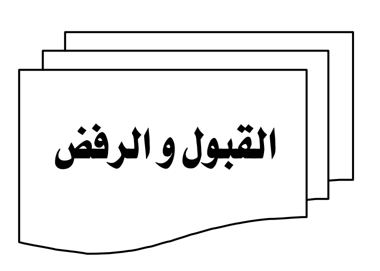
المطرُ ينزل.. قطرات لاحقة تتابع قطرات سابقة، فوق زجاج نافذة غرفة رقودي.. دقائق، انسقى الزرع، توردت جنابد، غرد عصفور.. بعدها، غازلت خصل الشمس المطر، ابتسم لها، اختفى في حبها، ابتسمت هي للآخرين؛

فتحتُ عيني بصعوبة، نزل الدمع حارًا؛ طفلٌ ينطُّ في عربته، أخته تمازحه، بالغت أمها في تطويل أشرطة شعرها.. مدّت عجوز حبل كلبها، متر، مترين، تلبي رغبته في شمشمة أنثى عابرة، بالغت في هزِّ ذيلها له... ابتسم المطر، عادت القطرات تتتابع، عاتمة زجاج النافذة.. أغمضتُ عينيَ.. دقائق تتبعها دقائق.. فتحت عيني، نزل الدمع حارًا. عادت الشمس تبتسم للآخرين؛

مرت سيارةٌ حمراء، صفراء، زرقاء.. عبرت فتيات.. انتقل طائرٌ من غصن شجرة إلى أخرى.. ثم شاهدت، شفاه أقرباء، أصدقاء، أخيار، وردية بلون الأمل، غطّت زجاج النافذة.. أغمضت عيني ثم فتحتهما للتمعن، ربما اضطراب بصر وهذا ما يحدثه المرض أحيانًا.. تحولت الشفاه إلى فراشات ذات ألوان.. حِمْنَ حولي..

التصقت فراشة على شفتيَّ الصفراوتين، تبعتها أخرى وأخرى.. تغير لون شفتاي، استجاب قلبي بشرايينه الجديدة.. ابتسمتُ فرحًا، طارت الفراشات فرحات أيضًا.. تابعتهن.. عدْنَ إلى الشفاه، تخبر أصحابها، إن تمنيت الشفاء، أفلحت..

مستشفى فيزن لاندن – زفولا – هولندا



دخلنَ الصف، منهن الصامتة، ومنهن المتكلمة، ألبسة متنوعة مع ألوان مختلفة، كان رأي المسئولين حول الزي الموحد مكلف بالنسبة لبعض الطالبات، والاعتماد على الملابس الخاصة لم يكن في وقتها منع لبس الرموز الدينية، قرائين، صلبان، أو ما يدل.. دخلت مدرسة الرياضيات.. ساد الصمت.. حيَّت.. كتبت على السبورة بالطباشير الذي ينفث رذاذ، على جانب، ٢٦-١٠-١٩٧٨، وفي الوسط، الهندسة، ثم الموضوع؛ نظرية فيثاغورس، ثم المنطوق.. طلبت من إحدى الطالبات رد المنطوق إليها لتكتبه، وهذا نوع من مشاركة الطالبات الدرس واختبارهن في تحضير الواجب. (مربع الوتر في مثلث قائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الضلعين القائمين الآخرين)، طلبت من أخرى رسم المنطوق، نهضت الأخرى، أخذت ترسم، رفعت يدها إلى أعلى لرسم الضلع القائم، أحست بصليبها معشق مع بلوزتها، تركت الرسم وأخذت تعيده مكانه.. انتظرتها المدرسة.. ثم استمرت بالرسم.. شكرتها.. جلست.. ثم طلبت من أخرى كتابة المفروض والمطلوب إثباته..

بدأت المدرسة بشرح البرهان مع الكتابة والطالبات منتبهات لمعرفة طريقة البرهان ولحفظه أثناء الشرح.. انتهت.. طلبت من طالبة إعادة البرهان.. سمحت لهن بالكتابة في دفتر الهندسة.. كانت المناقشة مسموح بها لغرض مساعدة طالبة لأخرى في شرح ما عسر على الفهم.. تكلمت طالبة مع زميلتها بهدوء بعد أن انتهيتا من الكتابة.

- متى اشتريت هذا القرآن؟

- أمنتبهة إليه.. البارحة مع أمي.. قلبته لها وأكملت كلامها.. عيار ٢١.

- صليبي صناعة إيطالية عيار ١٨، لا أعرف لماذا لا يصنعون عيار ٢١؟

- لأنه مطاوع كما فهمت لا يصلح للبس.

- تذكرتُ، فكرة السبائك.. انتهى الدرس.

كان وجهُ مدرسة الأحياء يثير الضحك؛ أذنان ناطَّتان إلى أمام، حاجبان غليظان، برطمتان مهدلتان.. بعض الطالبات عندما يرينها يكتمن ضحكة خلف كتبهن بوضعها على الفم، ومنهن مَن يكتمن الضحك وحالما تتجاوزهن وتعطي ظهرها، يثار الضحك والتعليقات.

- أشبهها بالقرد.

- حقا إنها أقرب إليه حتي في مشيتها.

ـ أحيانًا عندما أرى وجهها، أقتنع أن الإنسان كان قردًا.

ـ تذكرتُ، عندما درستنا نظرية دارون بوجهها هذا وضعن الطالبات رؤوسهن على الرحلات كاتمات ضحكهن بصعوبة.

ـ استغفر الله من دارون، الله خلق الإنسان على صورته.

ـ خلقه من نطفة، كما في آياته تعالى.. استمرت الدراسة هكذا بقية الأيام.

دخلن كالعادة، جلسن كالعادة، مبتسمات، هذه تفتح كتابها وتقرأ الموضوع بعجالة، تلك تعيده بذهنها، تلك صامتة مقتنعة بما حفظت.. دخلت المدرسة.. حيّت.. كتبت وسط السبورة الفيزياء، وعلى جانب، الموضوع؛ تحليل الماء.. أخذت تشرح لوحدها، لا تحب مشاركة الطالبات أثناء التدريس، بل تؤجل هذا إلى بعد انتهائها منه، كي يواصلن الطالبات فهم الموضوع موحدًا، ثم شرحت أن الماء يتكون من ذرة عنصر أوكسجين وذرتين من عنصر الهيدروجين.. كتبت المعادلة، H2+O=H2O.. ثم استمرت بالشرح.. وبالإمكان تجزئة الماء إلى مكوناته الأصلية في المختبر.. انتهت.. تمت المناقشة.. كتبن في دفاترهن الملاحظات بكل هدوء.. الذكية منهن تحفظ الدرس مباشرة، إما لسبب التوضيح الجيد، أو مادة الدرس لذيذة، أو أن الطالبة المجدة قد قرأته مسبقًا، أو صفات المدرسة محبوبة، فيحبن من خلالها درسها.

دخلت مدرسة الأحياء، ساد الصمت يصاحبه ابتسامات مكتومة ونظرات معبرة.. كتبت على السبورة بالطباشير الذي يتطاير منه

الرذاذ، التاريخ، الأحياء، وعلى جانب، أجزاء الزهرة.. أخذت المدرِّسة ترسم وتشرح، الطالبات منتبهات.. رسمت زهرة كبيرة بالطباشير الأبيض، ثم لونت أوراق التويج باللون الأحمر، والمتك والميسم باللون الأصفر، ثم التخت والسويق بلون مخالف.. أشرات بخطوط كل جزء وكتبت اسمه خارج الرسم.. الطالبات في هدوء تام، شخصية المدرسة لها التأثير وإن فقدت جمالها.. يستمعن ويشاهدن.. ثم سمحت لهن بالرسم وفضّلت تلوينه.. استأذنت طالبة.

- من فضلك، أريد استعارة ألوان.. رفعت الكثيرات إليها قلما ملونًا أو أكثر.. سألت طالبة زميلتها عن الدروس التي فاتتها أثناء مرضها وطلبت استعارة دفاترها حتى يوم غد.. أخذت واحدًا شاكرة.. استغلت الطالبة فرصة أحد الدروس وأخذت تنقل المعلومات، كانت كتابتها سريعة كي تستفاد من وقت الفرصة وتوفير وقت البيت لأغراض المراجعة أو حل الواجبات البيتية أو مشاركة أمها أعمالها.. كان الصليب يتدلى على دفترها ويشارك قلمها، مسكت طرفه ووضعته في فمها كي تكتب في راحتها.. غمزت إحدى الطالبات إلى زميلة، علّقت الأخرى.

- تقبل الصليب بحرارة.. انتهى وقت الفرصة، بدأ درس جديد والطالبة مستمرة بالنقل من دفتر زميلتها.. كانت المدرسة متجهمة الوجه، صارم، متعصبة، تشاركها بعض الطالبات هذا التعصب.. كتبت على السبورة، التربية الدينية.. هذا الدرس عرضة لتغير اسمه، بتغير سياسة وزارة التربية؛ الدين، التربية الدينية، إسلامية، التربية الإسلامية، لكن المحتوى واحد.. ثم كتبت الموضوع؛ سورة

الإسراء.. انتبهت الطالبة إلى نفسها وهي تنقل، ثم جمعت كتبها واستأذنت بالخروج.. ابتسمت المدرسة بصعوبة قاصدة إقناعها بالجلوس ومتابعة الدرس، متأمله من ذلك، إنها ستتأثر وتتقبل الأفكار، والتقبل هو بداية الرضا، وهكذا إلى أبعد من هذا.. لكن الطالبة ألحّت بالخروج.. علقت طالبة أخرى.

- اجلسي واسمعي أقوال الله.. لم تعلق المدرسة.. لم تجبها الطالبة بل ظلت واقفة تتأمل الإذن بالخروج.. علقت أخرى.

- لا أحد على الأرض لا يريد سماع القرآن الكريم.. لم تعلق المدرسة.. أجابتها الطالبة.

- لنا أيضًا كتابنا، نستمع إليه ونحفظه.. أخفت المدرسة غيظها.. علقت أخرى بعصبية.

- لكن القرآن فوق كل الكتب السماوية.. لم تشترك المدرسة.. علقت زميلتها الجالسة جوارها بهدوء.

- كلٌ راضٍ بدينه.. نفذ صبر الطالبة، قالت.

- أرجوك لم أخرج هذه الفرصة، أنوي التواليت.. ضحكن بعض الطالبات.. سألتها المدرسة.

- وتعودين.

- لا، هذا الدرس الأخير، أذهب إلى البيت.. علقت أخرى.

- حجة.. غضبت الطالبة.. خرجت وصفقت الباب خلفها.. كتمت المدرسة ما نوت إليه لمعاقبتها.. علقت طالبة وهي تهز يدها.

- متعصبة.. في نهاية الدرس، اشتكت المدرسة الطالبة عند المديرة، كانت تجلس جوارها مدرسة أخرى؛ الطالبة خرجت دون استئذان وصفقت الباب بقوة، ثم قدمت أسماء مَن شاركن بالنقاش للشهادة وأبعدت زميلتها الجالسة جوارها.. عندما سمعت المدرسة الأخرى اسمها، قالت.

- عجيب، إنها طالبة مؤدبة.. استدعت المديرة الشاهدات قبل خروجهن من المدرسة، واحدة حضرت، ثم رجعت مسرعة إلى الطالبات الأخر، وجدت منهن قرب باب الخروج.. نادت بالأسماء وأضافت أخرى.. جئنَ المديرة.. ذكرن بداية ماحدث والنهاية دون التطرق إلى الحدث كاملاً.

- خرجت دون استئذان، صفقت الباب بقوة.. استفسرت المديرة من نفس الطالبة وهذا أصول المتابعة، أجابتها.

- استأذنتُ واقفة بالخروج، وأعدت الاستئذان، لكن هؤلاء الطالبات وقفن بوجهي وأسمعنني أقوالاً لا يرتضيها أحد.. ثم طلبت شهادة زميلتها.. جاءت الزميلة، تأخرت لانتظارها كي تعطيها دفاتر المواضيع الأخرى التي فاتتها.. حانية رأسها كي لا تصطدم عيناها بعيني المدرسة.. أجابت على سؤال المديرة.

- في البداية استأذنت بالخروج.. خافت.. صمتت.. تابعت.. خرجت وصفقت الباب.. علقت المدرسة الاخرى التي فهمت ما تنوي إليه المدرسة المشتكية.

- إذن، بدأتْ بالاستئذان.. أردفت زميلتها ولا زالت حانية رأسها.

- كانت تريد الذهاب إلى التواليت.. دافعت الطالبة عن نفسها وذكرت ما قالته الطالبات في الصف، ثم أردفت معززة موقفها.

- وهل مشاركة درس الدين بالإكراه؟ حلّلت المديرة الموقف مع نفسها، ركزت على سكوت المدرسة في مناقشة الطالبات، فهمت سكوت المدرسة أثناء مناقشة الطالبات.. وجهت المديرة كلامها إلى الطالبات قبل صرفهن إلى بيوتهن، خوفًا من إعادة ما حدث واستفحالة من منطلق مسئوليتها الإدارية.

- المدرسة مسئولة عن مناقشة الطالبة ولا يحق لأخرى.. صرفت كل الطالبات وبقت المدرسة والأخرى معها.. فتحت المديرة دولاب الأوراق الرسمية.. أخرجت ملف.. قلبت أوراقه.. قرأت في صفحة التعاليم، منها ما يخص دروس الدين، وقالت للمدرسة.

- تعاليم الوزارة واضحة، لا إكراه في حضور الطالبات الغير مسلمات الدروس الدينية.. ثم سألت المديرة المدرسة.. أجابتها بعد أن فهمت أن المديرة أصبحت مستوعبة ما حدث وأن كلامها مع الطالبات كانت تعنيها أيضًا، وركزت على صفق الباب لأنه يؤدي إلى عقوبة مؤكدة.. أذنت المديرة للمدرسة المشتكية بالخروج وأوعدتها باتخاذ ما يلزم.. خرجت.. دار النقاش بين المديرة والمدرسة الأخرى.. زكّت المدرسة أخلاق الطالبة وأيدتها المديرة، فمن واجباتها كمديرة ناجحة أن تكون على معرفة بسلوكية الطالبات.. وطمأنت المدرسة على أنها لا تتسرع وتتخذ قرارًا ضد

الطالبة، قبل أن تطلب منها الاعتذار من المدرسة عسى أن تتنازل عن شكواها.

وصلت الطالبة دارها منزعجة، متأخرة، وجدت العائلة احاطت منضدة الطعام.. رحبت بها أمها وقالت.

- تأخرتِ كثيرًا.. أجابتها بنبرة دون أن تنظر إليها علامة شيء ما.

- الزحمة، يا أمي.. جلست على كرسيها المعتاد.. دون أن تشارك.. سألتها أمها.

- ما بكِ؟ سردت لها ما حدث.. أراد أخوها التعليق، إلا أن أمه صاحت به؛ لأنها تعرف ما وراء تعليقاته.

- أنت اسكت.. أجابها.

- مجرد سؤال يا أمي.. سأل أخته وكأنه لا يعرف.

- ما هي دروس صفكِ؟ استغربت من سؤاله لأنه أيضًا كان طالب قبلها، لكنها أجابته.

- الهندسة، الفيزياء، الأحياء، الجبر.. سألها دون أن تنهي العد.

- وهل يحدث في هذه الدروس ما حدث في درس الدين؟

- لا أبدًا، مناقشة هادئة، كتابة وصمت.. هنا صاح.

- سمعتم، هذا هو العلم يا ناس، كل الطالبات يشاركن الدروس العلمية في هدوء وتقبل.. صاحت به أمه.

- كفى تعليقات، اترك أختك تأكل.. علق.

- إنها بذور الشر لو نبتت وانتشرت ما ستكون الكارثة*؟

صاحت أمه وكأنها تعرف مسبقًا ما ينوي قوله.

- الشر برأسك.. أجابها.

- نعم، والخير برأسي.. هزَّ يديه.

- لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي، ما بدلتُ رأيي؛ الدين أفيون الشعوب، عفوًا، العقول.. ضربت أمه ماعونها بملعقتها وصاحت.

- مريمانا، أرشديه إلى الصواب.. ثم مسكت السكين وقالت.

- أين هو هذا الملعون، ماركسكم، لأطعنه في بطنه.. ضحك الجميع لمنظرها وهي تهز السكين.. استغل فرصة الضحك.. مسك ملعقته، رفعها وقال.

- هذه الملعقة علم، إنها سبيكة، فيزياء.. فيها طلاء، كيمياء.. لها شكل، هندسة.. لها أبعاد، رياضيات.. كلنا نأكل بها راضين مرضيين متفقين.. هذا هو العلم.. صفق الجميع، استوعبوا ما قاله.. قالت له أخته.

- كفى، أغضبتَ أمي وهي تأكل.. أجابها وهو يمد رقبته إليها.

- صليبك يتدلى على ماعونكِ، سيشاركِ الطعام.. مسكت صليبها ووضعته بين نهديها وقالت.

- هنا، قرب القلب.. ابتسم.. جاءت صورة (الرب)، معلقة أمامه.. همس لأخته فقط دون أن يثير أمه.

- لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي، ما غيرتُ رأيي؛ الله هو الوهم الأكبر.

دخلتْ عليه غرفته، وجدته يقرأ في كتاب بؤس الفلسفة.. جلست قبالته، تكلمت بهدوء.

- أرجوك، لا تتكلم أمام ماما في مواضيع مقدسة، إنها مريضة.. أزاح الكتاب من أمام عينيه.

- لم أقصد ما قصدتيه، هي أمي وأحبها كما تحبينها، فهي ربي.

- بدأنا بما أنهيتكَ عنه.

- ومَن هو ربي إذن؟

- لا أدخل معك هكذا أمور.

- إذن تجهلين لغتك، هي ربي، أي رب أسرتنا، ورب منزلنا، كما هو في العربية.

- هكذا، إذن أنا معك.

- وبماذا لستِ معي؟

- بما تقصده من كفر.. عدّل جلسته، قال في نفسه؛ إنها مناسَبة لكسبٍ جيد.. أجابها.

- كفر، مقدس، رب، هذه وغيرها من مصطلحات البشر وليست عند كائن آخر على الأرض.

- طبعًا فهو الناطق والمفكر.

- أحسنتِ، ونطقها بأذن رضيعه الذي وقتها خلى مخه من كل المعلومات، فربّاه عليها، وأخذ يسمعها ويعيشها، ثم جاءت تعاليم الدين من أفراد الأسرة والمجتمع، فأخذوا يغرسون في مخه ما في مخهم وتربى على أن الله في السماء مع جنته، يدخلها إن طبَّقَ، ويعاقب إن رفض، وآيات مقدسة، وملائكة صالحين، وشيطان رجيم، وروح قدس.. كَبُرَ متشبع بهذه التربية التي هي الصدق والحق والصلاح والإيمان، دون غيرها، فصار إما مسلمًا او مسيحيًا او مجوسيًّا أو.. هذه من مقدسات الإنسان التي يتوارثها منذ الرضاعة ويورثها **، فلا أقوى منها منازعًا أو بديلاً.

- ولكن أصبح لك بديلها وكنت أيضًا رضيعًا؟

- هذه أمور أخرى، وبديلي دون منازع هي الطبيعة، التي تحيطني من كل جانب، المادة وقوانينها، جسمي؛ فيزياء في معادنه وكهربائه، كيمياء في تفاعلاته، رياضيات في هندسة وقياسات وأوزان مكوناتي.. البيئة، الكون.. قاطعته وقالت.

- كملعقتكَ.

- نعم.. استرسل في الكلام.. وما تفرز هذه من سلوكيات وعواطف.

- وأخفيت الدين ورب السماوات والأرض.. ألم تكن هذه من صلب الإنسان وهو مادة كما قلتَ؟

- الله في دماغ الإنسان فقط وما تشعب من اجتهادات وتفسيرات وتأليفات، كلها من دماغ الإنسان فقط.. نهضت وقالت.

- اذهب إلى الجحيم، أحذركَ من إغاظة ماما مرة أخرى.

- سأذهب بكل رضائي، ولكن إلى جحيم دانتي الليجيري أم جحيم ابو العلاء المعري؟

- أستغفر الله، قبل أن أخرج أقول لك، على الرغم من مادياتكَ، تحتاج إلى عاطفة إلى حب، لتتماسكَ معنا كإنسان.

- أحسنتِ، الحب هو أيضًا له خلايا متخصصة في الدماغ، يشتد ويفتر حسب ما تنقله الحواس من المحيط.. وهكذا العواطف.. وأرجو أن لا تنخدعي بالقلب فهو عضو عضلي له مهمة توزيع الدم، وما نبضاته الملازمة للحب إلا بتاثير تلك الخلايا.

....

*تحقق توقعه بعد ثلاث عقود في أرض الرافدين.

** في أحاديثي مع أطفال غربتي، لا أجد مفردة الله في كلامهم، معبر وواضح. أما مع أطفالنا، فيكثرون منها، إما تأكيدًا لصحة كلامهم أو تغطية كذب أو عادة كلامية مرباة.

هولندا



الصعود إلى السماء

دقَّ جرسُ الكنيسة، تجمّع المؤمنون عائلاتٍ وأفرادًا، احتفالاً بعيد الصعود.. رتَّل القسُّ وابتهل.. رددت وراءه الجموع وهي تنظر إلى الأعلى.. استمر الحالُ مدّةً طويلة.. همس طفلٌ بأذن أخيه.

- إلى متى ننتظر؟ أجابه بهمسٍ أيضًا دون أن يُنزل ناظريه.

- بعد قليل.. انتظر الطفل أكثر من قليل.. سأله هامسًا مرّة ثانية.

_ لا أستطيع فمثانتي امتلأت.. حذّره أخوه بأعلى من همسٍ.

- لا يجوز هذا إلا بعد الصعود.. صمت الطفل واستمر بالنظر إلى أعلى.. نفذ صبره.

- إذا صعد فكيف بسقف الكنيسة؟ أجابه باقتضاب وهو يلكز فخذه.

- إنه يصعد إلى السماء.. انتظر الطفل وهو يضع كفيه بين فخذيه.. سأل أخيه.

- لا زلت لا أرى شيئًا؟! أجابه باقتضاب وهو يهزُّ رأسه بعصبية.

- ليس هنا يا غبي.. زاد ثقل مثانته.. قال لأخيه.

- إذن لنخرج ونراه.. لم يجبه أخوه.. خرج الطفل مرغمًا، أسرع إلى التواليت.. نفظها وجرَّ نفسا عميقًا.. خرج إلى الحديقة وأجال النظر من أعلى الأشجار وفي كل جهةٍ من السماء.. عاد إلى أخيه ولا زال الوضع كما هو، قسٌّ يُرَتِّلُ وناس تسمع.. ثم جاءت فترة الجلوس.. همس الطفل بأذن أخيه.

- خرجتُ ولم أرَ شقًّا في السماء.. أراد أخوه الضحك، ولكنه كَتَمَ وفكّر بما يقنع الطفل.

- أنت تشاهد أفلام الكارتون، فتوم صديق جيري، يقفز ويطير حتى النجوم ثم يعود، فهل انشقَّ سقف التلفزيون؟ هكذا سيدنا.. صمت الطفل مقتنعًا بالفكرة.. سأله.

- لكن توم يوميًا أراه وسيدنا إلى الآن لم أرَه؟

- سوف يظهر.

- هل أبي رآه؟

- كلا.

- هل جدي رآه؟

- كلا.

- إذن القس رآه.

- أيضًا لا.

- إذن.. توم فقط الذي رآه، فتوم يصعد إلى السماء يوميًا كلما أفتح التلفزيون.. أجابه بنفاذ صبرٍ لاقناعه.

- ربما، بل نعم، نعم.. قال الطفل.

- أحيانًا توم يصعد بطائرة أو صاروخ فيذهب إلى السماء، ويعود. ومرات خارج السماء إلى النجوم.. فهل سيدنا كذلك؟

- لا أبدًا، إنه صعد مرة واحدة واختفى.. مطَّ الطفل شفتيه وقال بصوتٍ مختلف.

- توم أمهر منه فهو يصعد يوميًا ويعود بنفس اللحظة، وسيدنا مرّة واحدة فقط! صمت الطفل ثم تابع.

- هل أنت رأيته؟ أراد أخوه قطع أسئلته نهائيًا فقال له.

- لم يَرَهُ أحد.. علّق الطفل.

- لا بُدَّ كان ذلك ليلاً.. لم يجبه.

- ولكنك قلت لي اليوم يصعد سيدنا.

- نعم، مثل هذا اليوم صعد سيدنا إلى السماء قبل ألفَي عام ومرّة واحدة فقط، ونحن نحتفل بهذه الذكرى.

- أمثل توم.. بطائرة أم بصاروخ؟ أراد إجابته لكنه تأنى قليلاً.. حكَّ شعر رأسه وحكى مع نفسه (أنا لا أفهم كيف تمَّ ذلك.. ارتفاع الجسم إلى أعلى يحتاج إلى قوّة دافعة من الأسفل كما هو في العلوم وما نرآه في الواقع، أو يحتاج إلى قوة ساحبة في الأعلى.. ربَّما.. ربما الله هو القوة الساحبة).

قلَّب الطفل أوراق التراتيل التي كانت بيد أخيه.. سقطت ورقة على الأرض وانحرفت تحت الكراسي التي أمامهما.. القس مستمر

بمواعظه.. نظر الطفل إلى الأسفل وشاهدها ابتعدت قليلاً عند ساقي شابة جالسة أمامه.. انحنى.. مدَّ يده الصغيرة بين ساقيها لالتقاط الورقة فلامستهما.. أحست الشابة باليد الدافئة والناعمة، ابتسمت، ارخت ساقيها أكثر.. التقط الورقة وسحب يده فلامست ساقيها مرة ثانية.. استدارت إلى الخلف بابتسامة عريضة علامة الرضى فشاهدته طفلاً, فزّت ومطّت شفتيها وقالت.

- طفل.. !!.. ياللخيبة.. شاهدها أخوه بوجهٍ جميل، أجابها برقة وابتسامة.

- لا تخيبي.. سنلتقي بعد الخروج.

....

قالت لزوجها بعد القراءة.

- أزعجتني، وإنْ لا أنتمي إلى دين ما ذكرت، ولكن يدفعني الانزعاج إلى أسألك.

س: لماذا، كما أرى في كتابتكَ، سخرت من هذا النبي؟

ج: لا أرى كما ترين، سخرت من فكرة تسخر الفيزياء منها.

س: والضياء ألم يصعد وهو مادة؟

ج: صعود هذا غير صعود ذاك.

س: ولكني أتخيل وأصدق.

ج: وتخيل أجدادكِ الغيوم، غنَمًا تمشي في السماء، وصدَّقوا، فهل الآن تصدقين ما صدقوا؟

س: لا أصدق الآن ما صدقوه في ذلك.. ولكني أصدق هذا وهو غير ذاك.. إنها قدرة.

ج: إذن انتظري، سوف يأتي يوم لا يصدق فيه خلفك ما تصدقيه، مثلما لا تصدقي الآن غنم أسلافك التي كانوا قد صدقوها.

س: حرارة جسمي وجسمك، لا تتعدى خطّيها، فما معنى إنْ تعدتْ؟

ج: الموت.

س: ولماذا لا يموت البوذي عندما يرفعها إلى أبعد من الخط الأعلى بكثير؟

ج: مهما كان، تمرين وإرادة، فقد استعمل جسمه الطبيعي وليس خياله.. لقد ابتعدتِ عما قرأتِ..

س: لماذا مسستَ الكنيسة بالجنس؟

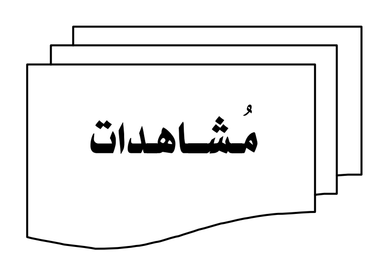
ج: الجنس هو أحد مقاييس التقدم.. عندما دخل الجنس الكنيسة، للتعارف وللتصادق وللوصال، تحول من التعصب فيه في القرون الوسطى، إلى المحبة في الوقت الحاضر.

س: إلى المحبة في الغزل الذي ذكرت؟!

ج: نعم، نعم، نعم.. الغزل في بيوت الله، ساعد على تحرير المرأة.

زفولا – هولندا

٢٠٠٤



تهرأ تختها،

هَوَتْ.

رفرفت أوراقها في الهواء،

توسطتْ كفه.

نظرَ مصدرها،

مجموعة أزهار ترقص،

وأخريات تنتظر السقوط،

السابقات افترشن الأرض.

شمّها، همسَ،

حتى بعد حياتك معطاء.

تخت- جزء تجلس عليه محتويات الزهرة.

....

رفرفت، طارت، علت.

تبعها ينبح لاعبًا.

نزلت، دارت حوله، نبح ومقدمتاه تلعبان في الهواء.

علت، تبعها مستديرًا حوله.

اختفت بين الزهور.

استلقى على الأرض، اللعبة انتهت.

....

تموّج وجه النهر،

حلقات حلقات.

رمي سنارته، انتظر.

خدر عجزه، اصطبر.

اهتز الخيط.. توتر.

سحبه، رقصت في الهواء.

حررها بهدوء مبتسمًا.

قبّلها، أعادها متمتعًا.

....

صبرتْ منتظرة مشتهية.

شاهدته، صهلتْ.

اعتلت أماميتاه ظهرها.

دفعه، أخطأ.

دفعه، أصاب الهدف.

ولجه، ولجه في العمق.. فرّغ.

مال رأسه، خارت قواه، سقط.

تعاد بعد حول.

حرمان أم طبيعة؟

....

انتبها إلى زقزقات.

رفرف جناحيه وزقزق، رفرفت جناحيها وزقزقت.

قفزَ.. قرب منها.

رفرف جناحيه وزقزق، رفرفت جناحيها وزقزقت.

قفز، قرب، اعتلاها، نزل.

رفرف جناحيه وزقزق، رفرفت جناحيها وزقزقت.

قفز، اعتلاها، نزل.

اعتلاها، نزل، اعتلاها، نزل..

سأل صاحبه، كم؟

ابتسم، وصلتُ المرة العشرين في عدّي.

ضحكا.. طارا.

طبيعة؟

....

يزحف، وجلده عاري.

المطر غزير،

كفاه تطبعا الطين،

وفمه مملوء، ماما.

نهد أمه مقطوع من أثر الحروب.

......

ابتعد عنه، فرائحته تزكم.

ناوله حقيبة، تمتم له وعاد.

فتحها أمام أفراد سلكه.

مئة ألف يورو..

تابعه.. شاهده وشاهدَ،

هزّ له ذيله نابحًا فرحًا.

حضنه.. أخذ مكانه جوار القمامة.

نفخ في نايه سعيدًا وكلبه يشاركه بذيله.

....

أنهى رياضته، نظر إلى الحائط.

نادى مقابله.

- تعدتْ نصف دقيقة.

نظر هذا، أجابه.

- بل بعد نصف دقيقة.

حسم صاحبهما الأمر.

- بل إنها بالتمام.

اختلف الثلاث على ميقات الساعة.

قال الذي لعب يمين الساعة.

- أنا متأكد، شاهدتها بأم عيني، لا زال فيها نصف دقيقة.

قال الذي لعب يسار الساعة.

- أنا متأكد، شاهدتها بأم عيني، تعدّت نصف دقيقة.

قال الجالس أمامها.

- أنا متأكد، شاهدتها بأم عيني، إنها كانت بالتمام.

قال المراقب.

ـ كلكم صادقون. لا توجد فروقات، كل نظر إلى الساعة من مكانه المختلف عن مكان الآخر. فابتعاد العقرب وارتفاعه عن الرقم حسب الزاوية التي نظر كل منكم منها. والحقيقة واحدة.. أرجوكم وقت الرياضة انتهى.

....

وضعت قنينة لبن زجاجية جانب قنينة مخللات ذات ألوان أكبر منها.. وهو يرتشف شايه، قال.

ـ أرى لونًا أحمر يغطي سطح اللبن.. نظرت، قالت.

ـ لا ما تقول.

ـ أرى الأحمر بأم عيني.

ـ وأنا أراه أبيض بأم عيني. فاللبن طازج في تحضيره وصافٍ من شائبة.. حملت قنينة المخللات إلى المخزن.. ارتشف.. شاهد اللبن أبيض.

ـ آه، بأم عيني أحمر وبأم عينها أبيض.. عرفت السبب فإنزال الغموض. لو تحريت السبب أولا لما كان هناك اختلاف. جهل السبب أو الأسباب يؤدي لنقاش عقيم يوصل إلى الثرثرة. لا تستعمل لسانك دون عقلك ولا تستعمل لسانك قبل عقلك.

ـ سامحيني يا عزيزتي، عرفت السبب.. ضحكت، قالت.

ـ خداعك الطيف.

- الخداع آفة، تؤثرعلى التفكير فيعطي أحكامًا غير صادقة.

- مثل ما شاهدت.

....

سألته وهي القادمة توّا، عن عادات أهل البلد الذي ألجأهُ.

- يصافحني ويسمي نفسه، يستمر في فتح الباب حتى أصل، ينتظر حتى صعودي الباص، لا يرد تحيتي وهو يكلم آخر، يغلق فمه عندما يأكل.. ردّ مقاطعًا.

- كفى، ابحثي عن معناها في قاموسكِ.. أخذت تبحث في قاموس اللغة، فلم تجد أيّا منها. أخبرته.. ضحك كثيرًا.

- لا أقصد قاموس اللغة، وإنما قاموس ثقافتك التي تحمل ما يشبه هذا.

- لا أفهم، اختصرْ وقل ما معنى ما عددت؟

- لها معنى واحد، الاحترام. كيف كان احترامكِ للآخر؟ أجابت بعد تفكير.

- عندنا مهابة أو خوف أو يختلطان.

- فسريهما؟

- مهابة الأكبر مني، رئيسي، أو أبي. وخوفي معلمي، حاكمي، أو شرير.. أو يختلطان.

- والاحترام؟

- يدخل في باب ما ذكرتهما.

- شتان. كل عادة من منحدرها الاجتماعي.

- لكنها توافه؟

- هذه التوافه ومثلها مرآة العلاقات الاجتماعية، فباحث الاجتماع يبحثها ويستنتج منها...

....

التصقت جبهته زجاج النافذة.. نظرَ، صغيرة زرقاء ٤٥ كم.. جلسَ فيها متلهفًا ولم يخلع حقيبة ظهره.. هزّ قدميه فرحًا، قربهما، هزهما.. ضغط كفيه على المقعد وهو ينظر إليه مبتسمًا.. أحسّ ضغط أنفه على الزجاجة.. ابتعد.. واصل.. مسك المقود، أدار المفتاح، صرير التشغيل.. تحركت، وصلت، نزلا.. فوضى، صياح، منادات، هذا يبطش الماء وآخر يقذفه.. ألقى جسمه.. أحسَّ ضغط أنفه.. ابتعد.. واصل.. كان يراقبه وهو يرتشف شايه في الانتظار.. نادت المراقبة بانتهاء المدة.. خرج مبتلاً.

- جدّو، شكرًا.

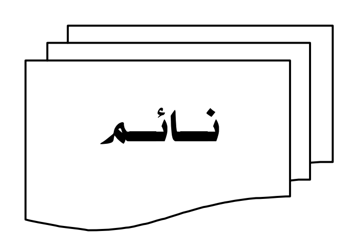
التصقت جبهته زجاج النافذة.. نظر.. صغيرة زرقاء ٤٥ كم.. واصل.. ضغط إسفنجة التنظيف على زرقتها، سال الصابون مفقعًا، ابتلت ملابسه ولم يبالِ، تحسر.. سار خلف نعشه ودموعه تنهمر.. أبعدَ أنفه وجرّ حسرة عميقة.. خرج جوارها والحزن يلازمه.. ملأ

الأب استمارة البيع.. ناولها لعجوز.. دفع ثمنها شاكرًا.. لاحظ حزن الصبي وعينيه الشاخصتين إليها. تذكرحفيده

وتلازمهما، اجتاحته موجة حزن غريبة.. ترك الاستمارة بيد الصبي وخرج.

هولندا

أغسطس ٢٠١٣



مسك ساق شجرةٍ أملس، وضع قدمه الصغيرة، تزحلقتْ. حاول، تزحلقت. حاول، فلح. تربع على غصن.

تفئ بظلال الشجرة، فالشمس حارقة، أسند ظهره على ساقها الأملس. نظر إلى السماء، زرقاء تتخللها نتف من الغيوم البيضاء.. مرّ طير، تابعه حتى نهاية مساره. نزلا جفناه. أخذ إغفاءة.. فتحهما قليلاً.. مرت طيور، تابعهما، لم ينهِ خط مسارهما أغمض عينيه.. استمر.. فزَّ، سائل حار ينزل ظهره، نهض، شاهده معلقًا ولا زال عضوه الصغير لم يدخل بنطاله الذي تبلل أيضًا. صاح به مهددًا، أجابه متأسفًا.

- جدّو، خفت التزحلق على صلعتك، مثانتي امتلأت، ندهتك وندهتك ولكنك لم تستجب، ولم أتحمل.. هدده عند عودة أبيه. أجابه.

- ذاك أبي.. لم يستطع الأب كتمان ضحكه، قال وهو سكران.

- أنزله يا أبي واذهبا تدوشا. ستكون ذكريات حلوة عند ابني، كما هي الآن عندي، هل نسيت؟

......

أمال قبعته حدّ عينيه، أغمضهما.

قلقلة، قلقلة..

شمّ عبقًا،

فتح نصفي عينيه، ألوان متنوعة، أشكال مختلفة، في شدّة واحدة.

أغلق عينيه.

قلقلة، قلقلة..

لُكِزتْ قدمه الممدودة،

فتحهما نصف فتحة، ساقان مصقولتان، ركبتان صغيرتان، فخذان تغطا نصفيهما.

أغمضهما.

قلقلة، قلقلة..

صوت مسموع،

فتحهما إلى المنتصف، مجلة ثقافية على المقعد.

أغمضهما.

قلقلة، قلقلة..

صوت عالٍ.

ـ من فضلك الأوراق.

فتح عينيه، استعدل. ناوله بطاقات السفر.

- جواز سفرك؟

- قصدي مدينتي(..).

- دخلتَ الأراضي الألمانية.

- عفوًا، أريد العودة.

- عودتك في الرصيف المقابل.

المطر يهطل.. ابتلت ملابسه.. انتظر أقل من نصف ساعة.. ركب.. نفض ماء حذائه، نكث ملابسه.. لم يستطع الجلوس جوار الركاب. اختار مقعدًا منفردًا جوار التواليت.

أمال رأسه، أمال قبعته.

قلقلة، قلقلة..

فتحهما إلى المنتصف، الرائحة تزكم أنفه. أغمضهما.

وصل، نزل. الساعة بعد منتصف الليل. انتهى عمل واسطة النقل التي يستطيع دفع أجورها. عاد مشيًا بين ظلال شجرة وضياء مصباح. لا يفتح عينيه إلا على سعاله الذي لازمه. تكلم مع نفسه لائمًا (ما نبهني عبقُ أزهار، ولا أثارني جنس، ولا أيقظتني ثقافة، ولا خوف من غرامة، أنا رقم من مجتمعات النيام). بئس؟

....

برمج جهاز الركض؛ الوقت٢٠ دقيقة. السرعة ٦. لا يحتاج إلى تهوية فجو القاعة مناسب. مسك المقبض. تسارع الحزام. حرّك رجليه حتى تساوت السرعتان.

مرّت دقيقة، دقيقتان.. نظر من خلف زجاج القاعة، مرت دراجة وخلفها أخرى.. الدقيقة الخامسة. الوقت مع الجهد يمر ببطء. نزلا جفناه، مسك المقبض أقوى، سرح خياله في موضوع، وضع رؤوس أقلام.. فتح عينيه.. مر كلب وخلفه صاحبته، تابعهما، توجها صوب الحشائش، الكلب يشمشم أعشاب الطريق.. الدقيقة التاسعة.. نزلا جفناه.. أعاد رؤوس الأقلام، صحح، بدّل كلمة، أضاف جملة، رتّب الأحداث.. فتح عينيه.. الدقيقة الخامسة عشرة.. بين إغماضة ويقظة، سمّى الموضوع، نائم.. انتهى الوقت. دخل مكان الملابس، اثنان يتناقشان آخر يأخذ دوشا. بدّل ملابسه وخرج. لم يستسغ أخذ الدوش بين الأعضاء المكشوفة، المختلفة الأطوال، غالبيتها منزوعة الشعر. لقد جرب ذلك في البداية.. وصل شقته، أخذ دوشًا، حضّر شايه، جلس أمام التلفاز، شاهد أخبار قومه، حرب ودمار. أغمض عينيه حتى شخر.

هولندا

سبتمبر ٢٠١٣



ثوانٍ وإحساس

سرَّع دورة قدميه. ارتفعت نبضات قلبه إلى ٨٧ ضربة، لا يجوز له تعدّي المئة. لا تبارح عيناه شاشة الوقت، يلتزم بما تشير إليه. وقت التمرين مقسم إلى عشرة دقائق بجهد ٦، عشرين دقيقة بجهد ٨. في أولى تمارين الدراجة، كان يتابع عدّ الثواني مع ما تظهره شاشة الوقت؛ خمسة ثوان، تسعة ثوان، عشرين، تسع وخمسين، ثلاثة دقائق، ثلاثة دقائق وأربعة عشرثانية، أربعة دقائق، أربعة دقائق وعشرين ثانية. كان الملل من عدّ الثواني ومتابعتها لا يطاق وإلى حدّ التضجر، خاصة عندما تشير شاشة الوقت دقائقها الأخيرة، فيجهد نفسه للاستمرار حتى نهاية وقت التمرين. أثناء عدّه الثواني المملة يوجه عينيه جهة أخرى، أو يغمض عينيه يتخيل ما يلذه في قتل الملل. تذكر قبل عشرات السنوات عندما كان شابًا يلتهم الكتب، كتابَ الضحك لبرغسون، إلا أنه لم يتذكر حتى بعض محتواه، فأخذ يضحك للتخلص من معاناة التفكير بمشكلته التي خلفتها الجلطة القلبية وما تبعها من تبديل اوردة قلبه ثم ما سببته العملية الجراحية من ثقل الرجلين والتعب السريع، فكان تمرين الدراجة هذا ملزمًا

يوميًا بالإضافة إلى ركوب الدراجة الهوائية والمشي اليومي وحمية الغذاء. وتذكر مشاركة زوجته الضحك عملا بوصية الدكتور في تسليته، أما هو سأل نفسه عندما سمعها (هل الضحك عدوى؟)، ثم طفر خياله إلى برنامج تلفزيوني حول مجموعة مرضى يتعالجون بالضحك الجماعي.. استمر بالضحك.. عاد يتابع شاشة النبض، ومتابعة الثواني والدقائق على شاشة الوقت، انتبه إلى أن الوقت يبدأ وينتهي لقياس حدث، ثم جاءت صورة اينشتاين بشعره الكث وشاربيه الغليظين وبلوزته المهدلة، ضحك من صورته وتذكر نقاشه مع الأصدقاء حول مسيرة الضياء وأنها هي مسيرة الزمن نفسها.. انتبه إلى شاشة الوقت، فاستغرب من سرعة سيرالثواني والدقائق مع هذا التخيل.. ضبط رقم الثواني والدقائق، ثم حول خياله إلى حادثة، فأخذ يضحك، شاهد بعدها شاشة الوقت قد سارت سريعًا.. فهمَ أن ملّله وضجره آتٍ من متابعة تجزئة وقته إلى وحداته الصغرى، الثواني. إذن عليه تخيل ما يلذ ليتخطى هذه التجزئة وما تسببه في متابعتها، ولكنه حاكى نفسه أيضًا (الثانية تساوي ٦٠ ثالثة، في هذا اليوم أو قبل عشرات السنين، صباحًا اوعصرًا، نهارًا أو ليلاً، صيفًا أو شتاء، تمر بملل حد الضجرعند عدّها، وهي نفس عدد ثوالثها تمر متسارعة عند اللذة، إذن مخ الإنسان، حالة التفكير، هو المسئول عن هذا الإحساس).

أشارت شاشة الوقت، عشرين دقيقة وثلاث وأربعين ثانية.. أغمض عينيه ليتخيل.. تخيل مغازلة فتاة وهو الآن في السبعين، كان هذا من الحرمان الذي كان يشكو منه طيلة فترة شبابه؛ صعدَ

باص.. اختار مقعد.. جاءت قبالته. عينان خضراوان، أهداب طويلة، فم بشفتين فتحة الفستقة، بشرة بضّة، شعر ذهبي.. ركّز نظره.. ابتسم، ابتسمت.. ارتاح نفسًا.. فتح عينيه على شاشة الوقت.. حسبَ الفرق بين الوقت الجديد وسابقه، هو خمسة دقائق وخمسين ثانية. إذن مر هذا الوقت دون ملل أو ضجر.. نظر إلى شاشة النبض، رقم النبض مسموح به.. نظر إلى شاشة الوقت، ثمان وعشرين دقيقة وعشرة ثوان.. أعاد تخيله مع بعض التبديل في ترتيب بعض الحالات؛ صعد الباص.. جلس قبالتها، عينان خضراوان، أهداب طويلة، شعر ذهبي، شفتان فتحة الفستقة، بشرة بضّة. ركز ناظريه.. ابتسم مرتين.. ابتسمت مرتين.. فتح عينيه، وجد الوقت تعدّى وقت التمرين عدة دقائق.. ارتاح نفسًا.. أخذ يطبق هذا في تمارين الأيام القادمة والتي تستمر مع عمره.. وسّعَ تخيله في حكايات قصيرة فيها غزل، فيها إنسانيات، فيها طبيعة وبيئة.. استفاد منها في نشرها على موقع إنترنت.. الوقت حلو جميل، الساعة تركض، والعرق يتصبب، وعيناه تخلس النظر أحيانًا إلى شاشة النبض لأنه يشكل خطورة التعدي.

هولندا - ٢٠٠٧

الصبيان وبقايا حرب

تعشّقت أصابع كفّيهما الصغيرتين، واتجها صوب الشمال من مدرستهما، بخطواتٍ خفيفة وسريعة فالهدف الذي ينويان الوصول إليه وإنْ لم يتعدَّ وقت وصوله عدة دقائق إلا أن لهفة الوصول إليه تُخفّفُ الخطى وتزيدها سرعة.. كانت أقدامهما لا تثبت على الأرض كثيرًا، مرة ترتفع اثنتان ومرة تنزل اثنتان على نغمات ما ينشدانه من الأشعار التي يحفظانها، وإذا ما صادفتهما حصى صغيرة، ضربتها قدم إحدهما لتزيدها ابتعادًا، فتلحقها قدم الثاني بضرب حصى أخرى أكثر ابتعادًا.. وإذا ما صادفهما غصنٌ متدلٍ من شجرة، تدلى أحدهما به وحاول الثاني إيقاعه منه، والضحك والمرح يملأُ فميهما.. كان شعر الصبية ينصّفه فرقٌ عريض، تدلتْ من كلا الجانبين، جديلة مضفورة بشريطٍ بعرض إصبع وبلون الرمان، وكانت ترتدي قميصًا بلون القطن تنتهي كمّاه بأتمينٍ مزخرف بدقّة، تحتضنُ هذا القميص تنورة زرقاء تنتهي إلى ما فوق صابونتي الركبتين، وقد لحّف جورابها الأبيض برسمٍ صغير، حذاءٌ أسود لمّاع، كانت تحمل على ظهرها حقيبة مدرسية صغيرة

برز منها رأس حمامة بيضاء مجسم في الوقت الذي كان يحمل الصبي على ظهره حقيبة مدرسية صغيرة أيضًا برز منها رأس حصان أبيض مجسم.. اخترقا مجموعة من الأشجار وأخذا يسيران في دربةٍ عملتها أقدام السائرين لفترة طويلة، وعلى مقربة شاهدًا تلّة كبيرة من الأغصان التي تشابكت فيما بينها وكونت أشبهَ بكوخٍ طبيعي له عدة فتحات، دخلا من إحدى الفتحات فشاهدا كومة أعشابٍ تجمعت على ساقٍ غليضة مكسورة من شجرة، تربعا على هذه الكومة فخلعت الصبية حقيبتها من على ظهرها ووضعتها جانبًا ولحقها الصبي بنزع حقيبته وهو يؤشر على رأس الحصان المجسم ويقول لها:

- انظري كم هو جميل، أراد أبي أن يختار لي حقيبة برأس ذئب لكني رفضتُ لأني لا أحِبُّ الذئاب لأنها مخيفة وكثيرًا ما تهاجم الإنسان فتعمل معه حرب لا تتركه إلا وملّخت أنيابها جسمه، هذا ما أشاهده بالتلفاز.. أجابته:

- أنا أيضًا لا أحبُّ الذئاب، حكت لي جدتي مراتٍ متكررة حكاية (ليلى والذئب) وقد كرهت الذئاب من وقتها، فاختيارك لرأس الحصان أفضل، فالحصان لا يؤذي والناس تستخدمه للركوب وللـ... قاطعها الصبي قائلاً:

- وهناك من يقسو عليه بجر العربات واستخدامه بالحروب كما شاهدت ذالك في افلام (الكاو بوي) وهم يقتلون الهنود الحمر في ملابس الريش الجميلة. أمنيتي أن أركب حصانًا وأذهب إلى.. إلى.. رفع رأسه إلى أعلى وقال.

- إلى السماء.. قاطعته الصبية بابتسامة بريئة وهي ترفع رأسها أيضًا.

- وأنا أركب معك أيضًا.

- نعم، أنا أمسك شعر رقبته وأنتِ تركبين خلفي ونذهب إلى تلك الغيوم البيضاء.

- وأنا ألفّ يدي حول بطنك بقوةٍ حتى لا أسقط.. ثم أخذا بالضحك.. قالت له.

- وهذه الحمامة معنا أيضًا فهي طير عجيب حكت لي جدتي عنها، إنها تقطع المسافات الشاسعة بين البلدان وتعود إلى مكانها الأصلي، فنجعلها الدليل لنا إلى أماكن مختلفة ثم نعود إلى مكاننا دون أن نضيّعه.. فتح كل منهما حقيبته الصغيرة.

أخرجت الصبية تفاحة وقالت:

- أمي وضعت لي في حقيبتي تفاحة واحدة، لي نصفها ولك نصفها الآخر، ثم قالت، هل سمعتَ بحكاية تفاحة حواء؟ حكت لي جدتي أيضًا هذه الحكاية منذ زمن.

- لم أسمعها، وما هي؟

- أذكر من الحكاية أنها أول فاكهة قدمتها حواء إلى صديقها.. أما الصبي فقد أخرج من حقيبته فطيرة وقنينة ماء، قدّم لها قنينة الماء. كوّرت شفتيها اللتين أصبحتا على شكل وردة وكرعت كرعة واحدة من الماء بعد أن شكرته.. أخذا يتداولان الأحاديث القصيرة مع المداعبات والنكات.. بعد ذلك أخرج دفترًا صغيرًا وقلمًا وأخذ (بالشخبطة) وهي تنظر إليه وتقول.

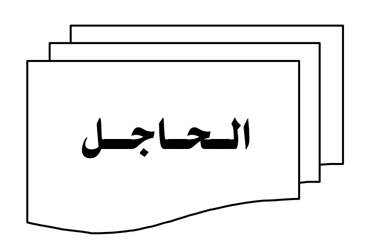
- قال عنك معلم الرسم إنك ستصبح رسامًا ماهرًا في المستقبل. هل تستطيع أن ترسم جديلتي وهي طائرة في الهواء؟ مسكت جديلتها ورفعتها إلى أعلى.. قال لها وهو يضحك.

- وأستطيع أن أرسمك وأنتِ طائرة أيضًا في الهواء.

الابتسامات والسكوت. الضحك بعد المداعبات. شربة ماءٍ وقضمة تفاحة. اللعب في الواقع والطيران في الخيال. هذا كل ما كان يشغلهما في هذه النزهة.. طقطق ساق الشجرة من تحتهما فقد مرت عليه سنوات طويلة فقد أثناءها قوّته. أخذ ينظر كل منهما إلى الآخر بصمتٍ يتبعه ضحك.. وقف الصبي وبيده اليمنى رأس الحصان على ساق الشجرة، ومسك بيده اليسرى يد الصبية وسحبها إلى أعلى فوقفت بجانبه وهي ترفع رأس حمامتها البيضاء إلى أعلى وهما يحاولان الطيران بعد أن مسك كل منهما الآخر خوفًا من الوقوع.. هذا يلّوح برأس حصانه وهذه تلوح برأس حمامتها، حتى انكسر بهما ساق الشجرة المتيبس ووقعا على ظهريهما وحدث انفجار لغمٍ كان مدفونًا في هذا المكان من مخلفات الحرب الماضية. تطايرا أشلاءً ولم يبق من جسميهما إلا الكفان اللذان بقيا على تعشقهما وهما متدليان من على شجرة أخرى.

أبل دورن – هولندا

٢٠٠٠



قذفَ الكرة، صدّها آخر في الثامنة من عمره، ضربها بقدمه إلى جهة مَن يكبرة ثلاث سنوات.. هي متنحيّة عنهم، تلعب ببالونتها قرب باب عمارة سكناهم، تركوا ساحة لعبهم المقابلة التي فيها، مرجوحة، سرّيحة، حبال تسلق، سبرنك حيوان، قاعدة لعبة كرة السلة، رمل، مساطب لجلوس المراعين، لكنها لا تشمل لعبة كرة القدم.. طارت بالونتها اصطدمت به، حضنتها وركضت مسرعة للأطفال، مؤشرة إليه.

- خرج، خرج.. تركوا اللعب ينظرون إليه.. عدّت الطفلة مقتنعة أنه سيبدأ (أين، تفَي، دري). لم يحدث شيء.. عبر الشارع، وصل الرصيف.. أعادت العد (اين، تفي، دري، فير). رفع قدمه اليسرى فجأة وأنزلها.. غُصَّ الأطفال بالضحك، لم يسمعهم لأنه أصبح على بُعد منهم.. أعادت العد، شاركها طفل آخر (اين، تفي، دري، فير، فايف). انتظرت وانتظروا.. عدّت من جديد (اين، تفي، دري)، حتى رقم تختخ.. رفع قدمه اليسرى فجأة وأنزلها.. غصّوا بالضحك.

تحبّ زوجته نباتات الظل، التي تفضّلها كباقي جيرانها، داخل المنازل، بسبب البرد الشديد، التي تموت فيه النباتات المزروعة في الخارج، تزين بها غرفة استقبالها وغرفة نومها، دائمة الخضرة زاهية، لا تنفظ فتوسخ.. اصيصة هنا، واصيصة تقابلها، لا تترك الاصص في مكانها مدة طويلة، تعطي التجدد في التبديل.. لا يشمل هذا التبيدل اصيصتين متقابلتين، زرعتهما نبات متسلق، امتدّ سريعًا بصورة غير متوقعة، بسبب تربتها الجديدة التي بدلتها بداية الربيع، كذلك ضياء الشمس الداخل معظم النهار من الشباك الذي أخذ مساحة الجدار، قبل الظهيرة حتى الغروب.. وإذا ما جاء الغروب، يضفي قرص الشمس لونه الأحمر فيزيد جمالية المكان مع ضياء الشموع التي تبكّر زوجته في ولعها.

أنزلت الخيط الذي تتعلق فيه متسلقة وصلت حدّ السقف، وأخذت تلفّ بعض الأغصان التي طالت وتدلت، إلا أنها احتارت في تعليق الخيط الذي يجب أن يكون أطول.. شاهد حيرتها، سألها.

ـ ما الأمر؟

ـ لا أعرف كيف أوجّه نموها السريع إلى السقف.

ـ ما رأيك، أمسمر السقف، وأربط خيوطًا، فتسير المتسلقة إلى الجهة المقابلة، وبالمقابل أيضًا المتسلقة المقابلة، وتلتقيان، مزينتان السقف.

ـ وماذا بعد؟

- وماذا بعد.. نعمل السقف خيوطًا متوازية طولاً وعرضًا، فتملأ المتسلقات السقف، وتصبح غابة معلّقة، وجميلة.

- سوف لا أتخلى عن هذه الفكرة الرائدة.

- نعم، ستتميز غرفة استقبالك عن غرفهن بهذه الطريقة.. ارتاحت لهذه العبارة وسارعت بطلب.

- أرجوك، اجلب الخيوط والمسامير.. هندسا السقف، خيوط من هذا الاتجاه إلى الاتجاه الثاني، تقاطعها خيوط أخرى متوازية.

نمت المتسلقات بسرعة، التربة جديدة، الضياء كثير، العناية مستمرة.. فترة، واصبح السقف غابة معلقة.. عادته سماع الموسيقى الكلاسيكية، كل صباح قبل النهوض من الفراش.. أهداه ابنه الذي يسكن العاصمة، سيديات، لسمفونيات وموسقى الشعوب. يعرف أبيه، هادئ الطبع، يكثر الاستلقاء والاستماع إلى الموسيقى الهادئة. في سن التقاعد، أهداه موسيقى بأصوات الطيور والعصافير مع أنغام البيانو.. إحدى المرات لم ينهِ سماع هذه الموسيقى، نادى زوجته.

- تعالي واستمعي.. بعد تأكده من استذواقها، قال لها.

- ما رأيك في شراء عصفور يشبه بلبل بلادي، يطير ويغرد بين المتسلقات.. فرحت كثيرًا وايّدته، أخذا يتصوران الحالة، غابة معلقة فيها عصفور يمرح، يغرد أو يزغرد.. قالت له.

- بشرط أن يكون عصفورًا واحدًا، وإلا أرفض الفكرة، لا أطيق كثرة الذروق وروائحها.

دخل محل بيع الحيوانات، ألقى نظرة على الأقفاص، طيور متنوعة، عصافير، حيوانات بيتية، أنواع القوارض، أنواع الجرذان، أرانب، أنواع أسماك الزينة.. وقف أمام أقفاص الطيور الصغيرة، سمع أصواتها، اختار عصفورًا صغيرًا له زغردة ذكّرته ببلبل بلاده، اشتراه مع كيس غذائه، ومعلومات العناية به.

مرت الأيام، العصفور، يجول، يمرح، يسرح، يتنقل فوق المتسلقات، من الصعوبة أن تراه، تغريدة في هذا الركن وذاك.. صار والعصفور أصحاب، إذا ما وقف تحت مكان وقوفه وبيده طعامًا، يلوح به ويصفر له، غرد له واستدار مرات ثم ينزل موكرًا على يده يلتقط، كانت البداية صعبة، وبالتدريج تعلم العصفور وزال عنه الخوف وألف صاحبه حتى أصبحا يتبادلان اللعب والزغردة.. يصعد على كتفه، يلتقط ثم يطير إلى متسلقاته.. تعلم الطيران داخل الغرف إذا ما انفتحت أبوابها، تعلم الدخول إلى المطبخ إذا ما سمع صفرة صاحبه يناديه، يقدم له قطعة خيار أو جزء من تمرة تذكّره بمدينته ذات غابات النخيل التي تُسمع منها أغاريد البلابل، خاصة عند أرطاب خلالها (بلحها)، ويتذكر صباه.

- مساء الخير.

- مساء الخير.

- موي، ما هذا الجمال، حديقة معلقة، فكرة جميلة.. ابتسمت الزوجة لأنها مقتنعة أنها صاحبة الفكرة، ومع ذلك لم تبخس زوجها في أنه قام بالعمل.

- عجبتكما؟ ردًّا سوية.

- كثير، كثير.. لم نرَ من قبل هكذا حديقة معلّقة.. هيل موي.. أثناء شرب القهوة، صدرت زغردة من زاوية.. لم تثر الانتباه، ثم صدرت ثانية وثالثة من زاوية أخرى.. سألت الضيفة.

- زغردة جميلة يوزعها (الستريو) من كل جانب.. ضحك وضحكت زوجته.. استغرب الضيفان، شاركاهما الضحك.. سألت الضيفة.

- ما الأمر؟ أسمع زغردة من كل جانب، لا بد أنه توزيع ستريو.. نهض الزوج، وقف تحت متسلقة، رفع يده مُصَفِّرًا، جاءه العصفور مغردًا، وكّر على يده.. غرقا الضيفان بالضحك وأثنيا على هذا الأمر الذي لم يشاهدا مثله من قبل.

- أخت موي، حديقة معلقة وعصفور يغرد، ذوق جميل وعمل لطيف.

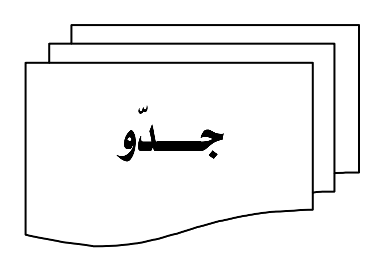
نقر قطعة الخيار، قفز على كتفه، طار، جال في المطبخ، عاد، وقف على رأسه.. وهو يحضّر الماء الساخن لقهوته، طار، خرج، عاد، وكر على كتفه.. التقط من الخيارة التي بيد صاحبه.. رفع كعبيه لأخذ علبة القهوة في الرف الأعلى، وقعت قطعة الخيار من يده.. تناول العلبة، ثم تناول السكر قربها، أنزل قدميه، أحسَّ بشيء طري، تحت (شبشب) قدمه اليسرى، استدار ورفع القدم، شاهده في ارتجافته الأخيرة، وقطعة الخيار تحت رأسه.. انصعق، قفز، رفع

قدميه الواحدة بعد الأخرى.. حمله بيديه، نفخ وجهه، نفخ في رأسه، قلَّبه، لا فائدة.

حزن، حزنت.. لم يخبرها كيف مات ولم يريه لها، فتأكل قلبه، فهي لا تسامح مهما برّر.. في نهاية الموسم، استنفذت زوجته رغبتها فطلبت منه رفع المتسلقات، وافقها بسرعة كي ينس خيال عصفوره، إلا أن الذي حدث له أكثر من هذا؟

دخل المطبخ، وقف يغسل كوب قهوته، فجأة أحسّ بشيء طري تحت قدمه اليسرى، رفع قدمه، أنزلها، رفعها، أخذت تتكرر له هذه الحالة بين فترة وأخرى، ولازمته خارج مسكنه، دون وقت محدد.

هولندا



قارب الثمانين، شاءت الظروف أن تَسكُنَ حفيدتُهُ معه في شقته، الطابق العاشر.. تعودُ إليه مساء مع أكياس الخبز، الطماطم، الخيار، معلّب أو أكثر.. عندما تكون حالتها النفسية جيدة، تفتح الباب بهدوء، وتتنصت إليه متأملة مشهد جديد من المشاهد التي يقوم بها يوميًا.. أما إذا كانت متكدّرة من العمل، فلا تهتم إلى خربشة المفاتيح وغلق الباب بقوة كتفريغ في هذه الضربة، مما تجعله يفز ويصحى على نفسه مما هو فيه.. هو كثير المزح والمداعبة والنكات معها، وهي تحبه كثيرًا، فعندما كانت طفلة، يداعبها ويلعب معها ويكرم لها، ولهذا تتجاوب معه وتمثل معه الأدوار التي يقوم بها أحيانًا، وتقوم بخدمته عرفانًا بالجميل والانشداد إلى جذورها الثقافية في خدمة الكبير لما أداه من واجبات عائلية، فقد أدّى رسالته، وما عليها إلا رد القليل منها، إلا أنها أحيانًا تتأفف وترغب بالانفلات من هذه الحالة.. كثيرًا ما يخرج متكئًا على عكازته، ليمرن عضلاته، يليّن أعصابه، ينشط دورته الدموية، كما أوصاه طبيب العائلة، وما تنصحه مجلة الصحة التي

تأتيه تباعًا بانتظام كل ثلاثة أشهر.. وإذا ما امطرت وكثيرًا ما تمطر، يضطر أن يتمرن داخل الشقّة ذهابًا وإيابًا، داخل الممرات والغرف، ولا يجيز لنفسه دخول غرفتها، هذا من أصول الاحترام والثقة.. أو يجلس على كرسيه ويرفع رجليه عاليًا ويهزٌّ نفسه، ثم يفرج رجليه ويلصقهما كتمرين، متحذرًا السقوط، لكنه أحيانًا يسقط فيسمع ضحكتها من فوق رأسه، يلتفت إليها مبتسمًا، رافعًا يده كطفل لمساعدته بالنهوض، ويتساءلها؛ كيف دخلتِ ولم أسمع صوت الباب، كفّي عن أفعالك هذه كلص بيت. وهي تردّه بنكتة أو مداعبة.. رجعت وكانت في ضيق نفسي من تعب العمل، تركته وشأنه، شعر بذلك، أخرج النساتل التي تفضلها، كان يجمعها منها دون علم منها لمثل هذه الحالة، رماها لها مداعبًا إيّاها كأيام زمان.. تركت النساتل في مكان نثرها فترة، ثم عادت إليها بعد أن ارتاحت نفسها، أخذ يذكّرها بهذه الحالة عندما كانت طفلة تتدلع، ابتسمت له ثم سألته.

- ماذا تحب أن تشرب؟ يفهم من ذلك أنها تعدّت الحالة ولم تخرج من إطار طفولتها.

- وهل غير الماء.

- اشتريت عصيركَ.

- كان من المفروض ألا تؤذي نفسك.. قالها وهي تعرف مجاملاته أو إيهاماته بالكلام. إما تجيبه وهي تلوي شفتيها مثله دليل ضيقها، أو تجيبه بابتسامة دليل راحتها.

- سأتزوج وأرتاح.. نظر إليها بجدّية، نظرة خوف.. انتبهت إليه.. انحنت عليه وقبلته.

- لا تخفْ، يا جدو العزيز.. قال.

- أتمنى أن أموت قبل هذا اليوم لتكوني حرة.

- ويعزُّ عليكَ عدم مشاركتي فرحة زواجي.. تغيرت حالته النفسية، نهض فرحًا.. مسك عصاه.. أخذ يرقص لها رقصة الزواج ويغني وبرطمتاه ترتجفان.. سقط على كرسيه، أحسَّ بألم خفيف تحت نهده الأيسر، لم يبالِ.. أنهضته وهي تضحك.. أشّرَ بعصاه، جهة كنتور غرفته.

- أنا الذي أسس غرفة نومك.. مسرحت شعره الباقي من صلعته.

- نقودك التي تصرّها، لا تشتري كنتور ملابسي، يا جدو. أصبحت الأسعار غير أسعاركم أيام زمان، الأفضل أن أشتري لك بها بدلة بمناسبة زواجي.

- عندي بدلات.

- أعرف، من قبل سبع وعشر سنوات.

- ولكنها جديدة.

- لأنك لم تستهلكها، هكذا أنتم الرجال.. حظنته.

- جدو، لقد غطيتَ طلباتي ولم تقصّر، ولا أحتاج منك الآن غير التفكير بنفسك.. ضغطت عليه بصدرها.. أتمنى ألا تفارقني يا جدو.. تركته وهي تذرف دمعة مخفية، كي لا تثير خوفه أو

شجونه، إلا أنه تأمل ما قالت، أخذ يفكر بجدّية في قرب موعد رحيله ويتألم، لكنه ينظر إلى التقويم السنوي المعلق، فيوهم نفسه بالتاريخ الذي تركه ثابتًا دون أن يغيره، فيرتاح وهمًا..

يترك الفراش صباحًا بعد أن تخرج.. إفطاره حسب الوصايا الصحية وحسب خبرته في المواد المفيدة له؛ بروكلي، طماطم، خيار، خضار، فجل أبيض، زيتون، خبز أسمر، قدح حليب ماخر (خالي الدسم).. (يتمرحض)، يغتسل، ثم يتناول إفطاره، لا يأخذ الشاي إلا بعد مرور ساعة أو أكثر، حسب وصية المجلة الصحية، فهو يترك طبقة على المعدة تمنع أو تصعّب امتصاص ما أكله فيخسر فوائده. يشرب شايه بعد تجواله حول البارك والبحيرة، ويخاف شربه قبل هذا من امتلاء مثانته فتجبره على العودة. يجلس على كرسيه مقابل ما أمامه؛ بحيرة، أنواع من الطيور، أشجار يسمع منها الأغاريد، وبارك فسيح فيه ملاعب أطفال.. يقضي ساعات ينظر من خلال نافذة الشباك.. يتحسر، كيف أنقض دور الطفولة والصبا بهذه السرعة، ولا تترك له الذاكرة غير لمحات منها؛ مسك كسرة خبز، تقرب منها، خطفتها منه بمنقارها، خاف بكى.. ركض خلفه، وقع، خطف منه كسرة خبزه، صاح، سبَّ.. وهكذا لمحات... شاهد صبيين، تلاقيا كل على دراجته قرب مرجوحة اعتلتها صبية.. تسابقا، انحرفت دراجة أحدهما ضربت المرجوحة، سقطت الصبية فوقه، أخذهم الضحك.. ارتبط هذا الحادث مع ما حدث أيام زمان؛ تسابق مع تربه في دفع عجلته، التي انتزعها من دراجة قديمه، كما تربه، يدفعها بسلك سميك،

عكفه حول محيطها.. قبل الوصول إلى نقطة النهاية، أعطى صاحبه دفعة قوية لعجلته، كي تسبق، صاح به محذرًا، أمسكْ دراجتك، تربه فقد السيطرة عليها، قفزت على مواد بائع افترش الأرض، حصل تربه على ضربة، وهرب هو غارقًا بالضحك.. اقتنع بأيام طفولته فقد أنهى فيها أيامًا حلوة، إلا أن قناعته بأيام الصبا أكثر؛ لعبَ وتسابقَ وسبحَ ودار بدراجته.. أما أيام الشباب فكان لها طعمها الخاص، فقد دخلتها الأحاسيس الجنسية والغزل والمشاركة الاجتماعية والتعرف على العالم والخيال العلمي والفني والأدبي.. هكذا يرتضي أيامه الأولى، لكنه يعتصر ألمًا، كيف انقضت بهذه السرعة.

هزَّ كرسيه، مندمجًا بخيالاته.. أحسَّ تيار هواء.. شاهدته يهز كرسيه، فهمت أنه مع خيالاته.

- مساء الخير جدو.

- (مشاء) الخير، دخلتِ خلشة ولا تتغيري.

- لو لم أدخل خلسة لقطعت تخيلاتك، يا أحلى جد، أحب أن أراك تمثل يا جدو.

- اشكتِ، شيأتيكِ مثل يومي هذا وتفهمين، أوووه، أتمنى لك حياة قادمه شعيدة.

- أشكرك.

أنهى قراءة الصفحات التي يختارها من الجريدة، تركها جانبًا.. نظرَ.. حطّت طيور في البحيرة، كان طيره المحنط أحد أنواعها،

أخذت تسبح.. مسك طيره بحذر.. قارن بين صفاته وصفاتها.. مرت عجوز بدراجتها.. توقفت.. أخرجت قطع خبز.. رمتها.. تسابقت الطيور إليها.. وضع منقار طيره في فمه بحذر، يزقّه، كما كانت أم الفراخ تزقّ فراخها على شجرة داره أيام زمان، وهي تزقزق.. انغمس في هذا، يزق ويزقزق بما يلائم برطمتيه.. أحس بتيار هواء، لم يستجب لثقل استجابته.. دقائق.. سمع صوت ضحكة.. صاح.

- منذ متى وأنت هنا؟ لم ترد عليه كي تبقيه على لذة خيالة.. ذهبت إلى خلع ملابسها وهي تضحك وتحاكي نفسها؛ هل بدأ يخرف؟

مرت الأيام والسنون، ثقيلة، ثقلتْ حركته، زاد خوفه، كثيرًا ما ينظر إلى الحياة بألوانها وحبها، لم يكن له صديق غير خيالاته وإن تداخلت هي أيضًا.. طارت ريشة.. من أين جاءت؟ تحركت بين قدميه.. كان هناك تيار، صعبت استجابته له.. ابتعدت.. تابعها، يحتفظ بنظر جيد.. أراد سحبها بعصاه لكنها كانت هي الأنشط فابتعدت.. تقرفص.. حبى.. زحف إليها.. ابتعدت.. زحف.. انقلب على ظهره.. يا ليتني بقيت طفلاً.. اغرورقت عيناه بالدموع.. غطّاه ظلّها.. وقفت قربه.. استجابته ثقيلة.. لم تبتسم أو تعلق، اقتنعت أنه خرفَ حقًا.. أراد النهوض.. أعانته.

- شبعتَ حبوا.. بكى

- لا تلوميني.. تذكرت طفولتي.

قبل أن يخلد إلى النوم قالت له وهي في حيرة.

- أرجو، أن تركز على ما أقوله، وأنا مقتنعة بأنك قوي الإرادة ولا زالت حركتك جيدة، الأسبوع المقبل، أباشر وظيفتي الجديدة في مدينة أخرى..

- ماذا، ماذا؟

- لا تخف، فكرتُ بأمرك جيدًا، أنا عندك كل عطلة أسبوع والعطل الرسمية.. سأملأ ثلاجتك بالمواد التي تحتاجها خلال أسبوع.

- كيف لا أخاف.. الوحدة.. وحدة عجوز.. بكى.. بكت.. تألم لها وكثيرًا ما يجانبها، لا تبكي يا عزيزتي، هذه هي الحياة، يجب أن تهتمي بنفسك ومستقبلك، ما أنا إلا ضيفكِ.. تألمت أكثر..

قبل يومين من سفرها، أعطته وكررت التعليمات؛ غلق صنبور الماء بقوة، إطفاء المصباح ليلاً فضياء الآتي من الخارج، يكفي، عدم فتح الغاز، عدم نسيان جر سيفون المرحاض، التبول بصورة مضبوطة وسط حوض المرحاض، المفاتيح دائمًا في جيب السترة، ليلا نهارًا، الدواء حسب تنبيه الساعة.. فكرت باختباره في اليوم الثاني الذي يسبق يوم السفر، عدد لها ما كررته عليه سألته.

- لماذا لا تتقرب من الغاز؟ إجابها.

- لا أحتاجه، وعندي جهاز تشخين الماء إذا ما أردت عمل الشاي.. حاكت نفسها، (لا أخاف عليه، لا زال عقله جيد، ولكن ما هذا التخريف؟ لماذا أسميه خَرَف، لماذا لا أوافقه إنها حالة تذكّر لمراحل عمره، وهذا يحدث لكبار السن، عندما تقترب محطة نزوله، يعيد شريط حياته)... قبلته عدة مرات.

- لا أنساك يا جدو ولا أتركك، سأكثر مخابراتي.

- حتى ولو تزوجتي؟ قالت في نفسها، أين قفز بتفكيره.. أرادت تهدئته.

- أتزوج مَن تختاه لي وترتاح إليه، لتعش معنا سوية.. صاح.

- لا، أنتما اللذان تعيشان معي.. ضحكت، قبلته.

- نعم، إنها شقتكَ.. بدى عليه الاطمئنان.

اليوم الأول.

- هالو جدو، كيف حالك، وصلتُ بخير.

- جيدة جدًا، اطمئني أنا بخير.

- ما ذا عملتَ هذا اليوم؟

- لم أتقرب من الغاز، ضبطت صنبور الماء، اعتمد على ضياء الخارج ليلاً، تفطرتُ المعتاد، شربت الماء وشاي الأعشاب بكثرة، فتحت علبة تونة، زيّتها بزيت الزيتون والليمون، وغدا كذلك ولا أملها، مشكّتَه جيدًا وتبولت وشط الحوض.. اختنقت بالضحك.

- وما هي العابك.

- اشكتِ، ارتحتُ من لصلصتكِ.

- على راحتك، ولكن تحذّر من الوقوع، قبلاتي يا جدوووو... كانت تكثر المخابرات في الأيام الأولى، ثم أخذت تكتفي بين يوم وآخر..

شاهد صبيًا يلعب مع كلبه، يرمي الكرة ويأتيه كلبه بها.. فرّطَ أوراق جريدته، كوّر الورقة الأولى، ثم غلّفها بالورقة الثانية

والثالثة، وهكذا بقية الأوراق حتى أصبحت كرة ورقية كبيرة.. خرج إلى الشرفة، رماها، يتامل الكلب يلعب بها.. ردّها الهواء إليه.. قذفها مرة ثانية، ضربت السياج وعادت اليه.. قذفها، عادت.. بصق عليها وبرطمتاه ترتجفان، عاد إلى جلسته.. شارك لعب الصبي بأحلامه، كان هكذا يلهو مع كلبه في كرة ورق.. مرت دراجات، عجوزان، صبي، فتاة، فتاة مع كلبها.. مرت ساعة، ساعتان.. تضجر، غيّرَ اهتمامه.. نهض متكئًا على عصاه، لامس طرفها الطير المحنط.. سقط.. رفعه.. أحسَّ ببرودة يديه فقد لامسهما هواء بارد. قطع ورقة من الجريدة، كوّرها، أدخل الطير فيها.. زقزقَ له، يطلب منه أن ينام.. لحّفته بظلها.. أحس بكفيها الباردين على صلعته مع قبلة.

- هالو، جدو.

- هالو حبيبتي، أدخلت الشعادة معك.

- لكنك سعيد، تزقزق وتلعب.

- أيضًا، تلصلصتي.

- أحبك يا جدو، كم أكون فرحة عندما أراك هكذا.. لقد ملأت لك ثلاجتكَ بما تحتاجه.. أجابها مثل كل مرة يريد إفراحها.

- لا، إنها ثلاجتكِ، وكل أثاث البيت.

- أعرف يا جدو هذا..

استدار حول البحيرة بخطى ثقيلة، توقف عند وزّتين بيضاوتين، تقربتا منه سابحتان.. ابتسم وحكى؛ صديقتان أم زوجان، ما أحلى

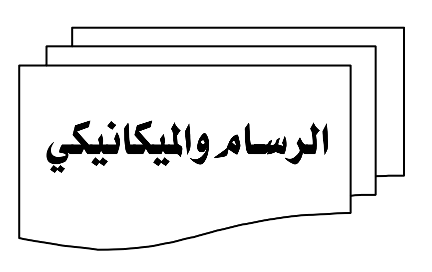
الرفقة.. مطّت الأولى رقبتها، تبعتها الثانية، حركت ذيلها والثانية.. حكى؛ حتى فيما تحركان منسجمتان، فرفشا وتمتعا بالحياة قبل أن يداهمكما الكِبَر.. وصل نصف محيط البحيرة، توقف عند صِبية.. مسك أحدهم سنارته ينتظر بصمت، وآخران على جانبيه يتهامسان.. تحرك خيط السنارة، انتبه، انتبها.. لوّحا له.. صارت حلقات ماء، تتبعها حلقات حول الخيط.. رفع السنارة نتلا.. جاءت معها ترقص ولكن من الخوف فحياتها غالية، وهم فرحون.. وضعها على الحشيش، لا زالت ترقص، أراد مسكها زلطت، إلا أنها صغيرة لا تقوَ على المقاومة.. مسكها، قالا له.

- أنزع عنها السنارة بعناية.. نزعها ولم يؤذيها.. هنأهم ببرطمتيه وأنتظر ماذا يعملون.. ابتسموا له والفرحة لا زالت على وجوههم.. فحصوها؛ طولاً، شكلاً، وزنًا.. قبّلها الصائد.. أعادها إلى الماء.. قال في نفسه فرحًا؛ هذا هو الحب.. نقر برأس عصاه الأرض يواصل سيره.. تحركت دودة قربها، أبعد رأس العصى عن طريقها، تتقلص حلقات حلقات تواصل زحفها مع زحف الحياة أيضًا.

مرت الأيام والأشهر، ثقلت عليه وحدته، أخذ يسأم، إلا أن حبه للحياة يجعله أن يغير تفكيره إلى مشاهدة الحياة على أرض الواقع فيأمل خيرًا.. سيارات تمر.. دراجات تعبر.. صبية يلعبون.. طيور تطير.. ريح تحرك أوراق الشجر.. ومع هذا فالتكرار والمعايشة اليومية، تعيد الأيام والسنوات، ويصبح يوم نهايته كما يتصور، ثابت بعيدًا عنه.. مدَّ كفيه إلى قرص الشمس ليمسك به ويوقفه عن

الحركة، فالحياة جميلة يجب أن لا يخسرها، (السيارات تمر، الطيور تحلق، السماء تمطر، الفتيات إلى مدارسهن، الصبيان على دراجاتهم، مداعبة الحفيدة، كفها البارد على صلعته، عصاه المَعينة..)، يشتدُّ ألمًا لأنه يرى الحياة بحلوها.. مسك عصاه، وجّهها نحو قرص الشمس وقد غيّرَ مكانه أكثر.. أخذ يضربه.. ويضرب ويضرب.. أحسَّ بألم شديد تحت ثديه الايسر، جعله ينحني إلى الأمام، لم يستطع السيطرة.. سقط عن كرسيه.. استمر ينازع نفسه حتى سكنت أعضاؤه إلى الأبد وعيناه متجهتان إلى قرص الشمس نحو المغيب ليسجل نهاية يوم طبيعي، والتقويم السنوي على تعليقته بيومه الثابت.

هولندا



الرسام والميكانيكي

أمال رأسه، يتفحّص لوحته التي بدأها قبل أيام، الضياء والظلال، كمية الضوء وتأثيره على الموضوع الذي خطط فكرته مسبقًا مبتعدًا عن العفوية، إلا أنه يتقبل الضرورات التي يفرضها واقع العمل.. ارتشف شايه.. استمر بالملاحظات، لم يرفع عجزه عن كرسيه.. ارتشف بقية شايه.. نهض، فتح الشباك، تفحّص ظلال الأبنية المقابلة، تدرجها، اختلاف عتمتها باختلاف المكان، لديه الخبرة، لكنه يكثر من ملاحظة الواقع، هذه الخاصية التي أعطت للوحاته الواقعية، وإنْ لم يستنسخ.. مدّ نظره أبعد، كانت شجرة.. عاد، انتصب أمام قماش لوحته التي ضربها ببعض ألوان الأساس.. رفع يده زاويتها، أنزلها.. ابتعد.. أراد شرب شايه، انتبه، جاء على نهايته.. خرج.. تعدى مسكنه ومساكنًا.. توقف، تمعن، ظلال سياج وآخر، ضياء واجهة دار وأخرى.. رفع رأسه، أماله.. تابعه صبي يحمل كتبًا ودفاتر.. توقف عن بُعد من شجرة، اتجه إليها، توقف أمامها، تفحصها، أمال رأسه، رفعه.. أشّر الصبي إلى آخر يحمل دفاتر وكتبًا، تقرّب منه.

- لا وقت لنا، بعد دقائق يدق الجرس.

- لاحظ ذلك الرجل؟

- ما به؟

-لاحظ حركاته، إنه مجنون.

- لا، إنه مريض أو يتألم.

- لا أبدًا، تابعته.. كان يقف أمام الدور ويحرك رأسه كما الآن.

- نعم، نعم.. مسك حصاة صغيره، قذفها، جاءت قبل الهدف بقليل، لا يريد نيله فتنتهي اللعبة، بل أراد فزّه فتستمر اللعبة.

- باغتنا دوام المدرسة، لنذهب...

لم يدخن، لكنه يكثر من شرب الشاي، جلس قبالته صاحبه الميكانيكي، يورق كتابًا أخذه من على منضدة الشاي.. رشف من شايه، رشف الآخر من شاية.. قرأ عنوانًا فرعيًا ثم جملة (الشكل والمضمون، لا ينفصل الشكل عن المضمون..)، سأله.

- كيف لا ينفصل الشكل عن المضمون؟ أراد إجابته لكنه تذكر، صديقه لا يحب الكلام.. نهض إلى منضدة عليها أقلام مبعثرة، وكذا ريشات، أصباغ، قطع من طين صناعي.. جاءه بطينة، شكّلها، سأله.

- ما شكلها؟.. مطَّ شفتيه قبل الإجابه، ربما استهزأ بالسؤال، أو ظنَّ أن صديقه يستهزئ، لكنه لم يسبق أن لمس منه الاستهزاء، إلا بعض المداعبات.. أجابه.

- مكعب.. ضغط جوانبه بأصابعه.

- والآن؟ عدّلَ من جلسته، ربما السؤال فيه جديّة.

- لا شكل لها.

- والطينة؟

- كما هي طينة.

- أجبتَ على المحتوى، انظر جيدًا، ألا يصبح للطينة شكلاً آخر؟

- وهل تسمي هذا العقج شكلاً؟

- ولِمَ لا، مهما عملتُ بالطينة، يبقى لها شكل ما، فالشكل هو المظهر الخارجي، سواء كان منتظمًا أو غير منتظم.

- دخلنا الفلسفة.. نهض وصبَّ له شايًا ولصاحبه.. قال.

- اليوم لا عمل لي، أريد متابعة أفكارك، ربما تأتيني بربحٍ أكثر من ربح عملي الذي أجهد به نفسي وجسمي، وأستريح مثلك على الكرسي.

- جهد الفكر ليس أقل مجهودًا من جهد الجسم، كلاهما يبذل طاقة... كم يحسّ الإنسان بالمتعة أو يسرّ، أو الاعتزاز بالنفس ربما حدّ الغرور، إذا ما أنتج شيئًا.. كم هي سعادتك أو اعتدادك بنفسك، عندما تبتكر قطعة تضيفها إلى ماكنتك، تبدّل حركة، فتزيد أو تحسن، إنتاجها.

- وهل مثل هذا شعورك؟

- نعم، وهو شعور كل إنسان سواء يجهد فكره أو عضلاته، كبير أو صغير، انظر إلى الطفل، وهو عالم واسع كما أنت كما أنا، كم يحس بالسعادة عندما يرسم أو يأتي بدرجة أعلى.. رفع الكتاب مقاطعًا.

- لأتابع قراءة بعض العناوين.. ورّق، أمالَ الكتاب.

- هل هو فلسفة؟

- لا، وإنما شروحات.. قاطعه وقال.

- الشروحات أيضًا فلسفة كاتبها... ضحك كثيرًا ورد عليه.

- والآن، أصبحت فيلسوفًا.. شاركه ضحكه.. ثم قرأ (الأحساس والجمال)، سأله.

- طبعًا، الجمال يبهرني.

- والقبح؟

- القبح يُشمْئزني.

- أيضًا هذا إحساس. القبح والجمال، نقيضان، يقابلهما نقيضان، النفور والقبول. أقصد، الاشمئزاز والانجذاب.

- فهمت، الشكل هو الذي يثير فيك هذا.

- وضّحْ، لقد أصبحت فيلسوفًا.

- كما جئتني بطينةٍ آتيكَ بأخرى.. أراد النهوض.. قال له.

- لا حاجة إليها، تكلمْ فأفهم.

- الطينة هي الطينة، شكلتَها عظاية قبيحة أو زهرة جميلة، فالذي يثيركَ شكلها وليس مادنها.

- أحسنت، تقصد الشكل والمحتوى.

- هكذا أنتم تسمّون.

- إذن، الجمال يثير فيك البهجة، والقبح يثير فيك الزوغ.

- هذا أمر طبيعي لا يحتاج إلى فلسفة.

- نعم، أمر طبيعي عند الإنسان، ولكن الفيلسوف يظهره على شكل لغة، يتواصل بها مع الخاصّة، ومع من يريد المعرفة.. أنهى شايه، ذكّر صاحبه به، أنهى أيضًا شايه.. قلّب أوراقًا، قرأ له (المعنى والجمال).. سأله.

- ما المقصود من هذا؟ نهض الرسام وسأله.

- شاي آخر؟

- أضف له سكر أكثر.. أراد الرسام الكلام، سبقه وقال.

- أريد التمثيل وليس الأمثلة.

- قلتَ التمثيل وليس الأمثلة، ها قد أصبحت فيلسوفًا. ردَّ.

- التمثيل نشاط أستسيغه وأفهمه، والأمثلة كلام مجرد، ربما لا أهضمه، فأنا رجل عملي التفكير.. قال الرسام في نفسه (وهل تهضم أفكار التمثيل).. جلب مجموعة ريشات وأقلام، رتّبها ثم سأله.

- ما هذا الشكل؟ إجابه.

- بيتا.. رتبها بطريقة أخرى.

- وما هذا؟

- زورق.. رتبها لا على التعيين.

- وما هذا؟ تمعّن.

- لا أعرف، انه ليس شكلاً معروفًا.

- ولكنه شكل.

- نعم، شكل (مخربط)، ولكن الشكل يجب أن يكون له معنى.

- وإن لم يكن له معنى؟

- لم يكن، لم يكن..

- قلْ أي شيء؟

- لم يكن، لم يكن جميلاً.

- إذن، ربطتَ الجمال بالمعنى.. نهض جلب لوحتين، قال له.

- حسنًا، عندي أمثلة عملية، انظرْ إلى هذا الرسم.. نظر كثيرًا وأجاب.

- خطوط سوداء متداخلة، متعامدة، متوازية، الخط الأسود جعلها تتشابك، لا أفهم معنى الرسم هذا، إن كان له معنى.

- ألم يكن جميلاً؟

- بالنسبة لي، لا.

- طبعًا لأنكَ لست رسامًا.

- ولكني فنان في مهنتي.

- أحسنت، قلتُ لك أصبحت فيلسوفًا.. ثم قال له.

- انظرْ إلى الرسم الثاني.. نظر وقال دون أن يتأخر.

- آآه، كم هو جميل، طير ملون، أزهار ملونه، فراشات.. هذا الرسم له معنى.. قرّب له الرسمين.

- انظر إليهما؟. نظرَ وتمعّن.. ثم ضحك كثيرًا.

- إنه نفس الرسم.

- تقصد نفس الموضوع. إذن ما الذي أثر فيك؟

- الألوان، الرسمان بنفس الموضوع، لكن الألوان أعطت جمالية، وجسّدت، ووضّحت، الرسم الثاني.. غيّر مجرى الحديث، فليس من اهتماماته هذا، وإنْ تمتع.. قلتُ لك، اختر زوجة شقراء، عينان ملونتان، شعر أشقر، بشرة بضّة، مع ما تلبس من ألوان، تدخل في نفسك البهجة والسرور.. هزّ الرسام رأسه وابتسم.. تابع كلامه بذكاء وهو يبتسم أيضًا.. لا ينكر، بالإضافة إلى جمال الشكل، مضمون المرأة، سلوكيتها، ذكاءها، لطافتها، رقتها.. الرسمان بنفس الموضوع، ولكن الملون، أجمل.. علّق الرسام.

- والان، أصبحت فيلسوفًا بحق. ولكن للخط الأسود جماليته وفلسفته أيضًا.

- لا أتفقكَ، إذا قارنّاه بالألوان.

- ما رأيك بعينٍ كحيلة وشعر فاحم؟

- أوووه، وهل تفضل السوداء على الشقراء.

- أنا أهتم بالاثنتين، لأني رسام.

- لا، الشقراء ثم الشقراء.

- لأنك تعيش في بيئة تندر فيها الشقراء.. ولكن شقراءكَ، تفقد جماليتها إذا ما ألفتَ جمالها، فيقل ابتهار العين. وهكذا مع مواضيع أخرى.. قاطعه ولم يتركه يكمل.

- لا تهمني فلسفتك.. أكمل شايك فقد برد.

قلّب أوراق الكتاب، قرأ لصاحبه (الشكل والجمال).

- وما هذا برب الفلسفة؟ أراد الكلام لكنه قاطعه.. قلتُ لكَ لا أحب الكلام، مثّلْ؟

- حسنًا؛ لأنك صنائعي أقصد عملي... نهض، جلب أوراق بيضاء، سأله.

- ما مواصفات جميلتكَ؟ صفن.. عدد.

- شعر طويل، رقبة طويلة، عينان واسعتان، أنف قلم.. أثناء عدّه الأوصاف، صاحبه يرسم.. توقف عن الوصف ينتظر النتيجة، توقف عن الرسم يريه النتيجة.

- آه، كم هي جميلة.

- تقصد الشكل؟

- نعم.

- انتظرْ.. حرّف عينيها، ضخّم أنفها، أمال شفتيها.. الآن انظرْ؟

- لماذا قبّحتها؟

- إذن أين يكمن الجمال؟

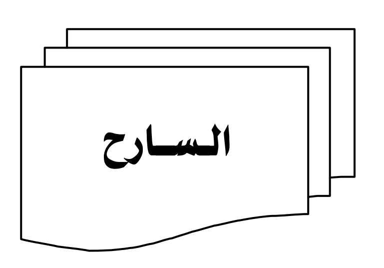
- بالنسبة للعين في الشكل.

- أحسنت، ها أنت تتفلسف.. وفي؟

- وفي.. وفي الألوان، بما فيها الأسود.

- أرجوك، لا أريد الفلسفة، وإنْ سلّيت نفسي فقد صدّعت رأسي.

هولندا – ٢٠٠٦



السـارح

قلّبَ الصفحة، قرأ.. (إيمانهم بعودة الإنسان إلى الحياة ثانية، جعلهم يدفنون مع موتاهم حاجاتهم اليومية، منهم مَن يدفن الحنطة، يأكلها الميت في أول عودته، ومع الفارس أدوات قتاله). أمالَ الكتاب قليلاً، سرح بمخيلته.. صَفَقَ بكفّيه، تطشر ماء الدوش على وجهها.. ضحكتْ، بادلته، بادلها أكثر، غمضت عينيها، صاحت.

- ماما، صيحي به.. أمها لم تبالي، لِعب أطفال.. لفّتها بالمنشفة، دعكت جسمها الصغير، وعيناها لا تبارح منطقة من جسمه العاري.

- ماما، ضعي لي (بلبولا) مثل أخي.. ابتسمت أمها.

- الله، وضعه له.

- أريدك أنت تضعين لي.

- هذا من خلق الله.. ضربت يد أمها، فلتت منها عارية، وهي تصرخ.

- أريد مثله، أريد مثله.. ابتسم ببخل، ترقرق الدمع في عينيه.. استمر بالقراءة. (كانت هذه فكرة الشعوب القديمة، والتي تغيرت بتغير مراحل الحياة البشرية، ثم سادت فكرة عودة الروح وإحلالها جسم آخر أو جسم إنسان آخر، ثم أصبحت انبعاث روح الإنسان من جديد في الجنة).. ثنى زاوية الورقة، إشارة إلى آخر صفحة قرأها.. سار في دربه وهو في حلم ما قرأه.. مرت جنازة، مشيّعوها قلّة، شاركهم التشييع، لا لأنه في نفس الاتجاه، بل لغرض في نفسه.. رفع رأسه إلى التابوت.. ابتسمت له، صفّقت بكفيها الصغيرين، تناثر الماء على وجهه.. اصطدم بمجاوره، ابتعد عنه.. وصل المقبرة مع المشيعين، كانت تجاور الأحياء القديمة قبل أن تتوسع المدينة.. نظر حواليه، القبورعلى امتداد النظر، همس لنفسه (أهذه كلها أجيال الآباء والأجداد؟ أين قبور ما قبلهم؟ اندرست واندرس ما قبلها، هذا والى متى؟ إذا ما انبعثت الأرواح مرة واحدة، فأية أرض تسعهم؟ أذن فكرة الجنة هي الصائبة).. راح إلى قبر صغير، بالكاد تبين أثره.. وقف قباله، ذرف دمعًا شحيحًا، فطول الزمن له تأثير في طول البكاء.. همس (لا انساكِ، لا أنس لعبنا.. آآه، أمّلتني أفكار الأولين، أن تُبعثي والتقيك ثانية، لكن فكرة الجنة، انهت هذا الأمل، ربما لا أكون معك فيها، فيصبح فراقنا إلى الأبد).. قبض حفنة تراب، نثرها.. ابتسمت له.. التفت، لم يجد أحدًا.. عاد مسرعًا، فمن الصعوبة السير وحيد بين القبور والشمس تميل إلى المغيب.

تكثر الأنهار والشاخات، تكثر الحدائق والبساتين، في مدينته. كما تكثر الديدان والحشرات وتتنوع. وتكثر الأسماك والسلاحف

والضفادع وتتنوع. وتكثر غابات الأثل والنخيل، والمياه الحلوة والمالحة. تشتد رياح السموم حيث الصحراء، أو يهبُّ نسيم العذيبي حيث الأهوار.. سماؤها صافية معظم أيام السنة، إلا أيام قليلة تحجبها غيوم الشتاء، أو تحجبها أسراب الطيور المهاجرة، أو تحجبها زهرة البردي التي تنتشر كقناديل معلّقة في الهواء، فتترصع نجومًا على الشعر والملابس.. مشي متنعلاً ومتدشدشًا، كبعض أبناء فيحائه، ولم يفارقه كتابه الذي استعاره من المكتبة العامة، حيث ينتقي موضوعه حسب حالته النفسية، أشعار غزل أو قصصًا أو حسب حاجته إلى مادته، علوم، فلسفة، تاريخ، رياضيات، فنون، انثربولوجيا.. كان كتابه حول تساؤلات.. اتجه إلى تلّة من طين جاف اختارها للجلوس والقراءه، لكن نعل قدمه اليسرى، غاص في الطين، أراد رفعه إلى أعلى، لم يستطع للزوجة الطين، سحبه جانبًا، جاء بيده، شاهد حشرة مضغوطة، تمعّن فيها، لا حركة، ميّتة بالتمام.. جلس وكتابه جانبًا.. حاكى نفسه (قبل لحظات كانت تتحرك، تطير، تأكل، تقرص، والآن، أين ذهب كل هذا؟ لا عودة، أبدا، أبدا؟ كم كافحت أمها، باضتْ، ففقس، خرجت، نمت، طارت، وبلحظات، انتهى كل هذا التاريخ؟ انتهت المعاناة والكفاح ثم تتفسخ وتتلاشى، ولا شيء منها، أبدًا، أبدًا؟ ما هذه الفلسفة؟).. تراءت له وهي تبتسم.. جرَّ نفَسًا عميقًا.. فتح كتابه، لكنه تأخر سارحًا.. (عصى غليضة، يستر عورته بجلد حيوان، شعر كث، ظهر مقوّس، يبحث عن حيوان.. العذارى في المعابد تهب بكارتها لأي عابر سبيل، تجمع دراهما للإله.. لسيوف

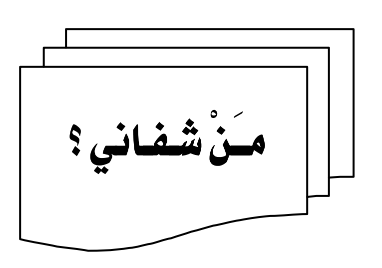
المسلوله تفتح البلدان وهارون بين آلاف الجواري والمسبيات.. فلول المغول وهولاكو يحرق ويدمر).. خدَرَ عجزه، عاد إلى الواقع.. تساءلَ (أين كل ذاك؟ هل أصبح وهمًا؟ كان يمثل الحياة، ثم أصبح وهمًا، هل الحياة وهما؟ البارحة تلعب معي، واليوم وهم في الخيال.. كيف، كيف؟) ضرب التلة بالكتاب.. أخذ راحة، جال نظره في النهر، أسراب الزوري، زرافات زرافات.. أسماك تغوص هنا وتلبط هناك.. زرقت ضفدعة، طفحت حشرة، سبحت سلحفاة.. تساءل، أكلّ هذا بعد زمن يصبح وهمًا؟ جال نظره حواليه يبعد تفكيره، أشجار نباتات أعشاب، مسك عشبًا قربه، قطَعهُ، نظر إلى المقطوع في يده، همس، مات.. مسك عشبًا آخر، قطعه، نظر إليه، همس، مات أيضًا.. أخذ يقطع ويقطع، ويكرر، مات، مات.. ركض وهو يصيح بين الأشجار، ناسيًا كتابه.. حياة، موت، وهم.. حياة، موت، وهم.. انتبه إلى نفسه، عاد إلى كتابه.. جلس، ارتاح.. عاد إلى أسئلته.. ولكن، لو لم يكن هناك موت، لما حدث هذا التجدد والتطور، الموت فرض ملزم، بل وجود، لو لم يكن، كيف تحدث هذه السلسلة من البشر، من حيوان ونبات وحشر.. لو لم يكن الموت لبقى آدم وحواء والله بينهما، إلى ما لا نهاية.. ثم أخذ يتهكم.. إلى ما لا نهاية، ألف سنة، مليون سنة، مليار سنة، إلى متى؟ الموت لعبة الحياة، ابتدعت الحياة الموت، انتهى دور آدم وحواء، جاءت عوائل وقبائل وأمم.. انتهى دور الأجداد والآباء وجئنا نحن، ثم، ثم، ثم، نحن أيضًا وأنا، سنصبح وهما.. لا، لا، لا أريد هذا، أريد البقاء، أو العودة إلى الحياة كما اعتقدوا، لا أبدًا، لا أريد العودة إلى الشقاء

والمعاناة والكفاح والتساؤلات.. أريد الانبعاث إلى الجنة ففيها الراحة الأبدية.. ولكن صبرًا، الراحة الأبدية؟ إذن تتوقف عجلة التجدد والتطور، ويبقى كل شيء في الجنة كما هو، نفس البشر والطيور والفواكه والنباتات، نفس الحوريات والغلمان.. كم؟ ملايين السنين، مليارات السنين، لا شغل ولا عمل ولا قراءة، آكل وأنكح، فقط، فقط، ما أرهب هذا؟ إذا كانت الحياة وهم في ماضي، ولكن لا وهم في الجنة لأن كل شيء يبقى كما هو فلا ماضي، حاضر فقط.. ولكن مهلاً، إذا قضمت ثمرة، أثناء نكحي حورية، ثم انتهيت، بعدها، إلا يمر زمن على هذا الفعل؟ فيصبح فعلاً ماضيًا، ويصبح أيضًا وهمًا في ماضي، وإلا ابقى اقضم وانكح، آلاف، ملايين، مليارات السنين، كي لا تتحول الحالة إلى ماضي إلى وهم.. وإلى متى؟ بحكم مراهقتي، أفضل أن تكون الجنة، أكل ونكاح، آكل كل الثمار، وأنكح كل الحوريات، ولا أقتصر على حورية واحدة أو ثمرة واحدة.. مهلاً، مهلاً، معناه هناك تتالي، هناك حاضر، يصبح ماضيًا، ثم يكون مستقبلاً، إذا أتيت على الحورية الثانية، أصبحت الحورية الأولى في حالة ماضي، في وهم.. وإذا أتيت على الحورية الثالثة، تصبح الحورية الثانية في حالة وهم أيضًا، ولا وهم في الجنة.. مهلاً، مهلاً، لنفرض تبقى الحالة نفسها أى الحاضر نفسه، آلاف، ملايين، مليارات السنين، معناه هناك عدّ، هناك حساب، مرت السنة الأولى ثم الثانية وهكذا مليارات السنين.. ولكن كيف عرفت مرت سنة؟ هل من عدّ الأشهر، الأيام، الساعات، الثواني.. الزمن هو الذي يحدد هو عدّ، فيه ماضي، فيه مستقبل، كيف نفصل

الزمن عن حالات الجنة؟ كي لا يكون هناك ماضيًا، كي لا يكون هناك وهمًا.. كيف نحل المعضلة هذه؟ هل في الخلود، نعم، تبقى الحالة خالدة، لا ماضٍ لها ولا مستقبل، بل حاضر خالد، لا تغير ولا تجدد.. هزَّ رأسه بقوة، هربت منه تساؤلاته.. نظر إلى ما حوله، فتح كتابه، أراد القراءة، ابتسمت له، تطاير ماء الدوش، كفان صغيران، ملامح نهدان.. عادت إليه تساؤلاته. (العودة، الجنة، الخلود، ولكن في أية أعمار؟ الشيب والشباب يصبحون في عمر الشباب، لكن أختي ومَن في عمرها، كيف تصبح شابة؟ هل تكبر في قبرها؟ أم في عالم آخر؟ ماتت طفلة، ثم تصبح شابة في الجنة، كيف؟ يجب أن تكون الشبابية في الجنة، وإلا لأصبحت وجهًا منعكسًا كما هو في الأرض، حيث أطفال، شباب، شيوخ، ويعود التنوع وتظهر من جديد الاختلافات، وتزول المساوات الخالدة.. أختي طفلة، عندما تأكل معناه دخل الأكل جوفها فتنمو، إن لم تنمو في القبر ستنمو في الجنة، ولكن كيف تُحل معضلة، تأكل ولا تغوط؟ ها، وجدتها، بزوال الجهاز الهضمي؟ وكذا الجهاز التناسلي كي لا تلد وتتكاثر في الجنة فيتزاحم أهلها، وجهاز الدوران أيضًا، ولكن، كيفية التناكح مع الحوريات؟ لا بد أن تبقى أعضاء التناسل كما هي، وكذلك الرعشة، وإلا لا أستطيب حورية بعد أخرى.. وما أمر الشعر والأظافر والبصاق و، و، و، وما أمر المخ؟ بقاء المخ، معناه تفكير، معناه تساؤلات، معناه ماضٍ حاضر مستقبل، معناه زمن، معناه رياضيات، معناه شك وزوال اليقين.. أووووووه، لنترك حلول كل المعاضل إلى الله، وهوسيحلها.. وجدتها، أكيد،

بفكرة القدرة، نعم القدرة... هزَّ رأسه، وأزال عنه تساؤلاته.. ورّق كتابه، لا رغبة له في القراءة.. تأبط كتابه وعاد مشيًا بين الأشجار والنباتات، تاركًا النهر وأسماكه، مشى ومشى ومشى، خرج من المدينة، استمر بالمشي وضياء الشمس يمشي معه إلى الغروب، وصل خلاء واسعًا وبيده كتاب التساؤلات، ألقى نظرة على الأفق، احمرار غروب، قذف الكتاب في الفضاء وصاح؛ لا إجابة لتساؤلاتك، لأركن إلى القدرة فأنا عاجز في حلّ. نعم القدرة. بنفخة واحدة خلق الإنسان.. مهلاً، مهلاً، وهل بنفس النفخة خلق أيضًا مكونات العظام والعضلات والأعصاب؟ بنفس النفخة خلق محتويات العين والأذن؟ بها خلق المخ والمخيخ والنخاع المستطيل، بها خلق الجينات والغدد والإنزيمات وو و...، صفن يفكر ثم صاح (ولكن من المؤكد ابحث في خرافة؟).

هولندا



غطّته وأخته باللحاف وهي تبسمل، أطفأت الضياء، عمَّ الظلام الغرفة.. سمع شخير أمه المتعبة، أبوه نام قبلها من عناء العمل.. أجال ناظريه في الظلمة، التفتَ إلى أخته التي تكبره عدة سنوات، فهم أنها نائمة.. استمر ينظر في الظلمة، جهة الباب، لم يتبينها.. جهة الدولاب، لم يتبينه.. أحسَّ بالوحدة فلا شيء في الغرفة يشاركه اليقظة.. المطر ينزل بغزارة.. ظلمة الخارج تشارك ظلمة الغرفة.. أراد أن تشاركه أخته اليقظة ليتهامسان.. التفت إليها، شكَّ أنها نائمة، فهي تحكّ شعرها بأصبعها.. دخل بريق قوي من ثقب الباب، ثم أعقبه قصف رعد قوي، هزّه في مكانه.. خاف.. التصق بأخته.. همس أنه خائف.. همست، أنا أيضًا.. انتظرا دقائق.. استمرا في استلقائهما متقاربان.. دخل بريق قوي.. ارتجف.. غطت أذنيها وطلبت منه ذلك.. غطى أذنيه.. لم تنفع التغطية، فصوت الرعد كان قويًا، هزّهما.. بعد دقائق، بقى صوت المطر يهطل.. همس لأخته:

ـ لماذا هذا الصوت؟

ـ لا أعرف، لكنه من الله.

- من الله، لماذا؟

- لا أعرف، قالت أمي ذلك.

- هل يخيفنا الله؟

- نعم.

- ماذا عملنا؟

- ربما عملنا شيئًا لا يرضاه.

- مثلاً؟

- لا أعرف، هل أنت كفرت؟

- لا، أبدًا.

- سبيت أو شتمت؟

- نعم، سبيت كلبي.

- لماذا؟

- إنه أخافني.

- أنت سبيت وهذا لا يرضي الله.

- لكني لم أسب الله.

- لا فرق، سب الله أو سب الكلب، هو سب، كما قال أبي، السب والشتم لا يرضاه الله.. صفنت ثم سألت.

- ألا لفظتّ شيئًا عندما أخافك الله بالرعد؟

- لا أتذكر، فقط اهتززت.

- تذكرْ، ربما مع الهزة سبيته.

- أستغفر الله، أستغفر الله، لا أبدًا لم ألفظ شيئًا غير كلمة الله عند الهزة، وهذا ما علمتني به أمي عند الشدة.. صفنت.. قالت:

- تذكرتُ، تذكرت، ربما يخيفكَ لأنك رميت لعبتي في الطين.

- سامحني يا رب، ولتسامحني اللعبة.. ربما اشتكت إليه؟

- نعم، نعم، لا تعيد ذلك.

- أبدًا، أبدًا.. لم ينهِ كلمة أبدًا، حتي انشق سقف الغرفة برعدة قوية.. هزتهما.. حظن كل منهما الآخر.. الأم، الأب، غاطان في النوم، فتعب النهار والعمل المضني، جعلهما جثتين هامدتين على السرير.. توقف الرعد، خف المطر.. مرّ الليل مخيفًا.. استدارت.. وجدت نفسها متلحفة بالغطاء، وأخيها عاريًا والبرد قد عضّه.. أبعدته جهة فراشه.. حلّ الصباح، استيقظت الأم، استيقظ الأب، استيقظت أخته، سمعته يئنّ.. نادت أمها.

- أخي يئن.. جاءته.. شاهدت وجنتيه محمرتين.. وضعت كفها على جبهته، لسعتها حرارتها.. بسملت عدة مرات، قرأت آية الكرسي.. جاءت بمنشفة مبللة.. وضعتها على جبهته.. سألت أمها.

- ما به؟

- سخونة.. قالت في نفسها، وخافت أن تقول لأمها، (عاقبه الله لأنه أخذ يسأل كثيرًا عنه، أو ربما عاقبه عن الكلب.. لا أبدًا.. عرفتُ، عاقبه على لعبتي، نعم، نعم).. استمر الطفل يئن.. جلبت له أمه حبة اسبرين، جرّعته بصعوبة، وفمه يزفر رائحة كريهة.. كلمت أخته نفسها)،

هل أخبر أمي عما تكلمنا، ربما تقرأ له أدعية وتستغفر له الله، فيسامحه، لا، ربما يسمع أبي فهو شديد العقاب أكثر من الله).. كتمت سرها.. أخذ الطفل يسأل اخته.

- لماذا عاقبني الله، أنا قلت أستغفر الله.. قالت.

- سيشفيك، اذكر اسمه دائمًا.

- هل الله يعاقب بالسخونة؟

- نعم.

- ليعاقبني بغير السخونة، إنها لا تحتمل.

- حتى لا تعيد أقوالكَ.

- قلت فقط أستغفر الله.. سوف لا أستغفر مرة ثانية حتى لا أنطق اسمه.

- ليس هذا.

- بل ماذا؟

- عاقبك كما قلت لك على اللعبة.

- أرجوك قبليها لي وقولي لها عفوًا، حتى يعفيني الله.. جلبت اللعبة، شاهد أثر بقعة الطين، طلب منها أن تنظف مكانها.. مدّت طرف لسانها المبلل، أخذت تزيل الأثر.. شكرها.. أغمض عينيه مطمئنًا.. نام.. عادت أمه إليه، وضعت كفها على جبهته.. فتح عينيه مبتسمًا.. شعر بالراحة.. أمه مقتنعة أن حبة الاسبرين أدت مفعولها وأن الله جعلها سببًا في شفائه، وهي لا تعرف ما جرى بينهما.. الأخت

مقتنعة أن لعبتها سامحته.. هو لا يعرف، هل تعافى من استغفاره الله، أم من مسامحة اللعبة.. نادته أمه للإفطار.. ذهب.. قابل أخته بجلسته.. قطع كسرة خبز كبيرة، وضعها جانبًا.. قطع كسرة صغيرة، أخذ يلوكها مع الزبدة.. أخته تنظر إليه.. غافل أمه.. مسح كسرة الخبز الكبيرة بالزبدة.. وضعها خلفه.. أخته تنظر.. استغل فرصة انشغال أمه بصب الشاي.. ذهب إلى كلبه.. رماها له.. مسرح رأسه وقال.

- أرجوك سامحني فلا أسبك بعد.. فهمت أخته.. نهاية الإفطار نهض مع أخته.. سألته همسًا وهما متجهان إلى الغرفة.

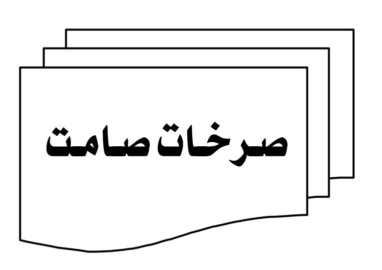
- ماذا قلت للكلب؟

- أعطيته كسرة الخبز وقلت له سامحني.

- وهل الكلب هو الذي يسامحك يا أبله، أم لعبتي.. مسكت اللعبة وقالت له.

- لا تؤذيها مرة ثانية فهي التي سامحتك.. صمت يفكر؛ لكن مَن سامحني، الله أم اللعبة أم الكلب.. ولم يتطرق إلى الاسبرينة.

هولندا



خرجا مع أمهما من محل بيع اللعب، غافلت أمها، (همشت) خطفت لعبته، دعكتها بقوّة، تريد تفكيكها، هو ينظر صامتًا ينتظر رحمتها في إعادة لعبته.. كان ينظر إليهما من على رصيف الشارع، تذكّر؛ خطفت منه لعبته، برطم، ما حرَ كلمة ولا ذرف دمعة، ينظر صامتًا، ينتظر رحمتها في إعادة لعبته إليه.. حكَّ زغبر لحيته صامتًا دون أن تفارقه الذكريات؛ لم يبتعد عن عتبة باب داره، جلس منتعلاً، كان نعاله من البلاستك الأزرق، تعتليه وردة حمراء، ما كان يعرف أن الوردة هذه تعني أنه نعال بنات.. أثار إعجاب طفلة، تقربت منه، انتظرت، ربما تخرج أخته، لمست نعاله وهي تبتسم له، مررت أصابعها على الوردة، وهو لا يدور بخاطره شيئًا، خلعت منه نعاله بسرعة وهربت فرحة، ولم يحر كلمة.. خرجت أخته، سألته عن النعال، أشار أمامه وهو صامتًا. ضربته على رأسه وغمّته.. حكَّ زغبر لحيته، هزَّ رأسه وابتسم، همس لنفسه؛ أهذه فطرتي؟

يبكّر إلى دائرة عمله صباحًا، يروق له رؤية الحركة الاقتصادية صباح كل يوم؛ معلمون متجهون إلى مدارسهم، الباعة تفتح أبواب دكاكينها، سيارات أجرة تنقل الناس، كنّاس ينظف الرصيف، بائعات الحليب يلفن الأزقة، التلاميذ إلى مدارسهم مشيًا، منهم مَن يمتطي دراجته.. لامسته دراجة، اندفع قليلاً، تذكر؛ خرج جزء من قميصه فوق بنطاله كذيل يتدلى، حذاءه أكل جزءًا من جواربه، غاص نصفه فيه، حاضنًا دفاتره بقوة، وهو يعرج، كل اهتمامه الوصول إلى مدرسته.. مرَّ عليه بدراجة، ضربت يده، اندفع جوار الرصيف، لم يبالِ حتى أنه لم ينظر إلى صاحب الدراجة، كان اهتمامه أن يصل بالوقت.. حكَّ زغبر لحيته وابتسم.. وقف أمامه لحظات، لم ينتبه، وضع أمامه مجموعة أوراق وهمس له؛ أرجوك خلّص نفسك من هذه المعاناة. غالبيتنا فقد أعزاءه. تنفس عميقًا. أنهى المطلوب منه. حكَّ زغبر لحيته. جرّته كلمة "أعزاؤنا"، تذكّر؛ سألتها زميلتها.

- من أين اشتريت شريط شعرك هذا؟ وهي ماسكة به، سحبت طرفه، انفتح من جذيلتها. صاحت بها غاضبة.

- لماذا؟ لماذا؟ لا أعرف كيف أضفره! أجابتها. جاوبتها.. أجابتها. جاوبتها. وهو ينظر صامتًا، تابعا أخته إلى الدار.. ترقرقت عيناه.

لا يجد ما يلهيه، فقد أنهى الأعمال المطلوبة منه.. عاد يتذكر؛ ضرب باللون الأخضر، حشيش وأغصان. ضرب باللون الأصفر والأحمر، مجموعة أزهار. ضرب باللون البني، سيقان وجذوع..

فتحت عينيها، صرّت على أسنانها، سحبت منه ورقة الرسم، دسّتها في دفتر رسمها وهي تحملق تخيفه.. صعب تنفسه، أراد أن يحري كلمة.. رمت له قطعة حلوى لتقنعه، رفض لمسها.. ترقرقت عيناه وهو يحّك زغبر لحيته.

مرّت بصوت مرعب، اهتزّت الدائرة.. انفجار قوي، ارتجف بعض الموظفين.. ضحك أحدهم معلّقا.

- لقد مرت وانفجرت بعيدًا وانتهتْ، لماذا هذا الخوف؟ قال آخر بتهكم ونسى عاقبة كلامه من قوانين الحرب.

- ها، دخلنا الأراضي الإيرانية.. أخذ الجميع يعبثون بأوراقهم دون أن يرفعوا النظر إليه، وكأن هذا يبرأهم من عقوبة السماع المبلغين بها.

ألقى نظرة من شباك غرفته الباقية من داره، الأشياء غير واضحة فقد عتّم الغبار زجاج النافذة، لم يبقَ من المطبخ غير أنصاف جدران، لا زالت قضبان الحديد مع أسمنتها هاوية على الأرض، يستطيع أن يجول بناظريه داخل الدار فلم يبقى هناك فاصل بين الغرف، لا زالت أكوام الحجارة والإسمنت، تغطي الأثاث، بقايا سلك التلفون، حوض فرفوري غطاه التراب، لم يزح ناظريه عنه؛ انتصبت على هذا الحوض، مدّت طرفها الأمامي، حاولت صيد سمكة زينة بمخالبها.. حاولت عدة مرات، فشلت، لا تستطيع تقدير المسافة كما درس، كان هذا تحليله.. صفّق عاليًا، هربت.. ترقرقت عيناه بالدموع.. حكَّ زغبر لحيته؛ جاءته بكتاب الفيزياء، طلبت منه

شرح عمل المرايا، صورة حقيقية، صورة خيالية.. شرح لها بإسهاب، ما كان لدية صعوبة بالنطق. ثم سألته، ما تفسير مشاهدة جسم في الماء أقرب من مسافته الحقيقية؟ شرح لها بوضوح نظرية انعكاس الضوء في السوائل، ثم قادها إلى حوض سمك الزينة، رمى فيه قطعة نقدية بهدوء، استقرت في القعر، طلب منها بهدوء أيضًا دون إخافة السمك، جلْب القطعة النقدية.. مدّت يدها، أرادت مسكها لأول مرة، فشلت.. طلب منها مرة ثانية، فشلت أيضًا.. ابتسمت وقالت له.

- صدقتَ، أقيس بُعدَها بتأثير انعكاس ضيائها. علّق على كلامها؛ هكذا يخطي الصياد المبتدئ تقدير مسافة السمكة بتوجيه فالته نحوها.. لم يحك زغبر لحيته، بل حكَّ جبهته فقد تلوثت بغبار الشباك.. جال ناظريه في غرفته، فراش، أدوات، مواد مبعثرة.. أعاد النظر من خلال الشباك فلا شيء يشغله.. شاهد بقايا سلك التلفون المتدلي؛ خابرت، رفع السماعة، طلبت أمها، ناداها لها.. حديث طويل، صياح، عياط.. لم يسأل، ينتظر كلمات أمها المؤثرة في وصف ما سمعت.. صاحت به.

- حتى مع أختك، لا تبالي.. أجابها بهدوء وهو يسبل عينيه مع ابتسامة خفيفة.

- لا بد أن تكون أمور عادية، ستحلها بنفسها.. جرَّ نَفَسًا عميقًا، ترقرق الدمع في عينيه.. أنهى ليلته بعد أن أطفأ ضياء الفانوس.

خرج صباحًا مجبرًا، فمعيشته تفرض. كانت هناك حركة اقتصادية مختزلة؛ لا كنّاس في شارع، محل يفتح بابه من مجموعة محلات، تمر سيارة بين حين وآخر تاركة خلفها سحابة من دخان أسود، لم ير أبدًا كلبًا أو قطًا.. مرت جنازة، مشيّعوها أنهكهم التعب من تشييع الكثيرين، القلّة مَن شاركتهم التشييع، فقد أصبح هذا مألوفًا.

وصل دائرته، جلس خلف منضدته، نسى التحية، رتّب أوراقه، صنّفها.. حيّاه أحدهم، انتبه، اعتذر.. منهم مَن سرد أحداث اليوم السابق، ومنهم من أكّد على ما حدث صباحًا.. شاور أحدهم آخر.. خرج.. بعد فترة، غاب آخر وآخر.. شاوره زميله وهو مستمر بتفحص أوراقه؛ أبو شنب المصري، يوزع الطماطة بالكراج، استعجلْ.. استمر يتفحص الأوراق دون رد فعل.. أعاد عليه.

- استعجلْ، أعرفُ أنك لا تحتاجها، لكن عائلتي كبيرة وأحتاج نصيبك.. تذكر وحدته، رفع رأسه متألمًا، ردَّ.

- حقكَ، عائلتك كبيرة.. خرج.. مر الوقت، دخل أحدهم، يداه لا تحمل أي كيس، صاح.

- كيف؟ مصري، يحصل على صناديق الطماطة ونحن نقف عليها طوابير ساعات وساعات، لا أعرف، لا أعرف.. أشار له أحدهم بالسكوت، همس له آخر؛ هل تريد إعدامك؟

مرت مرعبة، سكت الجميع ينتظرون انفجارها.. لحظات، انفجرت.. مرت ثانية وثالثة وسابعة.. علّق المعلق وهو يبتسم.

- اليوم، يوم الحشر.. شاركه آخر.

- هذه عيدية الفطر، ولم يضف كلمة المبارك.. حك زغبر لحيته وسرح؛ بيوت تهدمت على ساكنيها، الناس تركض، هذا يصرخ، عائلته.. تلك تصرخ، أولادها.. هنا ناس ترفع الأنقاض، وهناك ناس تسحب الجثث.. سال الدم من جسم أمه، لم تكن أخته جوارها.. حظنها وهو مرتعب، الدم ينزف بغزارة، سحبها إلى الخارج وهو يرتجف.. صرخ مستغيثًا. أنقذوها، أنقذوها.. ترقرقت عيناه بالدموع، حاضنًا رأسه بين يديه.

منذ الصباح الباكر، خرجت جموع الناس، عوائل وأفراد، بسياراتهم الخاصة أو بسيارات أجرة.. جلس في مقعد سيارة أجرة، هذه تنوح هذه تبكي هذا يسرد قصة سقوط داره، وهو سارح لا ينبس بكلمة.. وصلت السيارات تباعًا، نزلت النساء لاطمات نائحات، نزل الرجال يتحادثون.. قبور على مرمى النظر، قبور اندرست ودُفن فوقها، قبور مبنية، وقبور لا زال ترابها طريًا.. اتجه الناس كلٌّ إلى قبوره، هذه توسّدت قبرًا، تلك (تكول) تشعر لمجموعة نساء، ولا زالت النعوش الجديدة تأتي تباعًا.. انعزل بقبرين، أحدهما كبير يحاذيه آخر صغير.. جلس صامتًا يتخيل؛ أخرجت نهدها، أرضعته.. اشترت له قطعة حلوى.. صاحبته إلى المدرسة.. حثّته على الزواج.. ابتسمت له، سألته عن نعالها، مدّت يدها في حوض السمك.. قرصته في رقبته، حكَّ مكانها، رفع رأسه.. القبور محشّدة على مرمى البصر، منظر مرعب.. ارتعبَ.. صرخ بأعلى صوته.

- أين الله؟ أروني الله؟ أروني الله؟ التفت إليه من سمعه، قال بعضهم للآخر.

- لا إله إلا الله.

- أستغفر الله العلي العظيم.

- لا بد وأنه جُنّ.

- أنهضوه، تكلمو معه، فهو وحده.

- آمن بالله يا رجل.

- قوِّ إيمانك بالله.. نظر إليه أحدهم، هازًّا رأسه له، يطمئنه،

- الله يمهل ولا يهمل، الصبر.. مِن الناس مَن لازمَ المقابر ومنهم مَن خرج.. انتظر في طابور انتظار سيارات الأجرة التي تمر كل ساعة أو أكثر.. وقفت سيارة.. تدافعوا مستعجلين العودة.. وصل باب السيارة، جاءته دفعة، أبعدته.. تحركت السيارة، صرخت امرأة، غضبت أخرى، وهو صامت.. جاءت مجموعة أخرى.. اشارت بإصبعها لأختها نحوه.

- ذاك الذي كفر.

- لا ألومه إن كفر، آلاف تقتل والظالم يحتفل بعيد ميلاده.. ابتعدت أختها عنها قليلاً كرد فعل الخوف.

- أششششششش.. جاءت سيارة أجرة.. تدافعوا.. وصل باب السيارة، لم يستطع الصعود، فدكّتها عالية، وضعت كفيها على

ظهره ودفعته داخل السيارة لتعجّله خوفًا من أن يأخذ مكانها شخص آخر.. هذا يلعن، هذه تصرخ.. حك زغبر لحيته واستمر صامتًا.

غربت الشمس وغرب الناس عن الشوارع، فمدينته كانت عرضة للقصف الليلي المكثف، والجيش الشعبي يجوب الشوارع.. اطفأ الفانوس، اعتمد على ضياء القمر الذي عتّمه زجاج الشباك من التراب العالق عليه.. استلقى على فراشه مستسلمًا لقدره، إن أتاه صاروخ.. تذكر.. نهض.. لا زال ضياء القمر باهتًا.. مدّ يده، جاءت بيده، أخرج منها مبلغًا، أعادها مكانها.. ثم وضع كيس الدقيق جواره.. عاد إلى الفراش ينتظر الفجر.. انبلج.. ارتدى ملابسه بعجلة، عدَّ نقوده مرة ثانية، أخذ كيس الدقيق وخرج.. وقف في الطابور أمام المخبز، ينتظر الدور، تخطّاه رجل، دخل، أعطي الخباز الكيس الذي بيده.. وزنه.. أعطاه مقابل دقيقه عددًا من الأرغفة واستلم منه مبلغًا.. تخطاه ثاني، دخل المخبز، أعطى الخباز كيس دقيقه.. وزنه.. أعطاه مقابل دقيقه عددًا من الارغفة واستلم مبلغًا.. حكَّ زغبر لحيته صامتًا، انتبه أن طابوره لشراء الخبز الجاهز.. دخل المخبز، أعطى كيس دقيقه، قال له الخباز.

ـ صار لك وقتًا طويلاً تنتظر، كان عليك أن تسأل فالصمت لا ينفع، أهذه المرة الأولى لك؟ هزَّ رأسه علامة، لآ.. لم يفسّر له أن جارته كانت تخبز له.. عاد مستعجلاً كي لا يتأخر عن دوام دائرته.. بعد ساعتين من دوامه، طلبه المسئول الحزبي.. نظر إلى الموظفين صامتًا، نظروا إليه صامتين.. ذهب.. انتصب امام المسئول الحزبي، قال له آمرًا فليس للزمالة هنا موقع.

ـ أنت من المشمولين في الجيش الشعبي في الوجبة القادمة، ستدعوك الفرقة لاستلام مهامك.. هزَّ له رأسه علامة النعم.. دخل غرفة الموظفين، الأنظار توجهت إليه، صاح أحدهم ساخرًا.

ـ الآن سنحتل إيران.. همس آخر بأذن زميله.

ـ كنت أعرف أنه مشمول في الوجبة الجديدة.

ـ أحسّ بالشفقة عليه، كيف سيتدبر أموره في الجبهة.

أنهى عمله صامتًا وهو يحك زغبر لحيته بين وقت وآخر.. في نفس الليلة وهو في فراشه، أخذ يحكي مع نفسه؛ إنها الحرب، أكلت عائلتي في داخل بيتي، وهل أتركها تأكلني في الخارج؟ هل أهرب؟ ولكن كيف وإلى أين؟ إن مسكوني أعدموني ومّن يأويني، وإلى متى؟ نام مستسلمًا.

أصبح رابع موظف في خيمة من مجموعة خيام انتشرت محاذاة الشط الفاصل بينهم وبين العدو.. كان القصف المدفعي يوميًا، خاصة وقت الغروب مع عويل بنات آوى.. لم يجر تفكيره إلى الاستفسار كما بعض رفاقه عن تزامن القصف مع العويل، بل انجرّ بأمر آخر؛ لا بد أن نساءنا تعلمن هذا العويل من بنات آوى ولهذا سُمى عويل النساء.. ولكن لماذا تعول بنات آوى؟ هل تنبهنا، أم أنها تعول علينا تتوقع قتلنا.. آآه، الإنسان والحيوان، سواسية في عويل الحرب.

بعد أيام انتبه إلى حالة صلاة الأغلبية الساحقة من الرفاق.. أخذ يتساءل بصمت وهو يحك زغبر لحيته؛ لم أرهم من قبل هكذا، هل

هو الخوف من الموت؟ أم التذرع إلى الله لينجيهم؟ أم الاستغفار عن ذنوب اقترفوها؟ إنهم مخادعون كذابون. حسن، محمد، جاسم. يصلون، هاهاهاها.. انتبه إليه أحد الرفاق، سأل رفيق آخر.

- هل انتبهت إلى ذاك، مرة يهزّ رأسه ومرة يتكلم مع نفسه، أخاف أن يكون من المناوئين.. ضحك وأجابه.

- لا ابدأ، إنه هكذا، صامتًا ومؤدبًا، لا يشارك أحدًا، فقدَ عائلته بصاروخ.

- لا أقتنع، يجب أن أراقبه، هكذا يظهرون، صامتين مؤدبين، كي يبعدوا الشبهات عنهم... أخذ يتابع حركاته، رواحه ومجيئه، لم يكتف بالنهار بل أخذ يتجسس عليه ليلاً.. خرج منتصف الليل متجهًا إلى خيمته، رفع طرفها، يتأكد من وجوده.. بعد عدة منتصفات ليالي، غيّر الوقت، أخذ يتجسس عليه وقت صلاة الفجر، قال لنفسه؛ إنه لا يصلي، يجب أن أراقبه في هذا الوقت.. كان هناك هجومًا من العدو.. اشتد القصف.. غالبية أفراد الجيش الشعبي من الموظفين. التصقوا بأفرشتهم.. ساعات، خفَّ القصف.. نهض إليه يتجسس، أخذ حافات الخيام مشيًا، يتوقف حينًا ليتأكد من عدم وجود خطر عليه، وحينًا يتابع المشي بحذر.. رفع طرف الخيمة، دخل ضياء قليل، كان الرفيق الذي سبق أن سأله عنه، مستيقضًا، شاهده، همهم مع نفسه؛ يريد ترقية حزبية.. توقف القصف صباحًا.. استفسروا إن كانت هناك خسائر بالأرواح، وتهامسوا.

- لا أحد مقتول ولا مصاب، ولا خيمة محروقة.

- كان القصف على قطعات الجيش، تعبرنا الصواريخ إليها.

- يعلم العدو، أننا جيش شعبي للحراسة وليس للقتال.

- نعم، نعم، هل بالبندقية التي لا يعرف معضمنا الرمي بها، نخيف العدو؟ التفت رفيقه حوله وهمس بأذنه.

- إنها لعبة أمريكية، لسحق قوة الدولتين وابتزاز ثرواتهما.

أششششش..

كان واجبه صباح هذا اليوم استلام حصة مجموعته من المواد الغذائية، وصادف أن المتجسس وآخر في نفس المهمة، استبشر المتجسس خيرًا فهذه فرصة للاستجواب الغير مباشر، أخذ يلقي عليه الأسئلة أثناء الطريق الممتد إلى المقر.. كانت شُجيرات، كانت نخلات، كانت تلات تراب فيها حُفر بنات آوى، كانت خمسة عشر دقيقة للوصول، تعدّوا الشجيرات، تعدوا النخلات، تعدوا التلات.. عاد القصف بكثافة، كانت بناية المقر من ضمن أهداف العدو.. انبطحوا على الأرض، خائفين مرتجفين، كانت أجسامهم تهتز باهتزاز الأرض، أصوات الصواريخ المارة تفجر طبلات الآذان، لم ينبس واحدهم بكلمة حتى إنهم خافوا من سماع تنفسهم.. لم يستمر المتجسس على الانبطاح، أراد الوصول بسرعة إلى المقر والحماية ببنايته، زحف على بطنه، من شدة الخوف لم يحس بخدوش بطنه ولا حتى بخدوش يديه التي أخذت تدمى.. اقترب من البناية، انفجرت قذيفة قرب باب البناية، تطايرت الشظايا، جاءته شظية.. صرخ.. فهم الآخران أنه أصيب.. جاءته صورة أمه وهو يحظنها

ويسحبها إلى خارج الدار، فزحف إليه بينما الثالث بقى مبطوحًا، وصله بصعوبة، قلّبه وهو منبطحًا، كان ينزف بغزارة، حظنه كما حظن أمه، عرف أن مكان النزف هو مكان تمزق الملابس، خلع قميصه بصعوبة، كوّره، وضعه فوق الموضع الممزق، استمر بالضغط عليه، خاف أن يستمر النزف فيودي بحياته، سحبه بصعوبة حتى دخل باب المقر، صرخ عاليًا.. أنقدوه، أنقذوه.

في نفس اليوم، انتشر الخبر بصيغة جماعية أكثر من صيغته الفردية؛ إن الرفيق المناضل قام ببطولة، وبرهن على أن الجيش الشعبي، يخترق الرصاص ولا يهاب قذائف العدو وصواريخه.. أخذ الرفاق يجتهدون.

- سوف يرفع درجة حزبية.

- واجب ترفيعه درجة حزبية.

- ربما أكثر، إذا رفعت قيادة المقر تقريرًا بذلك.

- ربما التقرير يذكر هذا من بطولات الجيش الشعبي.. أما رفاق الخيمة فقد تهامسوا.

- تابعه ليل نهار، من أجل أن يرفع تقريرًا يحصل به على ترفيع حزبي.

- قابلَ الإساءة بالإحسان، ذاك يتجسس وهذا ينقذ حياته.

انتهت مهمة الجيش الشعبي، في شباط سنة ١٩٨٨م.. عاد الموظفون إلى وظائفهم.. واستمر البكاء، هذا يبكي أخيه، وذاك يبكي غياب الطماطة، هذا ينوح على ابنه، وذاك ينوح على بيضة..

واستمرت طوابير الناس على الطماطة والبيض وتوقفت أغاني الشجاعة والبطولات والمقدسات.. وما هي إلا سنتين أو أكثر، صدحت أغاني أخرى، بكلمات أخرى، وألحان أخرى، لأعادة فرع الساق، الكويت، إلى شجرته الأصل.. وما هي إلا أشهر، هبّت عاصفة من الصحراء اقتلعت الشجرة من جذورها، تاركة مكانها، قفر وفقر وحصار. تحول الإنسان إلى جائع ينشد لقمة العيش بحدّها الأدنى لا تهمه الأسملة التي يرتديها ولا الدار التي فقدت شبابيكها، تحول الإنسان إلى متشرد ينشد الأمان والاستقرار في بلدان الغربة..

سكاير، شخاط.. سكاير، شخاط.. هكذا ينبّه عن بضاعته، التي هي، كم علبة من السكاير وكم علبة من الشخاط.. يفتقد قميصه الزرار العلوي، والنظافة، كانت خيوط بنطاله واضحة من جهة العجز في لونها المخالف وخياطة اليد الغير ماهرة.. يُقرّب الورقة النقدية من عينيه، ليتفحص أصليتها، وليتعرف قيمتها، مرات وكأنها مبلغ ضخم.. يمسّد بين فترة وأخرى لحيته، وأحيانًا يحكّها فقد تأخر كثيرًا في تنظيفها كما جسمه، لشحة الماء وعدم كفاية صابون التنظيف المقرر له شهريًا.

- سكاير شخاط.. وكأنه يشاور نفسه.. وقف أمامه أكثر من المعتاد، يأمل أن يرفع ناظريه إليه ليراه، بعدها طلبَ.

- أعطيني سكارة واحدة.. لم يؤشر على العلب لأنها كانت من نوع واحد.. ناوله ولم يرفع ناظريه.. قال له.

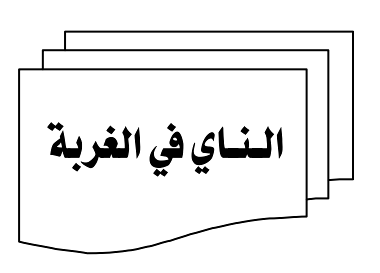
- هل عرفتني؟ أجابه دون اهتمام فقد أكلت قساوة المعيشه اهتماماته

- لا يا أخي. ردّ عليه.

- لا، يا رفيقي المنقذ الشجاع.. جرَّ نفسًا عميقًا من سكارته، نفثه في وجهه.

- أحسدكَ.. أنت ربحتَ وخسرتَ، ربحت حياتك عندما قالوا عنك صامتًا، ما ثرثرت، وخسرت، عندما قالو عنك مؤدبًا، لو كنت ذئبًا ما عشت هكذا ذليلاً.. عرفه. ردّ عليه بنظرة، من الأسفل إلى الأعلى دون أن يصطدم بعينيه، كأنه يتفحّص أسماله هو أيضًا، ولم يعلّق.. لكنه ابتسم له ابتسامة سخرية.. فهم السائل قصده.. جرَّ نفسًا عميقًا من سكارته، ابتلع الدخان وهزَّ رأسه بمرارة، قال وهو يذهب.

- كلانا أصبح خاسرًا وربح القائد.



حامت فراشة ملونة حول زهرةٍ صفراء هنا، وحامت فراشة ملونة حول زهرة حمراء هناك، كانت واحدة تحطُّ فوق شعر رأسه القصير وهو يبتسم ويحاول ألا يأتي بحركةٍ تبعدها عن رأسه بينما هو يقطع قصبة بسكين حادة ويتكلم بكل هدوء مع معلمه الذي جلس قبالته على الدغل.. همس الصبي.

- هكذا تكون قصبة الناي بأكثر من ثلاث عقد على أن تختار القصبة من النوع الذي تكون فيه العقد متباعدة المسافة.. قال معلمه.

- ارفع صوتك فقد طارت الفراشة.. هنا أخذ راحته بالكلام بينما بعض الفراشات تتطاير مثنى، واحدة تطير أعلى وأخرى تطير أوطأ وتحومان حول زهرة، ثم يتغير الوضع فالتي كانت في الأعلى تصبح أوطأ وهكذا مما أثار انتباه الصبي فسأل معلمه

- أهكذا ترقص الفراشات؟ أجابه.

- نعم، ولكن هذه رقصة التزاوج فهذا فصل الربيع.. ابتسم الصبي وهو مستمر في تهذيب القصبة معقبًا على كلام معلمه.

- وهذا أيضًا موسم تجميع (الخريط).. سأله معلمه.

- أهو الطحين الأصفر؟ أجابه.

- نعم، تخرط الفتيات الطحين هذا من زهرة البردي فجرًا.. ثم صمت كاتمًا ابتسامة ولم يكمل كلامه.. أكمل تهذيب القصبة فجعل نهايتيها ناعمتين لا تخدشان وعمل مقطع قرب الحافة العليا ثم ثقبًا واحدًا في كل عقدة. وقال لمعلمه.

- هذا هو الناي.. وإذا أردتَ (مطبك) أي زوج فتعمل نايين وتلصقهما بالقار وهنا يكون الصوت مختلف.

- الناي أفضل.. هل تستمع إلى أغاني فيروز؟

- لا، فهنا أسمع إلى أبو ذيّة وعتابة. قال المعلم.

- نحن في المدينة نستمع إلى أبو ذية وعتابة وأيضًا إلى فيروز ومغنيات أُخر.. لقد غنّت فيروز، أعطني الناي وغني فالغناء.. صمت وسأل الصبي.

- هل تستطيع أن تكمل ما غنت؟ صمت الصبي برهة وأجاب

- اعطني الناي وغني فالغناء يُنسي الهموم.. وهنا ضحك المعلم كثيرا وقال له.

- أنت لا زلت صبيًا فمن أين أتتك الهموم؟

- لقد جاءتني الهموم وأنا بعمر السبع سنوات عندما قُتلا والداي في نزاعٍ عشائري وعطفتْ عليَّ أم فطوم بعد أن سمح لها (المضيف)

بأخذ جاموستنا وتربيتي مع ابنتها فطوم، وقد تعلمتُ صيد السمك وحلب الجاموس. سأله.

- وهل أنت تحلب الجاموس؟ أجابه.

- نعم، كبقية الرجال.. رفع الصبي رأسه وقال لمعلمه.

- لقد جاءت فطوم (ببطل) الحليب.. كانت يافعة، تدلي بشعرها على طوله بضفيرتين. تزيدُ من حلاوة خصرها النحيف، عباءتُها التي تشدّها دائريًا عليه.. نظرت إلى المعلم بعينيها السوداوتين اللتين زادهما سحرًا، الكحلُ الذي وضعته بمهارة، ولم تنزل ناظريها عن المعلم عندما قدمت له قنينة الحليب وهي تبتسم.. عادت دون كلمة، وعندما مشت اهتزت عباءتها باهتزاز الوركين.. سأل الصبي معلمه متعمدًا إزاحة نظره عنها.

- وماذا قالت فيروز أيضًا عن الناي؟ أجابه.

- إن صوت الناي يبقى بعد أن يفنى الوجود.. صمت الصبي ثم سأل معلمه.

- لا أفهم.. أجابه.

- سأبسِّطُ لك المعنى، ممن تعلمتَ ألحانك على الناي؟

- من أبي. قال المعلم.

- إذن لحن الناي بقى معك وسيبقى، تنقله إلى الآخرين، لكن صاحب اللحن مات أي فنى، فلا يبقى من الشيء إلا أثره.. ولا

تحزن يا صبيّ وانظر إلى، إن والدك حي لأنه أبقى معكَ ومع غيرك أثرًا. قال الصبي.

- لقد جاء موعد العناية بالجاموس سأذهب مع فطوم وأعود حيث موعد النوم. قال المعلم.

- عدْ قبل الظلمة فالطريق غير آمن.

- لا تخف فأنا ابن هذا الهور أعرفه كما أعرف أصابع يديّ.. وصل الصبي مسكن مربيته فوجد فطوم تحضّر بعض قطع القماش وطلبت منه أن يرسلها إلى (المشحوف) ويتأكد من وجود مجاذيفه ثم قالت له.

-- تعال أولا وساعدني على نقل هذا القدر خارجًا.. مسك القدر وحده ليثبت لها قوته، حمَلّه إلى الخارج.. عرف الصبي أن فجر غد هو موعد تجميع طحين (الخريط) من زهرة البردي وعندما أخذ منها قطع القماش أراد أن يتاكد، فسألها هامسًا.

- هل فجر غد موعد تجميع الطحين؟ أجابته بصوت خافت.

- اخجلْ لا تسمعك أمي.. قبل موعد النوم عاد إلى معلمه.. قضيا وقتًا ما قبل النوم بالحديث ثم أخذ الصبي الناي وأخذ ينفخ.. قال لمعلمه.

- سأعزفُ حتى تنام.. أخذ يعزف ألحانًا، بعضها حزين تعكس صورة حياته العائلية السابقة، وبعضها مبهج تعكس صورة طبيعة الهور بما فيها الأزهار.

والفراشات وأنواع الطيور الملونة، خوار وأصوات وأغاريد وخرير وحفيف.. حتى نام المعلم على فراشه فوق سرير (جريد) سعف النخيل، أما الصبي فأخذ يتقلّب على فراشه يمنه ويسره ولم يستطع النوم إلا متأخرًا ينتظر فجر غد.. عندما جاء الفجر استيقظ المعلم على أصوات الطيور المختلفة ثم نظر جهة الصبي لكنه لم يجده في فراشه كعادته. خرج وألقى نظرة. كان الظلام لا يزال يحجب الرؤية بعض الشيء، أخذ يتمعّن هنا وهناك فشاهد شيئًا يتحرك بين الحشائش وأعواد البردي فتبع أثره بكل حذر إلى أن وصل الماءَ الذي تحيطه غابات البردي والتي كان من الصعوبة رؤية ما يجري هناك.. فتأكد أنه الصبي الذي انبطح على بطنه وأخذ ينظر إلى الماء من بين بعض البرديات، شكَّ في وجود أمرٍ مهم، حاول بكل حذر أن يبتعد عنه وينبطح مثله على بطنه وأخذ ينظر إلى الماء.. بعد فترة سمع أصوات مشاحيف تشقُّ الماء وأصوات مجاذيفها، وهمس وضحك صادر من فتيات ولم يستطع المعلم تفسير ذلك ولم يستطع تفسير تصرف الصبي، إلا أنه يفهم أن الصبي ابن هذا الهور وهو العارف ما يفعل وعليه أن يمثّل تصرفاته.. اقتربت المشاحيف إلا أنها كانت من الجهة المقابلة لحافة الماء، فشاهد ما لم يكن بالحسبان: فتيات عاريات بالتمام، ظهرت مفاتن أجسامهن التي كانت تخفيها الملابس بعد أن توضحت الرؤية، نهود صغيرة وخصور نحيفة وشعر يتدلى حد الإليتين، يمسكن بزهرة البردي و(يخرطن) طحينها وهنَّ منتصبات القامة، وهناك امرأة كبيرة تجلس في نهاية كل مشحوف، تجذف وتراقب،

بعد فترة شاهد المعلم أحد المشاحيف قد غيّر اتجاهه حتى وصل منتصف الماء، وأدارت فتاته وجهها الجهة التي هو فيها حتى بان النهدان المكوران والبطن المدور الذي يتسع لكفٍّ واحدة وزغب تحتها، ثم عاد المشحوف وأخذ مكانه بين المشاحيف.. امتزجت اللذة عند المعلم بالخوف، لذة هذا المنظر الجميل المذهل بالخوف من مغبّة الإحساس بوجوده في هذا المكان فانساب بحذر بين الأعشاب والبردي حتى عاد إلى فراشه حاملاً معه هذا الحلم الذي لم يرغب أبدًا أن ينقطع عنه.. حلّ الصباح وأراد الصبي إيهام معلمه أنه استيقظ توّا فسأل معلمه وهو يتمغط.

- هل حان موعد المدرسة؟ أجابه المعلم وهو لا يرغب أن يفتح عينيه كي لا يفقد شيئًا من حلاوة الحلم الذي هو فيه وأجابه بسرعة.

- قلْ للتلاميذ إن المعلم مريض، لا أستطيع التعليم هذا اليوم، بل واليوم الثاني أيضًا.

في طريقه إلى المدرسة لإخبار التلاميذ، شاهد امرأتين تنظران إليه وتتهامسان.

- لقد أصبح صبيًا.

- إذن من حقها أن تبعده إلى النوم عند معلمه، ففطوم رشدتْ وهي تحلّ عليه فالليل جسّار، لم يسمع من الهمس شيئًا إلا أنه فهم أنه يدور حوله.. عاد الصبي إلى دار فطوم بعد إخبار التلاميذ، فشاهد فطوم حقيقة لا حلم وأخذ يساعدها مع أمها فيعمل قوالب الخريط

وكان في هذه الأثناء يأخذ صفنة على جسم فطوم عندما يهتز أمامه فانتبهت إلى ذلك وقالت له.

- هل فعلتها؟ تجاهل سؤالها واستمر بالمساعدة.. كان قدر كبير مملوء ثلثه بالماء ومغطى بقطعة قماش شُدّت بتوتر حول فوهته وهو موضوع على موقد من ثلاث طينات مفخورة سابقًا، يشتعل فيه الحطب ليغلي الماء.. كانت الأم تنثر الطحين بصورة متساوية على قطعة القماش وكان بخار الماء المتصاعد بدوره يرطّب الطحين هذا ويحوله إلى عجينة متماسكة، البعض من صنّاع حلوى الخريط يضع طبقة من التمر بين طبقات الطحين والآخر منهم يرش السكر على الطحين، وهناك طريقتان لتحضيره: إما توتير شد قطعة القماش كي يترطب الطحين فقط بالبخار ويكون هذا بعد اكتمال التحضير جافًا بعد تعريضه للهواء، أو توصيل قطعة القماش إلى الماء كي يغرق الطحين ويكون هذا بعد اكتمال التحضير رطبًا (غرقانًا) كما يصطلح على تسميته.. أراد الصبي وضع كمية من الطحين الأصفر على قطعة القماش فمنعته أم فطوم وقالت له.

- لا تلمس الطحين فإنه إنْ سقط على ملابسك لا يمكن إزالة أثره.. وهنا نظرت إليه فطوم، ابتسمت وعلقت.

- إذا لم ترد خسارة ملابسك، فانزعها وتعرى، وهنا بادلها النظرة وابتسم وعرف سر التعري في جمع الخريط.. سألته فطوم.

- لماذا لم تذهب اليوم إلى المدرسة ؟. أجابها.. معلمي مريض... نادت على أمها.

- المعلم مريض ولم أرسل إليه بطل الحليب هذا اليوم.. أمرتها بالذهاب إليه ومعرفة حاله وطلبت من الصبي أن يستمر بمساعدتها لأمرٍ في نفسها.. أخذت قنينة الحليب وذهبت بها إلى المعلم الذي كان قد وضع ظهره على (شاخص) جدار القصب لمسكنه وهو ينظر إلى الأرض والحلم لم يفارقه ولم يحسّ بها حتى صارت قريبة منه.. رفع رأسه وشاهد فطوم وبيدها قنينة الحليب، نهض بآلية وأخذ قنينة الحليب فتراءت له أنها عارية كعاريات هذا الفجر ولم يميزها أن كانت معهن أم لا، شاهدها تطيل النظر إليه فرغب هو أيضًا في هذه الإطالة، ثم قالت له.

- هل حقًا أنت مريض؟.. ابتسمت وأكملت كلامها.. ربما أمرضك ما في المشحوف الذي اقترب.. وهنا ضحكت بدلع وعادت إلى مسكنها.. أما هو فقد سقطت من يده القنينة دون أن يسيطر على مسكها فقد ذهل من كلامها..

في أحد الأيام طلب من الصبي أن يستعير أدوات الصيد بما فيها المشحوف فالليلة يريد أن يقضيها في صيد السمك. أجابه الصبي.

- لماذا لم تطلبها أنت، فهي تسهل لك كثير من الأمور.. صمت المعلم وفكر مع نفسه: يجب أن أذهب لأتبين حقيقة أمر أم فطوم، ولأتبين أمر تسهيلها لى كل الأمور.. ذهب مع الصبي إلى مسكن أم فطوم ونادى عليها الصبي.

- يا أم فطوم، جاء المعلم يستعير منك مشحوف الصيد هذه الليلة... خرجت أم فطوم وخلفها فطوم فشاهدت المعلم وحيته تحية متكررة ثم قالت له.

- أنت تأمر أمرًا ونحن نلبي.. لا زالت فطوم تستتر واقفة وراء أمها فرمته بابتسامة.. تلعثم بعض الشيء وطلب من الأم معدات الصيد. أجابته.

- المشحوف جاهز والفانوس جاهز. سألها.

- وما فائدة الفانوس هنا؟ ضحكت فطوم من سؤاله. أجابه الصبي.

- سأشرح لك كل شيء عن الصيد عندما نعود.. ثم أكملت الأم كلامها.

- أما الشباك و(الفالة) فلا أملكها. قال الصبي.

- لا نحتاجها يا خالة فهذا موسم (الزرّة) السمك الكثير وأنا أعرف كيف أصيده. ثم قالت الأم.

- عندك الصبي وهو شاطر في كل شيء.. لا تنسانا بسمكة واحدة.. علقت فطوم وهي تضحك.

- تقصد واحدة لك والباقي لنا. قال المعلم.

- كل شيء سيعاد لكم، كل شيء، كل شيء.. عند عودته أخذ يحلل كلام الأم (أنت تامر أمر ونحن نلبي): هل هو من باب الاحترام للمعلم الذي هو مألوف عند هؤلاء القوم لأنه يتوسط مجالسهم ويعطي رأيه في بعض المواضيع بالرغم من أنه غريب عنهم، أم

أنه من باب الشدّ إلى فطوم.. عندما حلّت الليلة ركبا المشحوف وتوسطا جهة من الماء اختارها الصبي بدراية لهذا المكان الذي يكثر فيه السمك، فهو تجمع لمياهٍ تأتيه من عدة جوانب. سأله معلمه.

- ولكن كيف نصيد بدون شباك؟

- الشَبَك له أسلوبه الخاص والصيد بالشباك معناه نحتاج إلى كميات كبيرة من السمك للبيع مثلاً، ونحن نريد التسلية وصيد بعض السمكات.

- هذا صحيح، والفالة؟

- الفالة تستعمل في مكان آخر، ومع السمك الكبير ثم تحتاج إلى يد قوية وماهرة.

في الصيد.. وهنا استغلّ الصبي الفرصة ليدخل الخوف في قلب معلمه، فأتمّ كلامه.. ولكن يجب أن تكون عندك فالة تدافع بها عن نفسك في بعض الحالات غير الصيد.

- ماذا تقصد؟

- إذا حاول أد قتلك فتدافع بها عن نفسك فهم ماهرون في تصويب الفالة إلى صدور الخصوم.

- ولماذا يُقتل الإنسان هنا؟ سأله كي يتحذر من مواقع الخطر.

- الأمثلة كثيرة، مثلاً، مثلاً.. وهنا اختار مثالاً لجرّ انتباهه إلى موضوع فطوم.. مثلاً إذا شاهدك أحدٌ تهمس أو تنظر لابنة عمه

فمن حقه أن يعرّضك للمشاكل وربما حتى القتل.. شاهد جبين المعلم يتعرّق.. أكمل كلامه.. هذا مثال فقط.. قال المعلم بعصبية.

- اتركنا من أمر المشاكل والقتل، وضّحْ لي كيف سنصيد؟.. أحسّ الصبي بالراحة من تأثير كلامه على المعلم وقال:

- نضع هذا الفانوس جانب المشحوف وعلى ضوئه ستتقافز الأسماك ومن كثرتها ستقفز كم سمكة في المشحوف، وما عليك إلا التمتع بالمنظر.. قال له:

- يا لك من ذكيّ وماهر.. ماهر في صيد السمك وذكي في وسوسة صدور الناس.. همس الصبي لنفسه.. لا أتركك تتمكن من فطوم.

استمرت الحياة المميزة هنا، بجمال طبيعتها، غابات البردي الذي يغذّي مساكن هؤلاء القوم ويغذي تجارتهم في عمل الخريط وبيعه، وغابات القصب التي ترتفع شامخة بعقدها الجميلة والتي تشاطر البردي في تغذية هذه المساكن أيضًا، وبمجاميع الطيور المتنوعة، بأصواتها وألوانها التي جاءت من مختلف بقاع العالم، وكثافة السمك من صغيره الذي يسبح زرافات ومن كبيره الذي يصعب أن يحمل شخص واحد منها واحدة، والمياه الوفيرة التي تبرز منها جزر صغيرة هنا وهناك موطنًا لهؤلاء القوم الذين يتنقلون من جزيرة إلى أخرى عن طريق المشاحيف التي صنعوها بأياديهم.. فما أجمل أن تستيقظ فجرًا فتشاهد المشاحيف تجوب الطرق المائية محملة بالحليب ومنتجاته وما صِيد من سمك أو طير. متجهة إلى مناطق تجمّعها حيث ينقل ما فيها إلى المدينة.. استمرت هذه

العادات المميزة، بعادات أهلها الحلوة والمرة والغريبة؛ الحلوة في أساليب الصيد والحلب وتجميع طحين زهرة البردي، والمرّة في التنازع والقتال على أتفه الأمور، والغريبة في خوض رجالهم المياه دون ملابس داخلية ساترة، وتجميع فتياتهم طحين زهرة البردي عاريات، وتعاطي نسائهم الجنس في المدينة عند المتاجرة بالحليب ومنتجاته الأمر المقبول عندهم، واختصاص الرجل في أعمال الحلب والصيد والحراسة والدفاع*

في أحد الأيام كان المعلم متكئًا بظهره على (شاخص) جدار مسكنه القصبي تحت أشعة الشمس التي مالت فالوقت عصرًا.. يشمّ (العذيبي) تلك النسمات الندية المنعشة، يُقلّب صفحات كتاب، جاءه الصبي وجلس قبالته وبعد فترة ملّ الصبي، فسأله.

- هل هذا الكتاب جديد؟

- نعم، إن محتواه يدور حول مناطق الأهوار الواسعة.

- هل أستطيع أن أقرأه بعدك؟

- نعم، بعد أن أقرأه وأتبين أنه ينفعك... ففيه شرح عن حياة أهل الأهوار الآن وفي قديم الزمان أيضًا.

صمت الصبي فترة وكأنه يريد تذكر شيئًا ثم قال:

- تذكرتُ.. تذكرت.. قول أبي لي عن قديم الزمان؛.. قال لي أبي عن جدي، في قديم الزمان حيث لم تكن هذه المدن قائمة حتى البحر، كانت تبحر من هنا أضخم السفن المصنوعة من البردي والقصب وتذهب إلى آخر العالم.. بدأ المعلم يقرأ في الكتاب، كان

أسلوبُ الكتاب سلسًا وواضحًا استطاع أن ينهي منه جزءًا كبيرًا إلا أنه توقف عند تحليل المؤلف لبعض العادات التي يعرفها هو معرفة جيدة فاستغرب من استنتاجه في أن هذه العادات ليست عربية وأن هؤلاء القوم ليسوا عربًا بل مستعربين.. أغلق الكتاب وأخذ يفكر.. نعم، لقد شككتُ في أمر بعض عاداتهم إنها لم تكن من صُلب عربي، وإلا ما كتب شكسبير عن غيرة العرب في (اتيلو).

لم يترك المعلم جمال طبيعة الهور فقد واصل وظيفته سنوات وهو متحفظ من بعض العادات التي يرى فيها خطورة عليه والتي لا يسمح لنفسه الاقتراب منها، ومتعاملاً مع بعض العادات التي يكن فيها هؤلاء القوم له الاحترام.. وفي هذه السنوات أدرك فيها الصبي دور الشباب واستكملت فطوم أنوثتها واستزاد المعلم معرفة بعادات أهل الهور واندمج في حلاوة حياتهم وانفصل عن مرّها وأحبّ تعاملهم الفطري مع الحياة هذه.. حتى تبدّلت زغردة البلابل والعصافير وأصوات الطيور وأصوات لبطات الأسماك ونداءات الجاموس لمربيها، بأصوات المدافع والقذائف.. وتحولت ألوان الفراشات وألوان الزهور وزرقة الماء وخضارها إلى ألوان النيران ودخانها تحرق غابات البردي والقصب.. لكن هؤلاء القوم صبروا فلا أفضل لهم من هذه الجزر التي نبتوا منها.. والمعلم أيضًا صبر وفي أعتقاده أن لكل حريق نهاية وما هي إلا مناوشات بين دول مجاورة.. إلا أن أفكاره لم تصب الحقيقة فقد اكتسحهم جيش الدولة المجاورة ثم أصبحوا أكثر عرضة لشراسة وكثافة قذائف مدافع جيش بلدهم التي يريد إخراج الجيش المكتسح منها.. احترقت

غابات البردي والقصب وماتت الماشية ومات الكثير من البشر ومنهم فطوم وأمها بتاثير إحدى القذائف الليلية.. حزن المعلم وكان الشاب أكثر حزنًا فقد امتنع عن الأكل أيامًا عدة واستمر على النوم القلِق والأحلام المزعجة والشرود الذهني الذي أصبح لا يفارقه فلا ألدّ له من الذكريات ولا ألدّ من مصادقة الناي الذي يغذّي آلامه ويديمها فهو لا يريد أن تفارقه فطوم بنسيانها وشعر ألا أمل له في الحياة بعد فطوم.. وبعد ذلك احتل بلدهم جيش التحالف الدولي.. فقرر المعلم والشاب الهروب مع أفواجٍ الناس الهاربة.. ساير المعلم والشاب مسيرة جيش التحالف الذي أخذ بالانسحاب بعد أن حقق أهدافه الاستراتيجية، مرة مشيًا على الأقدام ومرة بمساعدة إحدى السيارات الحربية والتي سبقهم إليها غيرهم من الناس في ركوبها إلى حيث لا يعلمون معتمدين على الأمل الذى أعطته للجميع ابتسامة الضابط الأجنبي الذي ينقلهم.. استمرت السيارات الحربية ساعات طوال إلى جهة لا يعلمها أحد من الهاربين، والحزن العميق في نفس كل منهم، إلا أن الحزن مهما كان عميقًا يكون هشًّا أمام نكتة عفوية أو منظر صغير مضحك، فكان الركاب مرة في حالة ألمٍ وحزن ومرة في حالة نكتة وضحكة فالطريق طويل لا ينتهي، بعد تعب وعناء أخرج الشاب نايًا من مجموعة ناياته التي حملها معه وأخذ ينفخ فيه ألحانًا حزينة مؤلمة.. صمت الجميع وكأن على رأس كل منهم طيرٌ بما فيهم جنود الاحتلال الذين تصدّروا ركوب السيارة.. أطلَّ الضابط رأسه الذي كان يجلس جوار سائقه ونظر من خلال فتحة فاصلة بينهم فشاهد العيون تدمع والحزن قد سيطر

عليهم، فسأل الشاب عن اسم آلته وأراد بسؤاله أن يغيِّرَ غمّ الموقف ثم قال له الضابط سوف تسنح لي الفرصة لمعرفة الكثير عن هذه الآلة الجميلة، بعد ذلك طلب المعلم من الشاب أن ينفخ لحن فيروز الذي أتقنه. أعطني الناي وغني.. نفخ الشاب وصمت الجميع فكان لحنًا مميزًا، استمر عليه حتى سأله الضابط بلغته الفرنسية ثم بدّلها باللغة الإنكليزية.

- أنا.. وهنا أشّر على نفسه.. أنا أعرف لمن هذا اللحن، إنها فيروز.. لبنان.. ok.. وهو يبتسم. أجابه. المعلم.. ok ..ok... همس الشاب بأذن معلمه.. كيف عرف هذا الضابط؟ أجابه:

- إن ثقافتهم واسعة خاصة في الموسيقى والغناء.. سأل المعلم الضابط الفرنسي.

- وهل تعرف أم كلثوم؟ أجابه.

- نعم، نعم، حتى رئيسنا السابق ديغول يعرفها.

سارت السيارة طويلاً ثم توقفت فجأة على بُعدٍ كافٍ من تجمع نسائي: صراخ وعويل وأصوات غريبة ثم حركات مختلفة بين الانتصاب والانثناء والانحناء ونهود مدلات وشعر البعض مقصوص.. فصاح الضابط على المعلم والشاب أن ينزلا... نزلا ووقفا جانب الضابط خارج السيارة والضابط ينظر إلى منظر النساء. فسأل المعلم.

- ما هذا؟ أجابه المعلم.

- إنهن يبكن ويعولن على ميتهن.

- لكن الصراخات مختلفة، مرة يصرخن سوية ومرة تصرخ واحدة منهن؟

- الواحدة هذه شاعرتهن.

- ولكن لماذا بعض النهود ظاهرة؟ والشعر مقطوع؟

- لا بد أن الميت زوج واخ.. أخذ ينظر الضابط من ذلك البعد كأنه يدرس وضعًا غريبًا. قال الضابط.

- إن حركاتهن متنوعة؛ وقوف، جلوس، استدارة، انثناء، إنه رقص جميل، سأسميه رقصة الميت عندما أصفها إلى زوجتي.. ثم أخرج دفترًا صغيرًا وسجل فيه: اسم كل منهما والعنوان والميلاد والمسكن والوظيفة ثم مسك الضابط بالناي وأخذ الشاب يشرح له صنعه ثم حاول الضابط تجربته.. بعدها قال للشاب.

- إذا سكنت دولة أوربية وأخذت تعزف عليه ستربح مالاً كثيرًا.. قال الشاب للمعلم

- أستغرب من أمر هذا الضابط، نحن في همٍّ وغم وهو يستفسر عن الناي ويحاول النفخ فيه، ويتمعن في حركات لطم النساء ويفسرها على أنها رقصة..

سكنا مع الآخرين خيما في صحراء أشهر، يصلهم الماء والطعام وبعض الخدمات الأخرى.. كان غالبية الرجال والنساء قد توجهوا إلى الصلاة نتيجة هذه المعاناة عسى أن تزول عنهم هذه الغمامة.. كانت الصلاة تقام خارج الخيام، كلٌّ يأتي ببساطه، يفرشه على الرمل ويصلي.. كان أحد الرجال قد انحنى على الأرض وفرش

بساطه فوقعت منه محفظة نقوده التي لا يملك غيرها والتي لم ينتبه إلى سقوطها وكان رجلاً عجوزًا قد أنهى صلاته توًّا بجواره، فشاهد شابًّا بيده بساطٌ أيضًا قد رفس المحفظة بمقدمة نعاله إلى الجهة التي يريد الصلاة فيها، فنظر إليه العجوز وقال له:

- أرجعها إلى صاحبها واستغفر الله.. أخذ الشاب بساطه إلى مكان أبعد وهو يضرب الرمل بمقدمة نعاله وينثره ويتكلم مع نفسه.. أيها العجوز القذر، أفقدتني وأطفالي مالاً أنا بحاجة إليه، ألا تعلم أن الله غفور رحيم ويرزق من يشاء..

بعد أشهر نوديَ على المعلم والشاب قبل غيرهما وتبلغا بتحضير مستلزمات سفرهما غدًا.. وصلا دولة اللجوء، سكنا مجمعًا للاجئين في غرفة واحدة وبعد أيام قضوها مع مختلف الجنسيات.. نادى بوليس المجمع عليهما للتأكد من شخصيتيهما فسأل المعلم عن اسمه وولادته وسكنه ومعتقده وهكذا مع الشاب، ثم استفسر المعلم من البوليس حول السماح لهما النزول إلى سنتر المدينة لمعرفة بعض الأمور وهل بالإمكان العزف هناك للحصول على مورد رزقهما.. نظر رجال البوليس إلى بعضهم ثم قال أحدهم للمعلم.

- الآن أنت تعيش على المساعدة في المأكل والمشرب والمسكن وفي بعض الأمور الصحية فلا تحتاج إلى النقود.. أجابه المعلم:

- لا، أبدًا، نحن لا نحتاج إلى المساعدات، عندنا آلة الناي نكسب منها رزقنا كما قال لنا أحد ضباطكم الذي ساعدنا هناك.. تكلم

رجال البوليس مع بعضهم بلغتهم وقالوا لا بد أنهما ساذجان.. ثم قال أحدهما للمعلم:

- بإمكانكما أن تذهبا على أن تعودا قبل الوجبة الحارة. أجابه الشاب:

- شكرًا، ربما نشتريها من هناك.. ثم طلب أحد رجال البوليس تسميعهم أحد الألحان.

من الصباح الباكر وكعادتهما أيام زمان في الاستيقاظ، نهضا من فراشيهما بعد أن رتّباهما وخرجا مشيًا على الأقدام حيث اتجاه السنتر حسب علامات الطريق.. وصلاه ولم يجدا غير أفراد معدودين في حركة ولم يجدا محلاً واحدًا فاتحًا أبوابه.. فتعجبا للأمر وشكّا أنه يوم عطلة ولم يعرفا إلى أين يتجها إلا أنهما شاطرا بعض الناس مشيهم وتعرفا كيفية عبور الشارع، ثم بمرور الوقت اشتدّت حركة الناس وحركة مختلف أنواع السيارات حتى أصبح من الصعب عليهما شق طريقهما، وبدأت الحركة التجارية بفتح المحلات أبوابها بنفس الوقت، الذي أثار استغرابهما.. عبرا جهة بارك كبير فوجدا ناسًا يجلسون تحت أشعة الشمس هنا على مسطبة، وهناك على الحشيش أو على حافة نافورة ماء ولم يجدا شخصًا واحدًا يعزف على آلة كما فهما سابقًا من الضابط.. اختارا موضعًا تمر عليه الناس في الذهاب والإياب وأخذا بالعزف، بعد دقائق وقف أمامهما شاب وبيده ألواح وأوراق، استمع إلى اللحن كثيرًا ثم تكلم معهما وعرف أنهما من بلده.. رحب بهما وأعطاهما

بعض النصائح حول أماكن العزف التي يسمح بها، ثم سارا معه إلى جهة يكتضّ فيها الرسامون، فاستبشرا خيرًا وارتاحا نفسًا، أشار عليهما بذلك المكان القريب منه وقال لهما.

- إذا أجدتما عزف ألحان فيروز ستحصلان على بعض النقود. أجابه الشاب بسرعة ولهفة.

- نعم، نعم، كما قال لنا الضابط الفرنسي.. ثم أدار وجهه إلى معلمه واستمر بالكلام.. سنشتري دارًا وسيارة.. وهنا ضحك الشاب الذي أخذ يفتح أوراقه وألواحه الخشبية للبدء بالعمل، من قول الشاب، قال له وهو مستمر بالضحك.

- أنت قادم جديد.. العزف هنا لمتعة النفس.. لكن الشاب لم يفهم كلامه.. قبل الموعد المحدد لعودتهما، جمعا القطع النقدية وتوجها إلى ذلك الشاب ولكن لم يجداه في مكانه وعادا من حيث أتيا.

وصلا المجمع قبل ساعة من توزيع الوجبة الحارة فعرجا على البوليس ووضعا صرّة القطع النقدية أمامهم وهما في فرحٍ وحبور. نظر رجال البوليس إليهما وابتسموا عندما شاهدوا القطع النقدية وقالوا لهما هذه نصيبكما وقّراها لكما.. قال الشاب

- هل نستطيع أن نشتري بها وجبات طعامنا؟ وهنا ضحك رجال البوليس وتأكدت لهم سذاجتهما فقال أحدهم

- هنا أمور يجب أن تعرفاها، المأكل والمشرب والمسكن والصحة تحتاج إلى مبالغ كبيرة وهذه النقود القليلة لا تساعدكما حتى على تناول سندويجتين. أجابه المعلم:

- سنستمر على السكن عندكم ونأخذ منكم الوجبة الحارة، أما صحتنا فعال العال لا نحتاج إلى مساعدات طبية، وبالاختصار نحن لا نريد أن نكون عالة على هذا البلد. أجابه البوليس.

- لا تتعجّل الأمور سيكون كل شيء واضحًا عندك وستصبح ابن هذا البلد وتعرف القوانين والأنظمه وسيكون لك مسكن ومدرسة في المستقبل القريب، أما الآن فتمتع بالعزف واستمر على تطبيق النظام هنا.. من هذا التصرف أخذ البولس يناديهما بالساذجين!

وقفا مع طابور استلام الوجبة الحارة وكانت هذه المرة تحوي حبة تفاحة لكل شخص.. كان كل شخص ماسكًا بصينيته، يمر على موزع الرز، يأخذ منه حصته ثم موزع اللحم يأخذ منه حصته وفي نهاية التوزيع يأخذ كل واحد بنفسه تفاحة واحدة ويذهب إلى مكانٍ داخل القاعة ليأكل.. كان رجلاً ضخمَ الرأس، عريض الظهر، واسع الصدر، واسع الكفين، يقف أمام الشاب، استطاع أن يضع كفه على تفاحتين ويحملهما معًا، شاهده الشاب واعتقد أنه لا يعرف كم نصيبه، فقال له.

- يا رجل، يا رجل، أخذت تفاحتين ولكن نصيبك واحدة.. توقف الموزعون وتوقعوا إعادة التفاحة الأخرى إلا أن الرجل لم يفعل، فأخذ يسب ويشتم ثم رفس الشاب وقال.

- لا تدافع عن هؤلاء الكفرة آكلي الخنازير، هذه من أموال نفطنا، ويُقتّرون علينا الطعام بقطارة، لا تكن خنزيرًا مثلهم.. تقرب أحد رجال البوليس وأمر الرجل بإعادة التفاحة.. أثناء إعادته التفاحة

توعد الشاب شرًا.. من هذه الحادثة حاولا ألا يختلطا بالآخرين إلا عند الضرورة.. أخذا ينهيان لياليهما بقراءة دليل المدينة، أرقام خطوط السير، أرقام الباصات وأوقاتها، أسماء المناطق التي يحتاجانها، أسماء القطع النقدية والورقية، أسماء الأماكن المشهورة في مركز المدينة، بعض جمل التحية والتعارف.. في ليلة الحادثة دخل عليهما رجل البوليس الذي كان عند توزيع الوجبة الحارة، شاهدهما قد افترشا كتبًا وخرائطَ وأوراقًا والقطع النقدية موزعة حسب أرقامها.. ابتسم لهما وجاملهما ثم شاركهما في معرفة المعلومات ولما نظر إلى القطع النقدية أشار عليها وقال:

- أخفيا النقود في مكانٍ أمين.

في فجر يوم معتم، تقلب المعلم على فراشه يمنة ويسرى ثم نظر من خلف النافذة فلم يستطع تمييز سبب العتمة، هل هي من الغيوم أم لا زال الوقت ليلاً، وبينما هو يلحّف نفسه جيدًا نظر إلى فراش الشاب فلم يميزه ثم ركز نظره عليه فلم يشاهده ولا بطانيته، شكّ في الأمر لأنه لا يحتاج إلى بطانيته إنْ هو أراد الخروج إلى دورة المياه فحرارة المكان كافية.. أنتظر عودته لكنه لم يعد، خرج إلى دورة المياه والقاعة المشتركة فلم يجده. تلحف ببطانيته وخرج يبحث عنه. استطاع أن يميز الأشجار، كانت كأشباح منتصبة، اتجه صوب البحيرة التي تحاذي جنوب المجمع، ولما اقترب منها سمع صوت ناي هادئ وحزين، وصل إليه وجلس قرب الشاب ولكن الشاب لم يعره اهتمام وواصل العزف حتى اجهش بالبكاء.. ضمّه المعلم إلى صدره وأخذ يبكي معه ثم قال الشاب بعد أن شفى غليله.

- هذه البحيرة تذكرني بفطوم.. أجابه المعلم والدمع في عينيه.

- نعم، إنها تشبه أهوارنا.. أخذت دجاجات الماء التي يصعب تمييزها بسبب سواد لونها الذي اختلط بالعتمة، أخذت بالصياح وبالغوص ثم بدأت طيور المسكة والخضيري منادات بعضها بعضًا.. توقف نحيب الشاب وتوقفت دموع معلمه. سأله معلمه.

- منذ متى وأنت تأتي إلى هنا فجرًا؟ أجابه.

- منذ أيامٍ عديدة، أرجو أن تعذرني فهذا أول شيء أخفيه عنك لأني لا ألتذّ لذكرى فطوم إلا بالعزف لها وحدي.. أجد هذه الدنيا ليست لنا يا معلمي؟ الآن نحن في منطقة فيها طبيعة هورنا فلم نحس بغربة الطبيعة، لكن كيف الأمر إذا ما انتقلنا إلى المدينة الصاخبة المزعجة، أحسُّ عندما أذهب إليها للعزف أني كالكلب السائب الذي لا يعرف أين يذهب من بين أرجل البشر.. هذه ليست حياتنا، أجابه المعلم.

- هوّن على نفسك سنتكيف شيئًا فشيئًا وننسى ماضينا المؤلم. أجابه.

- لا أبدًا لا أنس ماضي ما زال الأثر معي، قال ذلك وهو يهزّ بالناي.

استمرت عادة الذهاب إلى البحيرة كل فجر.. في إحدى المرات عندما كانا عائدين إلى غرفتهما وجدا الباب مفتوحًا، دخلا فوجدا الكتب والأوراق والخرائط ممزقة وناي مهشم قطعًا صغيرة ولم يعثرا على الراديو الصغير ولا نقودهما.. عندما جاء البوليس،

شاهد الكتب والأوراق والخرائط ممزقة ومرمية على الأرض وشاهد الناي مهشمًا إلى قطع صغيرة، بعد فترة من التفحص قال.

- هذا العمل يدل على أنه انتقام أو إثارة، وإلا لأخذ السارق النقود والراديو فقط دون أن يقوم بتمزيق الكتب والأوراق والخرائط. ثم إن هذا الناي مهشم باليد وليس بالقدم فلا أثر على الأرض يشير إلى استعمال القدم. ثم هذه اليد لا بد أن تكون ضخمة وقوية لأن الناي مخشلاً، والحاقد يُنفّس هنا بيديه.. قال الشاب.

- صدقت، إنه هو، هو الذي يلاحقني بنظراته ووعيده.. ولكن متى تعاد إلينا مسروقاتنا؟ أجابه البوليس.

- لا يمكن التعرض لأحد إلا وهو يرتكب السرقة.. أجابه الشاب:

- حتى ولو تعرفوه؟

- نعم، فلا تستغرب أن تجد السارق يعيش يومه بحرية..

- ولكن نقودنا التي تعبنا بتجميعها؟ أجابه البوليس وهو يضحك

- لا تهتم أنك لا تستطيع أن تشتري بها عجلة سيارة أو باب دار كما تحلم. قال الشاب لمعلمه.

- هل كان ذلك الضابط يستهزأ بنا؟ ربتَ البوليس بيده على كتف الشاب وقال:

- أنتما ساذجان وطيبان ولا تهتمان فاقامتكما هنا أوشكت على الانتهاء.

عند كل فجر يعزف الشاب في نفس المكان على البحيرة، ألحانه الحزينة ثم يتبعه معلمه.. يقضيان وقتًا فيه الحلاوة مدافة بالآلام والحزن.. وفي آخر مرة قال الشاب لمعلمه:

- كلما أعزف وقبل أن تلتحق بيّ، أسمع فطوم تناديني، ولما أريد أن ألبي لها النداء أجدك قد جلست بجانبي. قال معلمه:

- هذا الحنين موجود عند كل إنسان فقد عزيزًا عليه.

- ولكني أرى صورتها في الماء تحاكيني.

- هذا أمر طبيعي، وهل ينسَ إنسانٌ إنسانًا عزيزًا عليه؟ حتى أنا لم أنس حتى ابتسامتها، اتركنا نعيش واقعنا.

- لا توهمني، لا توهمني..

في فجرٍ كان المعلم في نوم عميق فقد أنهى ليلة سوداء قلقة.. كوابيس وأحلام مزعجة؛ إن إحدى يديه قد قطعتها سمكة كبيرة، وأخذ هذا الإزعاج يتكرر عليه مرارًا.. فات عليه حتى موعد الإفطار، ثم نهض مثقلاً بالهموم وكأن شيئًا قد فُقد منه، ودوار رأسه لم يبارحه.. ألقى نظرة إلى فراش الشاب فعرف من عدم وجود بطانيته أنه لم يعد بعد.. اغتسل وارتدى ملابسه وذهب إلى جهة ذلك المكان من البحيرة.. لم يجد الشاب.. لكنه وجد بطانيته في مكانها مسكها ورفعها فوجد تحتها حذاء الشاب، فخاف خوفًا شديدًا وارتجف، وأخذ يكرر.. أرجو ألا يتحقق الحلم.. لا، لا، أرجو ألا يتحقق الحلم.. أخذ ينظر يمنة ويسرى ولكنه لم يعثر له على أثر، إلا أنه شاهد مجموعة دجاجات سوداء يسبحن في وسط البحيرة

يتوسطهن ناي عائم.. فصرخ صرخة قوية أسمعت من في المجمع.. فطوم قطعت يدي.. فطوم قطعت يدي.

أخذتني بائعة حليب (كبيرة السن دميمة) إلى الهور، نمتُ ليلتها، اصطحبتني فجرًا مع ابنتها بالمشحوف، مرت مشاحيف في الجهة الأخرى؛ فتيات عاريات، يخرطن منتصبات، أنزلتني مكانًا، انتظرت طويلاً.. أعادتني إلى أمي مع كيس خريط ودجاج ماء..

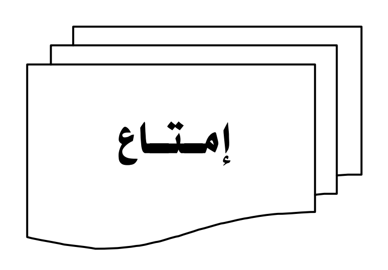
سألتُ أحدهم في عمر الأربعين، يسكن مدينة لجوئي، عن هذه العادة، أجابني، توقفت قبل جيلي.

** كنتُ مراهقًا، أدخلتها غرفتي، خرجتْ، نقَّدتْ أخوها الصبي أقل مما استلمت، تركته يحرس أطباق قيمرها.

*** كدَمَ زوجها عينها، قالت لي؛ البارحة، كان موردي قليلاً.. هذه من عادات أهل الهور المتكسبون في المدينة التي عشتها.

زفولا - هولندا

٢٠٠١م



يتناقشون حول معزوفة كلاسيكية، أكبرهم يتكلم بأنفه، اصفرّت سبابته ووسطى أصابعه من كف اليمين، أوقف تدخينه، التزامًا بالمتعارف عليه.. قابله شاب وسيم بجانبه آلة كمانه.. مرت دقائق على النقاش، اشتركت ابنة المضيف وقالت معتزّة:

- يستمع أبي إلى الموسيقى الكلاسيكية باستمرار.. سمعها أبوها وهو يرتب الملاعق والاشواك والسكاكين على مائدة الطعام. خاف أن يطلبوا منه مشاركته احترامًا، أو سؤاله، فابنته ذهبت بعيدًا. سأله أكبرهم بأنفه كي يتأكد مما قالت:

- هل تعرف صاحب هذه المعزوفة؟ احترجَ.. لم يسبق أن سمعها، حتى إنه لم يعرف أسماء المعزوفات الكلاسيكية وملحنيها، كل ما يعرفه، اسم بتهوفن ومعزوفته القدر التي تؤثر في نفسه عند سماعها وكذلك جايكوفسكي في الجمال النائم وبحيرة البجع مع رقصة الباليه. ثم رمسكي كورساكوف في شهرزاد أو السندباد البحري. تعرّفَ على هذه المعزوفات عن طريق محاضرة مع العزف بواسطة جهاز الكرامافون، ألقاها مدرس اسمه سعدي

يوسف، على المعلمين بقصد التثقيف، في بهو البلدية في البصرة والتي أصبحت نقابة المعلمين بتأثير ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، انشدَّ إلى هذه الموسيقى بعد أن فهم معناها. ثم عرف اسم باخ وموزارت وبعض معزوفاتهما دون معرفة أسمائها أو معانيها، مجرد هيام.. أجابه مترددًا.

- لم يسبق أن استمعت إلى هذا اللحن.. ردّ بأنفه، وهو يقصد الإيقاع به؛ لأنه على بيّنة بادعاء معظم الأجانب المعرفة فقد عمل معهم كثيرًا.

- ولكن من اللحن المميز؟ هزّ الأب رأسه واستمر بترتيب المائدة.. نهضت الابنة إلى المطبخ كي لا تقع في خطأ آخر.. تبعها الأب قائلاً.

- لا تسألي هكذا.

- أعرفك تستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية منذ أمد، وأردتكَ مشاركتهم.

- إني أستمع فقط لأمتع نفسي، ولستُ عازفًا أو دارسًا أو هاوٍ.. سأل ابنه الذي يشارك أمه في المطبخ:

- هل اشتريت الواين؟

- اشتريت واين أحمر وواين أصفر. طلب من ابنته أن تسأل عن النوع الذي يفضلوه مع وجبة الطعام، (أكد لها مع وجبة الطعام لأن من عاداته السابقة الشرب قبل الأكل حتى السكر مع أصدقائه ومعارفه).. أخذت القنينتين.

- ماذا تفضلون مع الطعام؟ أجابها بأنفه.

- وأين أبيض.. صمتت، ثم تجرأت بالسؤال الذي لا يوافق ثقافتها التي تحتم عليهم شراء أنواع المشروبات للضيوف حتى وإن لم يشربوا بعضها، كرم ضيافة أو تقدير أو تباهي. قالت:

- أحمر وأصفر فقط؟ ضحك بأنفه والآخران يستمعان فقط. أشّر. هذا.. ترددت ثم قالت:

- ولكنه واين أصفر.. أجابها بأنفه.

- نسميه أبيض بالنسبة للعنب الأبيض المتخمر منه.. وضعته وسط المائدة وراحت تنقل المعلومة.. صُفت عدة طبخات على المائدة.. نادى الأب.

- (استوبليفت).. وقف ثلاثتهم دون أن يجلسوا يتناقشون حول أنواع الطعام وكمياتها الكثيرة.. سأل بأنفه.

- هل اشتريتم هذه الأطعمة من المطعم المغربي أم المطعم التركي؟ أجابته الأم معتزّة واشتركت معها ابنتها تؤيدها.

- أنا طبخت كل هذه الأنواع.. تراطن بأنفه مع الآخرين فالكلام يصبح غير واضح، ثم سأل:

- كيف وحدك؟ أكد الأب وهو يبتسم وكذلك الابن.. ذكرت لهم مع ابنتها أسماء الأكلات التي لم يستطع أي واحد منهم حفظ اسم منها، عدا السمكة المشوية التي توسطت المائدة.. سألها بأنفه وشاركه الآخران لكن ثناء عليها.

- كيف شويتيها؟ شرحت لهم.. هز رأسه وقال بصورة واضحة:

- مهارة امرأة شرقية.. بادر بفتح قنينة الواين الأبيض بعد أن استأذن تطبيقًا لثقافته بالرغم من سخريته أحيانًا.. ملأ الأقداح.. بادرت الأم بالشرب.. همس ابنُها.

- ماما، نشرب سوية.. أجابته مستدركة.

- مجرد أذوقه.. صاح بأنفه.

- بروست.. رد الجميع.. بروست.. علق الأب وهويكرع، بروست تيتو، لم يفهمه الآخرون ولكنه فهمه وضحك بأنفه فهو يتذكر أحداث تيتو ونهرو.. كل ملأ ماعونه من بعض الأنواع ثم العودة إلى الأنواع الأخرى. اكتفى الشاب الوسيم بقطعة سمك وملعقتين من الرز الملون.

سار مع ابنه في مركز المدينة بين المحلات، كانت شمس الصيف ساطعة تكثر الفعاليات الترفيهية ومنها العزف على الآلات الموسيقية، قال لابنه:

- لنستمع إلى عزف هذا الطفل.. وقفا.. استمعا.. كان كمانه يغطي كتفيه. وضع له الأب قطعة نقود في القبعة على الأرض، ثم قال لابنه.

- طريقة متحضرة في التسول. أجابه:

- إنها هواية، ولا مانع من مساعدته بقطعة نقدية صغيرة لشراء ما يحتاجه لهذه الهواية.

فتح لابنه خارطة الطريق السريع الذي يقود السيارة وزوجته وابنته في الخلف تلوكان العلكة، وقد فاح عطر ديوراسيمو الذي

تعشقه زوجته منذ سنين.. دخل منطقة بعيدة عن الدور، أشبه بالمظلمة.. قال لأبيه.

- تلك البناية.. شك الأب.

- كيف، إنها بناية قديمة مظلمة وكأنها من مخلفات الحرب العالمية، ثم لا أرى أحدًا. تأكدْ منها؟

- متأكد، إنها القاعة نفسها.. توقفت السيارة أمام الواجهة شبه المظلمة.. دقائق تبعتها سيارات أخرى مما يؤكد على أنها البناية المقصودة، بناء من طابوق قديم متآكل، باب قديمة كأنها من أبواب القرون الوسطى بخشبها وزخرفتها وحجمها. استاء الأب، استاءت الأم. قال الابن الذي عرف بعض ثقافة هذا المجتمع، أثناء دراسته واختلاطه.

- اصبر يا بابا، سترى ما لم تتوقعه، وكما جاء بالمعلومات المذكورة، اشترى أحدهم هذه البناية القديمة وحولها إلى قاعة احتفالات ومطعم.. دخلوا حاملين الهدايا، انبهر الأب، البناء بالآجر، يرتفع السقف أمتارًا، تزخرف كل حائط أعمدة من نفس الآجر ترتفع متر ثم ينشطر كل عمود إلى قوسين يرتفعان إلى السقف ثم يلتقي كل قوس بالعمود الآخر، نوّرت الأقواس حتى نهايتها أضاءات ملونة أعطت ساحرية. في الجانب الأيمن من القاعة اعتلت منصة بارتفاع مسطرة عن الأرض تبعثرت عليها الآلات الموسيقية، جاورتها فسحة مفروشة بالبسط تحيط بقنفتين كبيرتين دون مساند ظهر أمامها فسحة كبيرة للرقص، ثم مناضد الجلوس التي زينتها أزهار وشموع مضاءة. على يسار القاعة،

امتدت أنواع الأطعمة التي تحافظ على حرارتها نارٌ ضئيلة أضفت جمالية أكثر، صفت أعمدة من المواعين مختلفة الحجوم وأنواع الشوكات والسكاكين والملاعق مختلفة الأشكال.. ساد القاعة هدوء تام عندما بدأت عريف الحفلة، بزيها الجميل، الترحيب بالحضور والتعريف بالعروسين وقراءة مفردات الحفلة والتعريف بهذه المفردات؛ موسيقى ورقص، أغنية، رقص (بطن) شرقي، تمثيلية، رقصة لم يفهم الابن اسمها، ابتسمت أخته وقالت:

- رقصتنا (الهيوة) لأن العريس من مدينتا وأحد أصدقائه سيقوم برقصها.. ازداد الأب انشراحًا، فرحت الأم لهذه الوصلة التي تذكرها بالأيام الغابرة الجميلة.. بدأت الحفلة حسب البرنامج.. جاء دور أغنية قصيرة، جاء دور الرقص الشرقي، انسجمت معها بعض الأجنبيات، شاركن الراقصة في رقصهن المضحك لأنه صعب بالنسبة لهن، أرادت إحداهن هز عجزها لكنها لم تستطع.. اشتركت الأم بهلهولة (زغرودة) طويلة جرّت انتباه النساء خاصة.. التفَّت بعض المدعوات حولها أردن تقليدها، فشلن بالتقليد ولكنهن لم يفشلن في الضحك والمداعبة.. بدأت التمثيلية، الابن والابنة يشرحان التمثيلية.. على جانب وقف العريس العربي والعروس الهولندية، وعلى الجانب الآخر وقف أبو العروس وأمها، وعلى جهة أخرى شاب بزيه العربي، دشداشة وغترة وعقال، وبيده حبل عربة فيها أغنام.. تحرك العريس إلى أبيها يطلب يدها (حسب الطريقة العربية)، لم يوافق الأب.. صاح مَن في القاعة.

- وافق، وافق.. صاحت العروس.

- أريده يا بابا.. سأل أبوها العريس بحدّة:

- كيف عرفتها؟ ضحكٌ عالٍ من المدعوين.. تردد العريس في إجابته خوفًا منه على العروس.. صاحت العروس.

- في القطار.. ضحك عالي.. وافق الأب بمهر.. رد العربس.

- موافق، ما المهر؟

- عشرة أغنام.. ضجت القاعة بالضحك.. تعصب الأب أمام ابنه شاركته زوجته.

- هل يحتقروننا؟ يطلب يدها من الأب، مهر عشرة أغنام، هل نحن مسخرة؟ رد عليه ابنه وشاركته أخته.

- لا يا بابا، لا يذهب تفكيرك بهذا الاتجاه، إنها تمثيلية تثير الاهتمام بعاداتنا التي يعرفونها، فلا سرية أمام الإنترنت والأفلام.. شاركت الابنة التي فهمت هي أيضًا الكثير عن هؤلاء وطرق تفكيرهم:

بابا، تفكيرهم يختلف عن تفكيرنا، يعملون أي شيء من أجل إمتاع الآخرين.. ارتاح الأب لهذا التحليل، فقد شاهد فرح الناس وسمع ضحكهم الخارج من القلوب.. بعد أن وافق العريس على المهر، جر أخوه بلباسه العربي عربته التي فيها خراف من لعب بصوفها الأبيض، دار فيها مع الضحك، ثم أعطاها لأب العروس.. أخذها شاكرًا.. تعانقا وتحاضنا.. ركضت العروس وتعلقت على ظهر العريس، أخذ يدور بهامع تصفيق وتمنيات المدعون الحلوة. وهنا زغردت الأم بهلهولة فقابلتها مجاورتها تمثلها بوضع يدها على فمها لكن ضحكها غلبها.. موسيقى من جديد، رقص من جديد.. أعلنت العريف تناول الطعام.. نهض بعضهم، اصطف الواحد بعد

الآخر بين ابتسامة ونكته وتعليق.. تذهب وجبة وتأتي بعدها وجبة بصورة عفوية لكنها منتظمة. جاء دورالعائلة، وقفت الأم أولاً احترامًا كما هم يحترمون، وراءها ابنتها ثم الابن وبعده الأب، وخلفه شاب يهمس له، تصور الأب أنها من المجاملات لقتل الانتظار. جاء دور الأب، ملأ ماعونه بالطعام الذي فضّله.. عاد تابعا عائلته، أوقفه الشاب وقال له:

- يظهر أنك نسيتني.. تفرس الأب بوجهه وقال:

- أنت على حق.. رد الشاب:

- لقد تعارفنا قبل سنوات.

- أين؟

- في بيتك، لا زال طعم السمك المشوي في فمي.. هنا تذكره وأكّد.

- نعم، هذا أنت، لا زلت وسيمًا.

شكره مبتسمًا وتركه إلى حيث أصدقاؤه الجالسون على أفرشة الأرض قرب أجهزة الموسيقى.. انتهت فترة تناول الطعام إلا أن شرب المشروبات استمر حتى نهاية الحفلة.. صدحت موسيقى هادئة، ثم صفرَ قطار بصورة متواصلة، قطار بعدة عربات بلون الشكولاته. سألت الأم ابنتها.

- والآن ما هذا؟

- إنه القطار الذي التقيا فيه أول مرة.

- ولكن ألوانه غريبة؟ ضحكت ابنتها، ضحك ابنها، وضّحت.

- إنه كعكة الزواج على شكل قطار، عملها أبوها فهو صاحب معمل معجنات.. مرَوقت ممتع ومفرح ومسلي.. أعلنت عريف الحفل، رقصة (الهاوا) بلفظ مقارب لأسمها الحقيقي.. ضُرب طبل ونُقرت دفوف.. نهض شاب حلق شعر رأسه تمامًا (موس)، نحيف حنطي (مزنجر)، أخذ يرقص على الإيقاع. سألت الأم:
- إنها رقصة بصراوية! أجابتها:
- نعم، إنها الهيوة البصراوية، يرقصها مازن صديق العريس، كلاهما من بصرتنا.. أخذ يتموج كتموج الأفعى وكل مفاصله تتحرك.. حاولنَ، حاولوا، تقليد حركة منه، لم يستطيعوا، قالوا إنها أصعب من رقصة البطن.. نهض الأب إلى التواليت وهو يتابع رقصة الهيوة التي ذكّرته أيام زمان ويضحك على تقليدها الفاشل.. جاءه رجل كبير أنيق، عرّف نفسه.
- أنا عم العروس. (ها وا بسرى). حرك رجليه، حرك يديه ورأسه، وهو يضحك، الأب شاركه ضحكه وهو فرح لتعرفهم على رقصة مدينته المميزة.. ثم تابع العم كلامه.. أنا شاهدت مدينتك البصرة.. تمنى الأب أنه شاهد غابات النخيل وشط العرب وبساتين أبو الخصيب، ولم يشاهد مركز المدينة ولا أحياءها الفقيرة، سأله.
- وماذا؟
- في حربكم مع إيران كانت مهمتي تسليم عراقيين في مدينة البصرة فشاهدت مدينتكم بنخيلها الكثيف، النخلة شجرة جميلة شامخة وعلى ما قارنت جدائل بناتكم الصغيرات تمثل ثمر النخلة المتدلي بالأغصان، إنه تراث جميل، كانت مهمتي قصيرة قضيت

فيها عدة ساعات.. فرح الأب كثيرًا لما قاله واستمر مفعول الخمرة يمتع رأسه دون أن يطير.. ساعات، انتهت الحفلة.. ألقى الأب نظرة أخيرة داخل بناية القاعة.. خرجوا.. تمعن في البناية من الخارج، كرر.

يالبؤسنا، يالبؤسنا.. سأله ابنه.

- ما الأمر؟ أجابه.

- هم يحيون الموتى ونحن نميت الحي.

- لا أفهم.

- في مدينتي البصرة صاحبة رقصة الهيوة التي رقص لها الأجانب، وعندما كنت شابًا، كان هناك قصر أبيض، تحفة فنية ومعمارية، يطل على نهر العشار، يلتقط الأجانب أمامه الصور للذكرى، وأتذكر وفدًا تركيًا برئاسة رئيس وزرائهم الذي وقّع مع رئيس وزرائنا حلف بغداد، وقف المصورون يلتقطون صورًا لهذا القصر الجميل، هدّمته بلدية المدينة لفتح شارع.. ذاك نحن وهذا هم. يالبؤسنا.

- إذن، الحق ما تقول.

في يوم مشمس خرج مع ابنه إلى مركز المدينة لغرض التمتع وسط ازدحام الناس في هذا اليوم أول أيام عطلة الأسبوع ولشراء مستلزمات ابنه.. وصلا مشيًا.. طفل في عربة، طفل يركض يريد التخلص من حزامه الذي ربطته به أمه، صبايا تتصايح وتلعب، شاب عمل شعر رأسه كمخاريط منتصبة تلازمه فتاة صبغت شعر رأسها بلون أحمر وقرمزي، قبوطها الأسود يدق الأرض، ظاهى

سواده سواد كحل عينيها، نساء رجال.. شاهدا تمثالاً فضيًا.. وقفا مع المشاهدين.. تقرب منه طفل، رمى له قطعة نقود، انحنى له شاكرًا.. ضحكوا.. استمرا بالمشي. توقفا عند طفلة تعزف على الكمان، لحنا جميلاً، ناول ابنه قطعة نقود، طلب منه أن يضعها في قبعتها على الأرض.. دخلا فرعًا، وصلا محلاً كبيرًا، تُفتح أبوابه أوتوماتيكيا، جلس شاب أنيق يعزف على الكمان.. استمعا، قال لأبيه:

- هل عرفته؟ أجابه بعد تفحص.

- لا.. ردّ.

- هو الشاب الذي كان بضيافتنا وشارك العزف في الحفلة. استدرك.

- نعم، نعم.

- لكنه الآن يتسول؟

- لا يا بابا، لا تفكر هكذا، إنها هواية يمتع بها الآخرين، أما القطع النقدية فهي لشراء مستلزمات العزف أوسد أجور النقل.

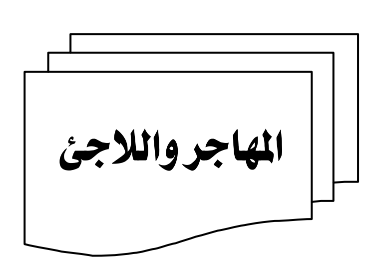
- ارمِ له هذا النقد.. رماه في غلاف الكمان المفتوح على الأرض.. تلاقت عيونهما، استمر يعزف.. تركاه إلى جهة أخرى. قال لأبيه.

- تأخرنا كثيرًا، لنذهب إلى محل بيع مستلزماتي.. وصلا، وجداه مزدحمًا، قال الأب:

- لنذهب إلى محل آخر، رد عليه:

- هذا المحل معروف برخص أسعاره وجودة المستلزمات.. انتظرا أكثر من نصف ساعة، جاء الدور، اشترى الابن مستلزماته. عادا في نفس الاتجاه، لم يريا الشاب.. سارا مسافة.. ناداهما، حياهما.
أتمنى قد تمعتما بمعزوفتي. أجابه الأب فورًا.
- نعم، معزوفة رائعة من شاب وسيم. رد عليه.
- إذن، أنا فرح جدًّا.. ذهب مع التحية والشكر.. هزّ الأب رأسه وساءل نفسه، (أهو تسول أم هواية لإمتاع الآخرين. يالبؤس ثقافتنا، يالبؤس ثقافتنا).
انتبه إليه ابنه وقال.
- ما أمركَ يا بابا، خرجت من بناية الحفلة وأنت متمتع ومنشرح وكررت، يالبؤسنا. ثم خرجت الآن من مركز المدينة وأنت متمتع ومنشرح وكررت، يالبؤسنا. نظر بوجهه النضر وأجابه.
- يا بني، أشكر اهتمامك ولكن هذا يعيش في لا وعي، يصعب التخلص منه.

هولندا / ١٩٩٨م



في رحاب السماء الصافية، تحاور طائران.

الأول: لم يسبق لي أن رأيتك بهذه الكثرة، في هذه السماء، فاسمح لي أن ألقي عليك بعض الأسئلة، وأرجو اعتبارها للتعارف، فالسماء واسعة لا أخاف مزاحمتك لي فيها.

الثاني: لقد أَلِفتُ طرح الأسئلة، وقد أزحتَ الخوف عنّي باعتبارها أسئلة للتعارف لا أسئلة استجواب التي ألفتها طوال حياتي. وأشكركَ على فسح المجال لي في هذه السماء التي قلت عنها إنها واسعة، بعد أن ألفت الضيق والتضيّق في كل مجالات حياتي.

الأول: أحسُّ من كلامك، أنك ما كسبتَ من حياتك راحتها وهذا يثير عجبي لأنك مثلي تمرح في رحاب السماء طليقًا.

الثاني: سوف لا تعجب إنْ عرفتَ أمري، وإن تركتني أعدّ لك همومي، فمسافتك تنتهي ولم آت إلا على النزر اليسير منها، والأفضل أن أجيبك على كل سؤال تطرحه وللتعارف كما بدأت كلامك.

الأول: لونك أثار استغرابي، عرفني عليه؟

الثاني: لوني هو لون الدخان الذي يغلبه السواد.

الأول: ولِمَ اخترت لون الدخان لوصف لونك دون غيره؟

الثاني: لأنه يُبعث من حريق حياتي، ولا أفضل من هذا الاختيار الذي يبقى شاهدًا على ما أحترق من وجودي.

الأول: ربما يثيرك الفضول وتسال عن لوني وهذا حقك في التعرف عليَّ أيضًا.

الثاني: أحسنتَ وهذا ما أردته، ولكن تربيتُ في حياتي على الكتمان، بما في ذلك أنفاسي.

الأول: هذا أحد الاختلافات التي بيننا، فأنا أستطيع أن أغني وأرقص كلما أردتُ، وهذه هي حياتي التي تربيتها. أما لوني فهو ألوان الطيف الشمسي، إنْ اجتمعت واندمجت شكّلت لون الضياء، لون الصفاء، الذي بُعِثت منه الحياة.. وأنت ما وقت هجرتك؟

الثاني: لا وقت معروف لهجرتي، فالحروب والدمار هي التي تحدد أوقاتها.. وما أوقات هجرتك أنت؟

وإنْ كنتُ قد قرأت عنها، ورأيتك في السماء تحلّق، ولكن سؤالي مجرد زيادة معرفة.

الأول: هذه من الخصال الجيدة، أوقات هجرتي يا صاحب الطريق، هي معروفة، قبل أن يتلف الثلج مسكني، وقبل أن تحرق الشمس

جلدي، ولهذا تجدني منتظمًا في هجرتي أثناء حياتي، ولا تنسَ أنها رحلة الفصول التي لا تنتهي.. ولكن ما اتجاهك أنت؟

الثاني: ليس لي اتجاه معين، فجهات السماء أطرقها كلها حتى أجد لي مكانًا آمنًا أنزل فيه. فالأمان هو هدفي المفضّل على بقية أهدافي في هذا الوقت.

الأول: لقد فهمتُ أنك تبحث عن الأمان الذي تريد الفوز به الآن، وهذا الشتّان الثاني الذي بيننا، أنا أبحث عن العشب والماء والدفء الذي يضمني إلى خليلتي التي هي سعادتي وتكاثري الذي يستمر فيه بقائي. وكم آلمتني لأني أراك مقيدًا لا تتمتع بنفس حريتي التي أتمتع بها.

الثاني: أرجو أن لا يغرب عنك أن أسباب انطلاقتنا واحدة، هو انتفاء آمن حياتنا في مساكننا التي انطلقنا منها.

الأول: ألمسُ أن تعب الحياة بان على مقارناتك، إنك دمجتَ نظام الطبيعة المتمثل بالفصول وحياة البيئة من جهة، بحربك ودمارك من جهة ثانية، وشتان بيننا.

الثاني: لقد غلبتني، فالذي تُسلب حريته، يُسلب فكره أيضًا، وسألبي هم أبناء جلدتي. وهذا أكبر المصائب.

الأول: يا صاحب الطريق، شتّان بيننا، لونك لون مخلفات الحروب والدمار ولوني رمز الحب والحياة، أنت تتحكم في هجراتك، الفوضى، وأنا يحكم النظام الطبيعي هجراتي. والنظام سمة التمدن الذي لا زال ينقصكَ. أنا حرٌ في اختيار مأواي، وأنت تجهل حتى

مَن سيؤويك. والأمن الذي أشعر فيه أنت تفقده. والآن توضحت لي صورتك، أليس أنت هذا الجبروت صاحب الإمكانيات التي لا حدود لها، أليس أنت سيد الأرض؟ كنتُ أظنكَ ترفل بالحياة والأمان وإذا بك تبحث عنها وفي مكان تجهله، فآية تناقضات تعيش فيها أنت؟ يا للمهزلة!! أفضلُ أن نفترق قبل أن يلفني دخانك فأختنق به.. الوداع..

بعد موسمٍ، عند عودة المهاجر إلى وطنه الأصلي وهو في السماء، شاهد الدخان الأسود موزعًا على كثير من البلدان التي حلّق فوقها، وعند استراحته في بعض هذه الأماكن، التقى بالدخان الأسود، وجرّهُ الفضول إلى الاستفسار منه حول ما آلت إليه حاله.

- خبرني ما الحال معك الآن؟

- ضمنتُ حياتي وشعرت بالأمن والاستقرار، وأخذت أعمل وأنتج، لأثبت لغيري أني أعطي وأبني أيضًا، ولم اُخلق للهدم والفساد فقط كما يدعون.

- ولكني أراك غير مستقر كليًا؟

- نعم، هذا صحيح، فجذوري لا زالت قوية وهيهات أستطيع قطعها، وحتى لو أردتُ ذلك، وهذا أحد أسباب عدم استقراري الكلي، مثلي كمثل نبتة الصحراء التي تنقلها إلى ضفاف الأنهار، تتكيف لبيئتها الجديدة، لكنها تبقى نبتة صحراوية باحتفاظها ببعض خصائص الصحروية.

- ألمسُ منك الحنين إلى مكان ذّلك وقهرك؟

- لم يقهرني مكاني ولم يذلني، وإنما أنا طوع القوة الأقوى التي حدّدت لي مسيرة حياتي.

- أرجو أن توضح لي أكثر؟

- تبحث القوة الأقوى عن الأرض المعطاء فتهجّر أصحابها، وهذا واقع حالنا.

- ومَن المسئول وأنتَ صاحب قوة أيضًا؟

- نعم، إني كبقية أمثالي أملك قوة، لكني ضيعتها بسبب جهلي وتخلفي، ولا أتهم غير ذلك حتى القدر!

- لقد انتهت استراحتي وأزفت ساعة الرحيل، وأرجو ألا تنزعج مني إذا ختمتُ لك هذا اللقاء بقولي عنكَ: بالرغم من عظمة عقلك، تحكمك المصالح الشخصية التي لا يمكنك الفكاك منها، وهيهات أن تستقر وقبل أن أودعك، هل من رسالة منك إلى مَن أمرّ عليه في طيراني؟

- لم يترك أمثالي وخاصة العظام منا منفذًا لرسالة، فقد طرقوا كل باب من أبواب الحياة، فتحوها وغاروا في معرفة أسرارها، ثم: بشّروا وأصلحوا، وهدوا ووعظوا، وعليه فرسالتي لم تكن أفضل من غيرها.

- ألمس أنّ اليأس تمكن منك؟

- نعم، نعم. لقد تكلمتُ وتكلمتْ، وأرشدتُ وأرشدتْ، ووعظتُ ووعظتْ، وهديتُ وهديت، في كتبٍ ورسالات، حتى مللت، فتركتُ

(جهة) النبوات واتجهتُ غربًا، حيث أعمل وأنتج، ومنها تترسخ أقدامي في الحياة ويثبت وجودي.

- لا تبخس ما جاء به الأسلاف، فاليد لا تنتج بدون عقلٍ نوّرهُ السابقون أيضًا في المعرفة.. الوداع.

ومرت السنون، عاد المهاجر يغطي السماء الرحبة بأسرابه من جديد، ولما مرَّ على بعض البلدان والتي عرفها سابقًا، دفعه فضوله إلى التمعّن في ما يراه عسى أن يعثر على صاحبه فيقضي معه وقتًا ممتعًا، ولما نزل ليستريح، فتشَ عنه فلم يعثر عليه وأخذ يكلم نفسه: سبق أن وجدته هنا، نعم هنا تحاورنا، أذكر ذلك ولا أنساه، وكان ماضيًا في تثبيت أقدامه. فأين ذهب؟ وبينما هو على هذه الحالة سمع لأحدًا يسأله.

- مالي أراك تهمسُ لنفسك، فهل تفتش عن ضالّة؟

- نعم صدقتَ، ولكن ليس بغريب هذا الصوت عن سماعي.

- نعم صدقتَ، هو أنا ضالتك.

- أتقصد الدخان الأسود؟

- نعم، أنا هو.

- ولكن ما دليلك؟ وأنا أراك الآن على غير ما كنتُ قد رأيته فيما مضى في ذلك الذي تدعيه.

- نعم صدقت، لقد تبدلت كثيرًا، حتى بات الذي يراني لم يدر بخلده أنه قد سبق له أن رآني، وهذا دليل معافاتي إنْ كانت نظرتك لي

الآن أفضل.. أراك متعجل في معرفة أخباري، إن أردتَ الإسهاب ساسهب، وإن أردت الاختصار سأختصر؟

- لا وقت طويل عندي. فاطنب عندما تجيب، هل أنت حقًا صاحب الطريق؟

- نعم، وأنا الآن مضيفكَ.

- أنت تقدّم نفسك وكأنك صاحب المُلك؟

- لا، لا، هذا سوف لا يحصل، ولن يحصل حتى لخلّفي القريب.

- لا زلتَ تشعر بثانويتك، المعذرة، أجد أنه شعور طبيعي في مثل حالك، قلْ لي ما سرّ تَغير لونك؟

- السر هو الاندماج أولاً، ثم الانصهار التدريجي ثانيًا. وهذا شعار منقذي.

- هذا الذي أردته لنفسكَ، ففرارك من مكان نشأتك، ودون عودة، جعلك تستسلم لنزع أثوابك.

- أرجوك، لا تفتح جروحي ثانية بعد أن التأمت، حتى الركائز الصخرية لا تقاوم الأعاصير العاتية، فكيف أنا من لحم ودم؟. ولا تنسَ أني قاومت بمختلف الأساليب حتى بان العظم من الجلد. وتدنى فكري، حتى كدتُ أشكُّ في وجود مخ في قحف رأسي.. أرجو أن يكون سؤالك أملس لا يخدش. فقد رهف حسّي من سماعي أسئلة الاحترام التي أفتقدتها فيما مضى من حياتي، وأشعرتني بالأمان والاحترام كالآخرين، فلا تؤاخذني على ما حدث لي فيما مضى عندما كنتُ بين رحى القوى الماحقة.

- المعذرة يا صاحبي، طمئن نفسك، فأنا لستُ بحفار قبور، كل ما كان مني هو تداعي الذكريات، إذن اسرد لي على هواك واعلم أن استراحتي قصيرة.

- أحكي لك هذه الحكاية، واستنتج أنت منها ما تشاء:

(عندما كنت صبيًا، حكى لي أحدهم، حكاية الرجل الأبيض والرجل الأسود، كيف أن الأبيض يعرض الخرزالملونة والغليون مقابل ما يعرضه الرجل الأسود من كنوزه).. وها أنا ذا قد مثّلتُ أحد أبطالها، ضيّعت كنوزي مقابل الغليون ومن حسن حظي أن غليوني هذا ظهر أنه النسيان الماضي وكنس غباره، والتلذذ بالحاضر وتقبله بقناعة.. فاشكر ثانية منقذي.

- كيف وجدته أكثر؟

- وإن كان أحد أقطاب القوى (الأقوى) التي لا أعرف ما تخططه لي إلا ما هو أمام أنفي، أما ما بعُدَ عنه فلا قابلية لي على استنتاجه وهذه إحدى مشاكلي الفكرية التي يسبقني بها منقذي؟

أجدهُ يعمل بجدٍّ في تحويلي إلى أحدهم.

فالتعليم الذي افتقدت روحه أعاده لي بروحٍ جديدة والثقافة التي خسرتها بجهلي أخذ يكسيني حداثتها والحديد الذي كان بيدي خنجرًا، أصبح الآن بيدي منجلاً

وأهم من ذلك، أن المخ عاد وملأ قحفي، وأخذ الفكر ينساب منه بيسر.

فليذهب تاريخي إلى المقابر وليعش حاضري

وهذا كل ما أتمناه لِما بقي لي من حياتي.

- برٍّ، برٍّ، بر، لا للموافقة، من أي مكان أنت لأتبين حقيقتك؟

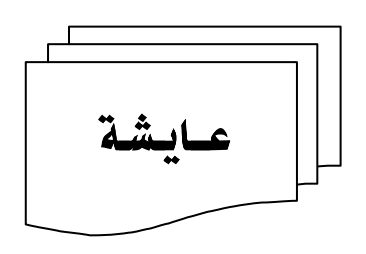
- أنا من مكانٍ كان يسمى (ما بين النهرين).

- همممممم، هذا مخجلٌ حقًا، أنت خلَف مَن كان في تلك البلاد التي حلّقتُ في سمائها منذ آلاف السنين، وشاهدت فيها شواهدهم التي تثير العجب.

منها جنائن معلقة في السماء، ومسلة رمز التمدن، وكتب أوراقها من طينٍ أو ذهبٍ أو سعف نخيلٍ، فيها من الكلام ما يشفي النفس والبدن، وفيها من المواعظ والعبر على ألسنة الحيوان والطيور، وفيها ما يسلي لسهر الليالي والسمر، وفيها كوز فخارٍ فيه أشياء تفعل

وكلما كبوا فترة، قاموا ونهضوا فترة أخرى، ولا أحد كفر منهم بتاريخه.. ليذهب تاريخكَ (أنت) إلى المقابر خجلاً من جهلك وتخلفك، ولا عذر لك مهما تعتذر. الوداع.

فاجأ (البكم) صاحبه واغرورقت عيناه بالدموع، ولم يستطع الرد عليه حتى بكلمة الوداع. ولما رفع رأسه إلى أعلى ليراه، سقطت عليه (ذرقة) توسطت جبينه.



ألقتْ نظرة، اختارت المقعد مقابله، هو ينظر من خلال زجاجة النافذة؛ اثنان من هذا الاتجاه، يتبعهما ثالث ورابع، أكثر من الاتجاه المعاكس، آخران واقفان ينتظران، آخر يعطي قبلة في الهواء.. أمال ناظريه، جاءت أمامه صابونتي رجليها، تفصلان فخذين عن ساقين، أمالس، كشفت تنورتها القصيرة، فترا منهما.. خلس نظرة سريعة وأعاد ناظريه إلى الزجاجة.. لا زالت الحركة سريعة، تتبدل الوجوه وتتعاقب الألوان. أخذ يبحث في الزجاجة عن انعكاس صورتها ليأخذ راحته في تفحصّها، جاء أمامه الصدر، ثم الفخذان، إلا أنه لم يستطع تبيّن ملامح وجهها جيدًا، كانت الصورة باهتة، أجل ذلك بعد الحركة.. لوّح الواقفان يديهما، كثّرَ الآخر من قبلاته الهوائية.. تسرّع القطار.. صورتها مرّة تتوضح ومرة تختفي، حسب تيارات الضياء التي تعكسها الزجاجة حسب ما يمر عليها من أشجار أو أرض خضراء.. باعدت فخذيها ثم أعادتهما، لم تهتم بارتفاع تنورتها أكثر.. سألته وهي عارفة.

- هل الاتجاه إلى الجزائر؟ استغل الفرصة وهو يتفحص بحذر.

- نعم. ولم يكثر.. قالت.

- إنها أيضًا مقصدي.. صمتت ثم تابعت.. وأنتَ؟

- أنا أيضًا.

- هل أنت عربي؟ أجابها.

- نعم.. وأعاد ناظريه إلى الزجاجة لأنه لم يعرف قصدها من هذا السؤال ليتبين مشاعرها، لديه خلفية مثل هذا السؤال.

- من أي بلد أنت؟ جعل نفسه يتابع المناظر السريعة.. مرت دقائق، قالت:

- أنا بنت العاصمة، سأساعدك إنْ احتجتَ.. نظر إليها براحته.. حكّتْ برخاوة ركبتها وهي تركز فيه ناظريها دون أن تلمس تنورتها.. أجابها شاكرًا وهو يفكر، (كنتُ من لمسات مكياج الوجة أميز العذراء، والآن اختلط الأمر.. لماذا حكّت ركبتها برخاوة ولم تأتي على تنورتها، إذن هذه الحكة لا تدل على عفوية أو ضرورة وخزة، إنها حكة إغراء، وإلا لأنزلت تنورتها مع الحكة..) أخذ راحته، ابتسم، همس لنفسه (لم تكن سلبية في كلمة عربي..)، سألته وهي صاحبة الخبرة.

- هل متجه إلى مكان معين؟ فرح في نفسه لسؤالها هذا.

- لا أبدًا.

- كيف إذن؟

- لا أعرف، مجرد أن أجوب العاصمة، ثلاثة أيام وأعود.

- أحسب برنامج؟

- لا.. قالت في نفسها، (هذه حالة سياحة هؤلاء).

- كيف ذلك.. اختارت جمل تخدم نواياها وحسب تجاربها.. يتعرض الغرباء إلى كثير من المشاكل وخاصة غرباء الفنادق الكبرى.. ابتسم لها بسذاجة..

- هذه أول مرة لي.. ارتاحت لإجابته.. عدّلت قلادتها فوق صدرها النصف عاري، باعدت ركبتيها، صعَدت تنورتها أكثر، وهي تبتسم.

- سأساعدك في المبيت عندي ليلة واحدة، وفي الصباح أنزل معك العاصمة، أُعرفكَ معالمها.. ارتاح أكثر.. شكرها كثيرًا.. فتحت حقيبة يدها، قدمت له علكة -- شكرًا لا ألوك.

- هذا غير مهم.. نظرت إلى ملابسه الأنيقة، قالت في نفسها، (أناقتهم تفوق توجهاتهم في السفر، الجنس من أولوياتهم).. وصل القطار.. عدّلت شعرها، ملابسها.. وقف ينتظر خروجها أولاً، هذا الذي فهمه في احترام المرأة.. سارا سوية.. تأكدت من صدق كلامه، فتفحصه المحلات والمعالم تدل على أنها المرة الأولى.. وصلت محل بيع المعجنات. قالت.

- لنشتري خبزًا.. دخلا.. اختارت الخبز الفرنسي وعلبة جبن فرنسية.. أراد أن يدفع، ابتسمت وقالت له.

- أنا المضيفة.. قالت في نفسها، (وهل اتركك تدفع القليل).. قال في نفسه (معناه لم تكن طامعة بيَ، إنها عادات فرنسية، تأخذني إلى

دارها وتتصرف باستقلالية، لكنها عربية؟ لا، إنها متفرنسة).
وصلا محل بيع الأشرطة الغنائية والسي دي، سمعا أغنية (عايشة)، سألته.

- هل استمعت إلى هذه الأغنية؟

- لا.

- لكنها أغنية مشهورة، لمغني جزائري مشهور.. خجلَ، ثم تابعت كلامها.. إنه المغني خالد.. تذكر وبادرها.

- نعم، نعم، إنه صاحب أغنية، دي دي، دي دي وا. إلا أني لا أفهم ما يقوله.

- حقًا، لهجة جزائرية بلكنة فرنسية.

- أفهم فقط، عايشة، عايشة.. اختارت جملة تؤثر فيه وتشدّه إلى حبائل فخها.

- بسبب هذه الأغنية، هدر المتطرفون دمه.. صمتَ ولم يعلق.. وصلا شقتها.. أضاءت مصباح الدخول.. غرفة استقبال صغيرة، أشارت له بالجلوس، دخلت غرفة مقابلة، أضاءت مصباحها، تبين له، سرير عريض، أفرشة يغلب عليها اللون الوردي.. عرفت أنه يتفحص.. أغلقت المصباح، أضاءت مصباح السرير الأحمر، اختارت هذا اللون، يلائم المناسَبة، أصبحت الغرفة حمراء.. نظرت إليه، ابتسمت، أدارت وجهها إلى مرآة كنتور ملابسها، خلعت تنورتها.. نظر إليها لحظات ثم أدار وجهه.. خرجت، لم تطفئ المصباح، متقصدة.. قالت له وهي تدخل الحمام.

-- خذْ راحتكَ، مجلات.. قال في نفسه (تتصرف كأنها فرنسية).. جال نظره في غرفة الجلوس، معلقات قليلة وصغيرة، أثاث بسيط.. عاد يتفحص غرفة النوم، أثاره اللون الأحمر.. ذكّره، بإثارة الأسبان لثيرانهم.. خرجت بأتك فوق الركبتين، بآن من خلفه لباسها الداخلي، متلحفة بروب خفيف.. سألته.

- قهوة، شاي. أجابها.

- شاي من فضلك.. علّقت، ولم تهتم إذا ما حلل معنى كلامها إنْ كان يستطيع، فقد دخل الفخ الذي تقبّله.

- أعرف من لهجة الطلب، أما أنت خليجي أو مصري، ولكن لهجتك لا تدل أنك مصري.. قدمت الشاي.. جلست قبالته ساق فوق ساق، ترتشف من قهوتها. ارتاح من تصرفها فهي تهدف إلى ما يجول في نفسه.. استمرت بالكلام.. فهمتُ من كلامك أنها المرة الأولى..

- نعم.

- سأبر لكَ بوعدي، صباحًا أجوب بك العاصمة.. قلْ لي من أي بلد عربي أنت؟

- من العراق.

- تقصد، بغداد.

- نعم.

- أوووه، المافيا، دخلتكم.

- أوافقك الراي.. أخذت تؤكد على المافيا لتدخل الخوف قلبه أكثر.

- إنها مافيا دولية، هجرتنا إليكم.

- مافيا دولية أو إقليمية، ولكن كيف هجرتكم إلينا؟

- التطرف الإسلامي، ذبحَ وقتل هنا، ثم هاجر إليكم، بحجة احتلال الكفرة دولة إسلامية.

- أنا لا أفهم، لماذا التطرف، هل أن الفرد تستحوذ عليه فكرة دون غيرها ويحاول القتل والذبح في سبيلها، أي تطبيق فكرة الغاية مهما كانت الوسيلة، ولكن كيف أنتهى هنا؟ لم تهتم بالنقاش أكثر من اهتمامها بتحقيق هدفها كما علّق. ردَت.

- لا أبدًا، لا زال هنا ولم يزول.. جرَّ نَفَسًا عميقًا.. نهضت، اختارت سي دي، ادخلته، غنّى (عايشة)، علق مباشرة وكأنه العارف.

- أغنية خالد، عايشة.. قالت في نفسها بدأت اللعبة.

- وأنا اسمي عايشة.

- اسم جميل، اسم (زوجة، بنت)، نعم بنت النبي.

- ولهذا أهدروا دم خالد؟

- التطرف، هو غباء، تُسمى الوليدة، عايشة، لا يعرف أحد حتى الأبوين، ماذا ستصبح، مغنية، رسامة، معصومة، غانية، ربة بيت.. وهنا ضحكت، خلعت روبها، أخذت ترقص، ويرقص معها نهداها، تحرك قدميها بإيقاعات الأغنية، ثم تقربت منه مغازلة.

- أحب حرارة العربي، حرارته تجعله كثور أسباني يهجم على قاتله دون تفكير.. الجنس لا يحتاج إلى تفكير بل إلى حرارة.. ابتعدت، ذهبت، جلبت وأين احمر مع قدحين وقالت.

- للواين الأحمر، فائدتان، يعطي حرارة فيشجع على الجنس، ويحارب التطرف بتمزيق المحرّم.

- أفضله على غيره، فقد تذوقته وإن كان القليل منه.. فهمت من تعابير وجهه أنه يجاملها، فهم يفضلون المشروبات القوية.

- إذن اشرب حتى الصباح.. بعد كأس، كأسين، ثلاث، قالت.

- هربوا العراقيون بملايين الدولارات، هذا ما سمعته.. أجابها بغباء المعتَدّ.

- بل بالمليارات.

- وأنت؟ ابتسمَ، أراد الرد، حللت ابتسامته بالإيجابية، مسكت يده، سحبته إليها، انبطحت له على الفراش رقصت تحته كأفعى تتلوى.. انتهيا.. عادا، قدمت له كأس آخر وأعادت أغنية (عايشة)، قالت له.

- محفظتكَ؟

- محفظتي.. لماذا؟ أعطيك ما تطلبين من النقود.

- لا أبدًا، المحفظة كلها.

- كيف.. هل سكرتي؟

- المحفظة أم حياتك.

- ما تقصدين؟

- أقصد محفظتك، ألا تعرف مَن أكون؟ خاف كثيرًا من هذا السؤال.

- لا.

- لقد ضاجعت عايشة.

- نعم، ضاجعت عايشة وما المشكلة؟

- هدروا دم خالد لأنه غنّى لعايشة، وماذا سيعملون بك لو سمعوا أنك ضاجعتها؟

- ولكني ضاجعتكِ.

- وأنا عايشة.

- أنت عايشة بنت أمك وأبيك، ولستِ (زوجة، بنت) بنت النبي.

- الحكم سيّان، حكم مَن غنى لاسمها كحكم من ضاجع اسمها.

- ما هذا التفكير المتطرف وقد اعتبرتكِ فرنسية، أرجوك فكري بعقل.

- وهل المتطرف لا يفكر بعقل؟ أيها المجنون، ها أنا أفكر بعقل، أدخلتك اللعبة، وها أنا أتطرف بطلب محفظتك.

- أرجوك، خذي أكثر مما تريدين واتركيني.

- إذا أتركك فإلى المتطرفين.

- وهل أنت منهم؟ أجابته كي تدخل الخوف قلبه فيترك كل ما عنده.

- ولِمَ لا.. أراد كسب ودها.

- كيف أعود، أحتاج إلى مبالغ سفر وأوراق ثبوتية.

- هذه ليست مشكلتي.. حاول أن يكون شجاعًا، قال.

- أنا تعودت حياة القتل والابتزاز والإرهاب، لا أخاف منك، وإنصافا لكِ، سأعطيك أكثر وأخرج.

- سترى.. ذهبت إلى الشباك، فتحته، وصاحت باللغة الفرنسية، كأنها تنادي أحد المارة للإيهام.. خاف كثيرًا، ناولها المحفظة وهو يرجوها.. تناولتها، أفرغتها من النقود، تصفحت أوراقه، تمعنت.

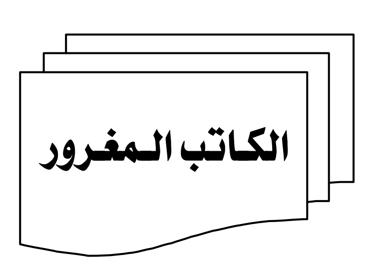
- جوازك أجنبي لكن مؤشر عليه، عراقي الأصل.. بحثَ عن قشّة يمسك بها، تنقذه من الغرق، فقال.

- وكان لنا زعيم، دعم الثورة الجزائرية.

- هذه سخافة، ليتها ما حدثت، ماذا جنى منها آباؤنا، حتى نجني نحن منها.. خاف أن يتوسع بالحديث، فقد فشل كسب عطفها، قال في نفسه (وماذا جنينا نحن أيضًا)، أخذت تعدّ النقود وجدتها لا كما توقعت.

- تصورتك من الهاربين بالملايين، وإذا بك لاجئ.. ناولته المحفظة مع الأوراق.. مسكها بقوة، خرج مسرعًا، ولكن إلى أين؟ *حكت مع نفسها، (أنا الغبيَة، كيف هرب بالملايين وهو قد أقلَّ درجة قطار مثلي، اثناننا غبيان).

* ويستمر سؤال اللاجئ هذا.



الكاتب المغرور

انتصبَ متوسطًا، رافعًا يديه، حرّك المؤشرة التي يمسكها، إشارة البدء، أنزلها بهدوء إلى أسفل، شاركتها أصوات الأدوات الموسيقية المقابلة، بنفس الهدوء.. أشار بهدوء في الجهة الأخرى، شاركتها أصوات الأدوات الموسيقية المقابلة، بنفس الهدوء الذي يكاد لا يُسمع.. أنزل يديه سوية بهدوء، تداخلت الأصوات الموسيقية الهادئة.. ثم رفع وأنزل المؤشرة بقوّة، دوّت القاعة بالأصوات الموسيقية العالية، تبعتها اليد الحرّة بقوة، دوّت القاعة بالأصوات الموسيقية العالية تكاد طبلات الآذان تتمزق.. أخذت حركات اليدان تتسارع مرة وتهدأ مرة، فتعلو الموسيقى وتهدأ.. حرّك يديه، اهتز جسمه، رفع كعبي قدميه، انتفشَ شعر رأسه الأبيض.. أخذَ مكانه، هزَّ يديه بقوة، رفع كعبي قدميه، هزّ رأسه، انتفشَ شعر رأسه الأسود.. دوّت القاعة بالتصفيق الذي لم ينقطع، وهو يحني رأسه للواقفين.. سرح دفتر الرسم من يده، سقطَ، افاق، جرَّ نّفَسًا.. أراد رسم قائد الاوركسترا، لم يفلح، فهو لا يجيد الرسم.. رسم إحدى الآلات الموسيقية، جاءت بشكل بعيد عنها.. مزّق الورقة.. رسم

منظر طبيعي لنخلةٍ ونهرٍ، كما أراد منه مدرس الرسم كواجب، لوّنه بالألوان التي يملكها، جاءت بعض المواقع غير ألوان طبيعتها، ارتضى ذلك، فهو لا يحثّ نفسه على شراء الألوان الناقصة لديه، فليس الرسم من هواياته.. سأله المدرس لماذا هذه الألوان؟، أجابه بذكاء، هكذا أراها.. كلّم المدرس نفسه (هذا ما يؤكده علم النفس)..

انكبَّ على قراءة الكتب في مختلف المواضيع، مال إلى الفلسفة، إلا أنه لا يفهم إلا الجزء اليسير من أي موضوع منها، لكنه فهم أكثر في مواضيع الفلاسفة اليونان، التي اعتمدت بوضوحها إلى المترجم الذي يراعي نشر المعرفة بين عموم القرّاء.. كتب موضوعًا في الفلسفة، استعمل اصطلاحاتها، أعاد قراءته، حذف، أضاف، اقتنع أنه موضوع يضاهي مواضيع كبار الفلاسفة.. لم يعرف إلى أين يرسله كي يُنشر.. تركه.. انكبَّ على قراءة القصص العالمية، التذّ بما يتخيله من أحداثها، إلا أنه لا يهضم بعضها ولا يحلل إلا السطحي من شخصياتها.. مال إلى قراءة القصص الأجنبية القصيرة، إلا أن بعضها صَعبَ عليه حلَّ رموزها، ربما بيئة الكاتب أو أفكاره غريبة عنه استمر بالتثقيف الذاتي غير الأكاديمي، يقرأ من هذا الموضوع، ومن ذاك الموضوع.. لا يحب تأليف أبناء قومه، إلا التراثي والتاريخي، إلا أنه لم يعرف أن التاريخي كتبه وعّاظ السلاطين، فأخذ يعيش أحلامًا وردية عندما يقرأ في علوم العهد البابلي أو السومري وكأن ما كان هناك ضحايا حرب وشقاء أو بغايا... ويعيش أحلامًا وردية مع الجواري عندما

يقرأ عهد هارون، وكأن ما كانت هناك، مَن قُتل زوجها أو أخيها، أو ما كان هناك جائع يحلم ولو (بحشفةٍ) يقتاتها، أو قتل وحرق وسرقات خرّاج أراضي الشعوب المغلوبة.. ويعيش عهد صلاح الدين، وهو يحلم مشاركته ضربات سيفه، وكأنه لم يترك أطفالاً أيتامًا أو نساء ثكلات أو خراب... ولكن كان هذا المتاح له من الكتب في المدينة التي يعيشها كُتبت بأفكار وعّاظها، وكتّاب تاريخها وسيَر الخاصّة، فتحدد ثقافته.

اقتنع بعد أمَدٍ من القراءة المستمرة بجهد الشباب، أن ثوبه أصبح فسيفساء من المعلومات، واغترف دماغه الكثير من الثقافات، فحقَّ له أن يشاطر الكبار في الكتابة والتأليف.. كتب موضوعًا في الفلسفة، أرسله إلى مجلة مختصة، انتظر بلهفة عددها القادم، وهو يتخيل الهزّة التي سيحدثها، لم يجد له أثرًا، وهكذا العدد الذي بعده.. استاء كثيرًا، لكنه لم يُحبط.. حثَّ نفسه على القراءة، وأعاد كرّة الكتابة، إلا أن كرّته هذه لم تفلح أيضًا.. نوّعَ مواضيع قراءاته، كثّرها، كثّفها، أشهر، سنة.. كتب قصة قصيرة، بلاغية التعبير، قوية الحبكة.. أرسلها للنشر.. انتظر بلهفة عدد المجلة القادم وما يليه، إلا أنه لم يفلح.. أوّلَ سبب ذلك، لا إلى القصة، وإنما لتحيز المحرر إلى أصحابه والمعروفين من الكتاب، لتحظى مجلته بمكانه مرموقة، وتحصل على مبيعات كثيرة.

جاء عصر الإنترنت.. توسعت وتنوعت الثقافات، زال الرقيب.. أخذ ينتقي قراءاته من بين المواضيع الكثيرة والمتنوعة، ففيها الغث وفيها السمين.. كتب قصة قصيرة، فيها عمق الفكرة، حبكة الحدث،

وضوح الموضوع، يمكن للقارئ العادي أن يفهمها، والقارئ المختص أن يكتشف أغوارها.. أرسلها إلى موقع إنترنت، انتظر بلهفة وهو مقتنع بقيمة قصته، فقد غذّاها بالأفكار التي اغترفها وتجاربه التي عاشها.. أيام.. نُشرت.. طار فرحًا، قرأها مرة، وثانية وخامسة.

يسير ورأسه مرفوعٌ وكتابٌ على صدره، ينظر وجوه الناس ويتفحص وجوه الأصدقاء ويسأل.

- هل عندكَ إنترنت؟

- ماذا تقرأ على الإنترنت؟

- الأفضل أن تقرأ على الموقع ال.. وغيرها من الأسئلة، كانت الإجابات سلبية، فينزعج كثيرًا، ويتهمهم بالتخلف، وبعيدين عن الثقافة.. أخذ يتصفح على الموقع صفحات أدب، نقد، آراء، تحليل، علّه يجد مَن يتطرق إلى قصته، لكنه خاب، ومع ذلك فهو مقتنع أن المئات بل الآلاف قد قرأ قصته.. كتب قصة ثانية، أرسلها، نُشرت.. تصفّح، أدب، نقد، آراء، تحليل، علّه يجد من يتطرق إلى قصته، لكنه خاب.

يسير ورأسه مرفوعًا وكتاب على صدره، ينظر الوجوه ويتفحص وجوه الأصدقاء ويسأل، يجر انتباه الذين يقرأون على الإنترنت إلى قصته، لكنه يخيب.

كتب موضوعًا أدبيًا فيه فلسفة ومعارف وتجارب، اقتنع بعمقه وهدفه وحلاوة أسلوبه، أرسله، نُشر.. مرّ يوم، يومان، أسبوع..

تفحص صفحات أدب، نقد، تحليل، موقع وموقع آخر وآخر.. لم يجد ولو تطرقًا له.. في حديث تليفوني مع صديق في مدينة أخرى، أشرفت المكالمة على الانتهاء، نفذ صبره، استدرج صاحبه وأخيرًا سأله، عما نشره، أجابه:

- نعم، قرأتُ موضوعك الأخير، أنه جيد.. ولم يزد.. هذا كل رأسمال الذي حصل عليه، كلمة (جيد).

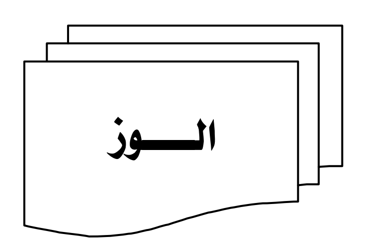
أخذ يتعامل مع الناس كشخص له وزنه، وله شهرته، وأكيد قرأ له القارئ في مدن أخرى، وبلاد العرب، أو في بلاد العجم أو في بلاد الإفرنج، فهذه فائدة الإنترنت.

كتب قصة وموضوعًا، وعاشرا، وعشرين، نُشرت، وهو يتفحص صفحات الإنترنت، يتأمل، نقد، تحليل، رأي، ولو تطرّق لمفردة منها.

استمر، يجلس ساعات، يقرأ على الإنترنت، ، بحوث، دراسات، تحليلات، نقد.. أيام، أشهر.. يكتب بين حين وآخر، ينشر له.. قارن ما أنتجه مع نتاج الآخرين، كمًّا وتخصصًا ومجهود سنين، فوجده ليس بالحسبان.. لكنه بقى مقتنعًا بقيمة ما كتب.. ارتضى لنفسه ما حققه واقتنع أنه في بداية الطريق الشاق ولا زال في أول المسيرة.

أبقى الكتاب على صدره وهو يسير، لكن رأسه عاد إلى مستواه.

هولندا



الـــوز

توقف أمام لوحة طبيعية تبهج نفس كل مَن يراها، وكأنّ فنان ماهر رسمها بلونين، الأبيض والأسود، وذلك عندما كان يعبر الشارع المبلّط بالقار الأسود، سربُ وزٍ بريشٍ أبيض، كان عبوره بانتظام، وزة بعد وزة، وكأنّ هذا السرب تعلم في مدرسة ما طريقة السير في عبور الشارع، كان سير هذا الوز هادئًا متئدًا، كانت كل وزة من هذا السرب رافعة رأسها عاليًا تنظر حواليها بثقة، ماطّة رقبتها الطويلة بتبختر واثقة مطمئنة في سيرها، فشعور الخوف لا يتملكها لأنه لا أحد عدواني يضايقها أو يحسسها بالاعتداء.. مثلُ ما توقف على الرصيف ينظر إلى مسيرة عبور هذا السرب من جهة البحيرة المقابلة حيث مضجعه الليلي، توقف أيضًا سير الدراجات والسيارات في الشارع ينتظر أصحابها انتهاء مسيرة هذا السرب الذي قضى نهاره المشمس منتشرًا حول البحيرة. كان بعضه يحتضن الأرض للراحة، وبعضه ينشر جناحيه ويمشط ريشه بمنقاره، وبعضه يداعب صغاره ويعلّمه كيف يلتقط طعامه من الأرض والتي لا زال الزغبر يغطي جسمها ولم يكتمل بعد، كانت

بعض الذكور تناجي رفيقات الحياة اللواتي ابتعدّن بعض المسافة عنهم، بقاقٍ وقيق، وأحيانًا يجتمع غالبية الوز حول مُرفِقٍ بها أتاها بخبزٍ مقطع ينثره هنا وهناك كي يسمح لأكبر عدد أن يحصل على نصيبٍ من هذا الخبز، وأحيانًا تلتف مجموعة منها حول طفل أتى لمداعبتها بسويق من نبات طري، يدنيه منها وهي تدنو إليه فينشرح الطفل ويأخذ بالضحك.

هكذا ينهي هذا الوز نهاره المشمس، وقبل أن تميل الشمس إلى المغيب يعود هذا السرب إلى مضجعه حيث ينام ليله هادئًا.

على الرغم من جمال هذه اللوحة الطبيعية، لكن شدَّ الرجل الذي وقف على الرصيف أمر واحد أخذ يفكر به طالما هو عائد إلى شقته إنه لم يلمس شعور الخوف ينتاب هذا الوز وهو يعبر الشارع، ولم يكن لهذا الرجل إلا تحليل واحد ألا وهو؛ أنّ هذا الوز يعيش في بيئة غير عدوانية فكل شخص في هذه البيئة من طفلٍ إلى كبير، ومن الماشي على قدميه إلى راكب الدراجة وسائق السيارة، يكنُّ لهذا الوز الحب ويشمله بالرعاية ويرفق به، ولم يكن هناك قانون يجبر هؤلاء الناس على هذا التصرف، إنه تصرف اجتماعي نابع من وعي هذا الإنسان، لِما لهذا الوز ولغيره من الطيور، حق العيش وحق الحياة وحق التنزه والاستئناس.

لقد لحّف رأسه بكفيه عندما جلس على كرسي في شرفته التي تشرف هي أيضًا على جزء من تلك البحيرة، أخذ يفكر ويقارن بين سلوكية هذا الإنسان وسلوكية ذلك الإنسان الذي كان هو في يومٍ

غابر يمثّل واحد من أفراده.. لقد عادت إليه ذكرى ذلك الصبي الذي شنق قطة أمام أصدقائه الصبيان وهم يضحكون بالرغم أن بعضهم اشمأزَّ من هذا المنظر... وعادت إليه أيضًا ذكرى أخرى؛ كيف كان يرمي البعض، الكلبَ بالحجر وكيف ينظر إليه على أنه حيوان نجس، وعادت إليه ذكرى المحلات التي تعرض مصايد الطيور وخاصة الحمام لبيعها إلى الصبيان والتي كان يستخدم فيها الحصى لصيد الطير عن طريق قتله.. لقد تألم كثيرًا على ذلك السلوك اللا إنساني الذي هو صورة من صور التربية الاجتماعية أو بكل صدق يمثل روح ذلك المجتمع؟

كانت شرفته مزينة بمزهريات للنبات الطبيعي وكانت تشرف على جزء من تلك البحيرة التي تسبح فيها بعض الطيور من بشٍّ ودجاج ماءٍ ونوارس وأنواع متفرقة أخرى، أحيانًا كان يرمي فتات خبز من شرفته هذه إلى الطيور وحالما تلامس الأرض تجتمع حولها بعض الطيور القريبة منها فتأكلها، وكان أكثر ما يعجبه منظر طائر النورس الذي لم يترك فتات الخبز يلامس الأرض فيلاحقه في الهواء ويلتقطه بمنقاره.

كذلك لمس ألفة الحمام مثلما لمس ألفة الوز عندما كانت بعض الحمامات تسير بمحاذاته وهو جالس على الكرسي، تلتقط بعض البذور المنثورة على سطح شرفته، بينما جارته (الهولندية) تعلّق أكياس البذور لتطعم أي طير عابر سبيل.

جرَّ نَفسًا طويلاً ملأ رئتيه بهذا الهواء الحر، وزفر بقوة الهواء الفاسد وما علّق به من ذكريات مؤلمة.. ثم نهض مبتسمًا راضيًا، تاركًا الطيور تحيا حياتها.

زفولا - هولندا

٦-٧-٢٠٠٠م



دخل فَرِح وبيده مجلة.

- أُختاه، نشرت لي مجلة المدرسة بعشرين نسخة، (أنزلت السماء مطرًا، سقى الدرَّ فأنبَتَ سنابلا).

- ها، ها..

- ولِمَ تضحكين يا أختاه؟

- سبق وأن نشرت لي مجلة مدرستي وبمئة نسخة.

- أتشجعيني أم تحبطيني؟

- لا بل أشجعكَ ولكن لا أريد منك الغرور.

بعد سنةٍ نُسيت حكاية المجلة التي تُركت على رفٍّ، أكلها التراب وأتلف المطر أسطرا منها وكلمات وبقّعَ أخرى.. طوتها الأخت مع مجموعة أوراقٍ وأرسلتها إلى البائع ليلفّ شايه أو حلواه.. اشترت زوجة مفسّرٍ منه شايًا ولما فضّت غلافه، قرأت) أنزلت السماء مطرًا، سقى الدرَّ فانبتَ سنابلا). ولم تستطع قراءة ما بَعدَ ذلك، وتمعنت فقد أكل الكلماتَ التلفُ، إلا كلمة واحدة ((زكريا)).. نادت.

- يا زوجاه، والله ما قراتُ أبلغ مما قرات الآن، لكني لم أتبين غير اسم زكريا.. (أنزلت السماء مطرًا، سقى الدرَّ فأنبت سنابلا).

- لا بد وأنها من أقوال نبينا زكريا عليه السلام.. سأستشهد بدرر الكلام هذه في كتابي الذي أنا في منتصف كتابته.. استشهد المفسر بكلام زكريا وكتب، (أنزلت السماء مطرًا.. أخذ يتمعن تحت بقعة الوسخ علّه يتبين الكلمة التي أكلتها، ولما لم يستطع، قال.. لا بد وأنها كلمة مدرارًا فهذه لغتنا واستمر بالكتابة.. مطرًا مدرارًا، سقى الدر فانبت سنابلا (ثم أخذ بالتفسير) فالسماء التي وهبها عزَّ وجلّ، حسنًا وجمالاً، ورفعها بغير أعمدة، تترصع فيها النجوم ليلا، خصها الله بإنزال المطر ليلاً ونهارًا، ثم جاء على الدر فأنبت سنابلَ قمحٍ غذاء للناس أجمعين وهذه قدرته التي نطق بها نبينا زكريا عليه السلام).

((وبعلوم هذا الكتاب، اهتدت العامة، وتمصدرتهُ الخاصة، وعلا شأن كاتبه)).

بعد سنوات وقع هذا الكتاب بين يدي مفسّر ثاني، وكان يكتب كتابًا فيه تفسير لكلام الأنبياء، فاستشهد بما جاء فيه ما يخصّ استشهاده ودوّن.

(أنزلت السماء مطرًا مدرارًا، سقى الدر فانفطر سنابلا).. المصدر، المفسر الفلاني. ثم أخذ بالتفسير، إن السماء أمطرت وهذه قدرته تعالى، ولم يذهب المطر هباءً بل جاء على الدر فافطره سنابلَ قمحٍ،

وهذه قدرة في إفطار الدر وإنْ جاء سهوًا أو طباعة، فأنبت سنابلا، والأصح،

فانفطر سنابلا؛ لأن الدر ينفطر أي يتكسر وهي خاصية كل يابسٍ متصلب، ويُقال، تفطرت الأرض اليابسة.. والدر الذي قصده نبينا زكريا عليه السلام هو القمح الذي جاء بالسنابل دون غيره من الحبو.

((وبعلوم هذا الكتاب، اهتدت العامة، وتمصدرته الخاصة، وعلا شأن كاتبه)).

بعد سنوات.. أخذت تكرر زوجة المفسر الثالث، قراءة مسموعة وهي تنود برأسها علامة الهيبة والخشوع.. أنزلت السماء مطرًا مدرارًا، سقى الدر فانفطر سنابلا.. ولما سمعها زوجها وهو في كتابة كتابه الجديد، سألها

- يا امرأة، ما تقرأين؟

- أقرأ كلام الله عزَّ وجل على لسان نبينا زكريا عليه أفضل السلام.

- قولي، عليه السلام، أما أفضله فعلى الرسل وحدهم.

- عليه السلام، فاستشهدْ به إن أردت في كتابك وأضفْ عليه شرحًا.. ولما وصل في كتابه إلى حاجته هذا الاستشهاد، كتبَ (أنزلت السماء مطرًا مدرارًا، سقى الدر فانفطر سنابل قمح).. خصَّ نبينا زكريا في كلامه، قدرة الله عز وجل، السماءَ، ذلك المكان الواسع الذي لا حدَّ لها، فليس لها شرق ولا غرب، وليس لها شمال ولا جنوب، فإنْ نظرتَ إليها ضاع مدى نظرك وكُسرت

رقبتك وملّت نفسك ونفدَ صبرك ولم تأتِ إلا ما وقع عليه ناظرك من فسحة متناهية في الصغر بالنسبة إلى اللا متناهي من سعة السماء، وخصَّ المطر الذي يعلو إلى السماء الذي لا يستطيع الطير أن يعلو علوّه ولا البشر. وبقدرته نزل المطر من ذلك العلو إلى الأرض التي تناثر فيها الدر ذلك الحجر الكريم.. والدر كما هو معروف، حجرٌ صلد ذو ألوان، لا يستطيع الإنسان هذا العبد الذليل أن يستخرج منه غير الزينة بعد جهدِ صناعة. ومهما أُتيَ من عقلٍ وعلم حتى وإنْ وقفَ الشيطان جانبه، أن يأتي بذّرة طحين واحدة من در الأرض كله.. ثم إن الدر انفطر إلى سنابل قمح وهذا ما يتبين من قول نبينا زكريا عليه السلام، إن الدر انفطر إلى سنابل قمح ولم يقل انفطر بالسنابل، ليؤكد قدرته تعالى على أنها سنابل معدودات، أطعمت كل البشر وهنا أيضًا يبين رحمته، فهو الغفور الرحيم؛ لأنه أطعم كل البشر المؤمنين والعاصين، لعلهم يشكرون..

((وبعلوم هذا الكتاب، اهتدت العامة، وتمصدرته الخاصة، وعلا شأن كاتبه)).

وبعد سنوات وقع هذا الكتاب بيد مفسر آخر، كان يكتب كتابًا، استشهد به.. جاء في كتاب المفسر.. عن كتاب المفسر.. عن.. شرحًا لأقوال نبينا زكريا عليه السلام ما ملخصه ثلاث كلماتٍ، السماء والمطر والدر.. بهذه الكلمات الثلاث التي لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بعددها بل بأضعافها بل بأضعاف أضعافها، إن يبينوا للناس قدرته في إنزال المطر من السماء التي رفعها بقدرته ومن ذلك العلو الذي لا يستطيع سهم أو طائر، اعتلاءه، أنزل

المطر والذي لا يستطيع أي إنسان مهما ملك من قوة عقلٍ أن ينزل قطرة واحدة من ذلك العلو، وأسقى الدر الذي انفطر سنابل قمحٍ وانسحقت حنطة، غذّت كل البشر.. ثلاث كلمات نطقها نبينا زكريا عليه السلام فسرت قدرته تعالى في رفع السماء بلا أعمدة وأنزل المطر من ذاته وأفطر الدر سنابل قمح فيها غذاء العالمين تديم حياة البشر تلك الحياة الواهية التي يتمسك بها البشر والتي تتمكن من إنهائها قشة أو غبارة.. تذكر أيها الإنسان أقوال النبي زكريا عليه السلام كلما أكلتَ خبزًا أن تُطعم منه جائعًا فهو ملك الناس أجمعين..

((وبعلوم هذا الكتاب، اهتدت العامة، وتمصدرته الخاصة، وعلا شأن كاتبه)).

أحاطوا صفرة الغداء، ناولت الأم أولادها

- لكَ هذا الرغيف ولكِ هذا الرغيف ولكَ هذا الرغيف.. يا أبنائي لا تنسوا أن لكم جارًا جائعًا، تطعموه، فهذا الخبز ملك الناس أجمعين.

- خذي يا أماه هذا النصف.

- خذي يا أماه هذا النصف.

- خذي يا أماه هذا النصف.

- لا أبدًا، بأنفسكم تعطون، فتشعرون بأنكم نفذّتم أقوال نبينا زكريا عليه السلام وتُسجل لكل واحد منكم حسنة وتكسبون رضا الله.

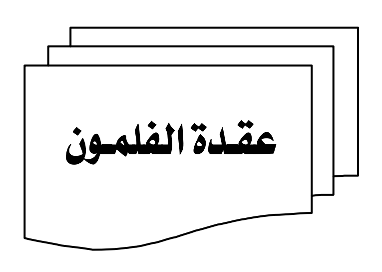
بعد سنوات.. عادت أخت زكريا إلى الحياة ووقع بيدها كتاب آخر المفسرين، ولما قرأت فيه قارنت ما تقرأه بما قرأته أولاً.. قهقهت ونادت:

- انهض يا زكريا فقد جعلوك نبيًا.

- يا أُختاه، جعلوني نبيًا، كي يذيع صيتهم ويعلو شأنهم ويقوى سلطانهم، وإلا لن أصبح نبيًا.

زفولا - هولندا

١-١٢-٢٠٠٢م



تركَ سجادة صلاته الممدودة.. فركَ صيوان أذنه، مهددًا:

- لا تأتي شاكيًا مرة ثانية، اضربه، ارفسه، مزّق ملابسه. ولا تأتي باكيًا، كحرمة ذليلة.. اذهبْ إليه.. خرج وهو يدلّك أذنه كاتمًا بكاءه.. بحث عن حجارة.. وجده في مكانه.. هدّفه.. شجّت رأسه.. صرخ هاربًا إلى أمه.. أخذته ماسكة يده، تهدد وتوعد.. وهما تمرقان، قالت لصاحبتها.

- حرمة وقحة، تهدُّ على الرجل في داره؟

خرج مسرعًا وجيب ثوبه ثقيلاً، التقى تربه، مَشَيا مسرعان، سأله.

- هل جلبت الورق؟

- نعم، في جيبي.. لقد ضربت رأسه بالحجارة.

- أحسنت، سوف لا يتصدّاك مرة ثانية.

- هدّت أمه علينا.

- ها، إنها حرمة، لا تعرف غير الصياح(•).

(•) في مقابلة مع مسئولة الخمنتة (البلدية)، قالت لي مستغربة من تربية صبي؛ نقلت لي معلمة مدرسة؛ نصحتُ صبيًا عراقيًّا. قال لي؛ لا أستمع إلى نصيحة (فراوجة) حرمة

عرجا على دربٍ، يحاذي دور قليلة، تنتشر الأعشاب والأشواك.. خرجت عارية من باب الدار الخلفية، تلعب.. جلست.. بالت.. نظرا إليها بتركيز، ابتسما، مسك أحدهما حجارة، قذفها قربها، هربت خائفة.. ضحكا.. وصل صِبيان، يتفيؤون خلف خريبة، قلّما يمر منها أحد.. جلسوا دائرة، أخرج ورق اللعب من جيبه، سقطت سكين صغيرة، تركها أمامه.. سأله.

- لماذا لم تهدده بها؟ أجابه.

- نسيتها.. استفسر البقية.. سرد لهم.. قال أحدهم.

- مجرد أن تمسكها أمامه، يهرب.. سألهم والورق بيده.

- مَن (يبقج) الورق؟ أخذه كبيرهم دون أن ينتظر ردّ الآخرين، ثم وضع شروط اللعبة.

- (الطرقة) بفلسين.. أجابه آخر.

- لا، بفلس واحد، نريد التسلية. أيّده الذي عنده قليل من الأفلاس (••).

وزّع الورق.. سبعة لكل واحد.. انتهت الطرقة الأولى بربح أحدهم.. جمع من كل واحد فلسًا.. جمع الورق وأخذ يبقجه بصوت عالٍ، يناسب فرحته في الربح.. وزع الورق.. هذا يقذف ورقة، ذاك يأخذ ورقة.. انتهت الطرقة الثانية، بربح نفس الرابح.. جمع الورق وهو يضحك.. مرّت فتاة، توقف اللعب، أدار الجميع وجوههم، كان وجهها مكشوفًا، خافضة العينين، خجلا.. وهي تبتعد، تركت لهم عباءتها، جزءًا من عضلتي ساقيها المخروطيتين.. ضرب الورق

(••) المقصود، أصغر وحدة نقدية لا قوتها الشرائية

على الأرض، توقفت اللعبة، دقائق.. هذا يتحسر، ذاك يهز رأسه، أما رابحهم فيهزالإفلاس ويطرب، كأنَّ خربشتها رنينًا، وهو يقول.

- سأجمع النقود حتى اتزوج.. ردّ عليه آخر.

- أأنت فرحان؟، أمي أخذت تجمع نقود زواجي، سأتزوج قبلك.. همس آخر.

-- يا لك من محظوظ، و(تراه) قبلنا.. سأل آخر:

- مَن رآه؟ أجابه أحدهم بسرعة.

- أنا، أنا.. الجميع بسؤال واحد.

- كيف؟

- شاهدته عند الطفلة وهي تتبول.. (كفخه) ضربه على رأسه، ضحك الجميع.

- يا خَبِل، عند الطفلة للبول.. قال آخر بهمس وكأن أحدًا غيرهم يسمع.

- أما عند البنت فهو للنكاح.. زفر الجميع وصرَّ بعضهم على أسنانه.. سأل آخر بسذاجة.

- ولكن من أين تبول البنت؟ صمتوا لم يرد أحد.. علق آخر.

- يُقال مغطّى بالشعر.

- لا أبدًا، إنه جميل ومسطح، هكذا سمعت.

- لا، إنه مدور.. قطعت كلامهم، أخت أحدهم، نادته.

- أمي تريدك.. أحسَّ بالخجل، فقد جاءت بوقت غير مناسب، فهي تملك ما يتناقشون عنه.. قذفها بالسكين الصغيرة وصرخ مغمضًا عينية.

- اذهبي بسرعة.. ذهبت.. الآخرون لا ينظرون إليها، يشاطرونه خجله، إلا أن أحدهم خلسها بنظرة.. بعد أن اختفت، صاح الغالب.

- أنا الذي أصفه لكم بعد أن أتزوج، ولكن بشرط، صاحوا سوية.

- موافقون، وما هو الشرط؟

- الذي يعطيني خمسة أفلاس، أصفه له.. نظر كل منهم للآخر دون تعليق.. قال أحدهم

- هذا كثير.. أجابه أكثرهم تلهفًا.

- ثلاثة أفلاس.. ردّ عليه بذكاء وهو يغمز للآخرين كاتمًا ضحكة.

- أعطني عربون ثلاثة أفلاس، والباقي بعد الوصف.. أعطاه ثلاثة أفلاس مصدقًا.. استلمها وأضافها إلى ربحه ثم ضحك ساخرًا والآخرون يتغامزون.

مرت أكثر من ساعة ولم ينم بالرغم من انطفاء ضياء الغرفة، مرت عليه صورة الطفلة وهي تتبول، صورة البنت التي مرت، وهي ترتدي عباءة قصيرة، خرج منها ساقاها ثم فخذاها، حاول جاهدًا أن يرفع عباءتها أكثر، أراد الوصول إلى ما هو أعلى.. سمع حركة باب المرحاض، أدار اذنه جهتها، سمع (شخّتها)، عرف أنها أسرع من بولته وأقصر، ولها صوت يختلف.. بعد أن عادت، رفع رأسه قليلاً يسرق نظرة، ركّز على جسم أخته تحت اللحاف، أخذ

يضغط بطنه على فراشه مرارًا، تصبب من جبهته العرق.. نام بلزوجته.

مرت السنون، فرقت بعضهم، وجمعت بعضهم الآخر في مدرسة واحدة، واستمر حلم مشاهدته أو الحصول عليه واستمر النقاش في وصفه، منهم من يصفه بالجمالية، حتى إن بعضهم تطرف في تقديسه، بأنه يدر (شربتا).

تغيرت السكين الصغيرة، من نصل ثابت إلى نصل يختفي في جرابه، وبربح من ورق اللعب إلى ربح من رمي سكينته وإصابة الهدف.

- إنْ أصبتَ تلك البلحة، لك ما تطلب.

- خمسة دنانير.

- لا، دينارين.. وقف الأصدقاء وغيرهم، ينظرون، مسك طرف نصل السكين بسبابته وإبهامه، وضعها أمام إحدى عينيه وصرَّ قليلاً العين الثانية، حرّك النصل، أعلى أسفل، ثبّت طرفه المدبب على البلحة، أوعز له هاجسه الداخلي بالتهديف، قذف السكين، شطرت البلحة.. صفّق الجميع.. هزّ آخرون رؤوسهم.

ألفَتت ظاهرة القطط المبتورة الذيول أنظار الكثيرين واستفساراتهم، إلا الأصدقاء، يعرفون هذا من صنع صاحبهم، فقد تراهن مع بعضهم على بترها بالتهديف من بعيد.

صاحت بها أمها.

- كم مرّة قلتُ لك، تسلق شجرة النبق من عمل الأولاد، اخجلي واستري نفسكِ.. دخلت الدار، كانت شجرة النبق أمام الدار.. أغرت

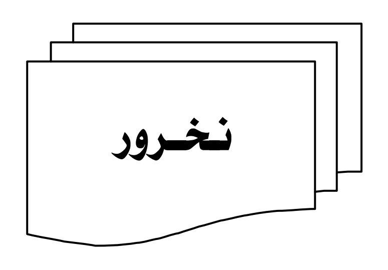
الصبية عناقيد النبق الصفراء والحمراء، اطمأنت من دخول أمها.. تسلقت أعلى الشجرة، خرطت عنقود نبق مرة واحدة دسّته في جيبها بسرعة، خرطت آخر مع اوراقه، سقطت نبقات على الأرض أثناء مرور شاب في العشرين، التقط النبقات ورفع رأسه، أخذ يركز على ما بآن من جسمها، فقد سمح ثوبها المهبهب بذلك.. لم يبارح مكانه وهو يلوك النبقات.. صرخ أخوها فجأة.. ارتجفت.. ارتخت أطرافها.. سقطت، تعشّق ثوبها في غصن، انكشف فخذاها وما فوق صرتها، بآن لباسها الملون، أخذت تستغيث.. الشاب يركز على لباسها وجسمها المنكشف وهو مستمر بلوك النبقات.. صعد الدم رأس أخيها، أراد التخلص من الفضيحة بأسرع ما يمكن، فأخرج سكينته وهدّف تحت نهدها الأيسر، والذي لم يملأ كف اليد بعد.. انغرزت بالقلب.. رفست، ثم سكنت، والشاب مستمر بالنظر ولوك النبقات.. صرخت الأم وولولت.. ابتعد الشاب ولم يبارح.. طوى الأب سجادة صلاته.. ألقى نظرة على صبيته، ردّد.

- يا للعار، ياللعار.. التفتَ إلى صبيه الذي رفع رأسه مقتنعًا، قال له.

- ادخلْ وصلّي، ليغفر لك الله، فالله غفور رحيم.

هولندا

٣-٩-٢٠٠٦م



سألته عندما رأته صافنًا:

ـ بماذا تفكر؟ نظر هنا وهناك. أجابها.

ـ عن شيء أكتب فيه أدبًا؛ شعرًا، حكاية، أطروحة.

ـ أمامك مئات الأشياء التافهة.

ـ ولماذا التافهة؟

ـ فلأنها سهلتْ المنال، توصلكَ هدفك، دون عناء.

ـ حقًا ما تقولين، فالخوض في العلميات صعب ويحتاج إلى مسيرة طويلة بالإضافة إلى الاختصاص.

ـ أيضًا، بإمكانك تسيس أي موضوع غير أكاديمي.

ـ لم تنتبهي إلى كلامي، أريده أدبًا.. التفتتْ.. قالت.. اكتب عن المزهرية.

ـ أدّبوا فيها.

ـ عن الورد والأزهار.

ـ ما أكثر ما كتبوا.. قالت.

ـ فتشْ عن شيء فيها، لم يكتبوه.

- أرجوكِ، فكري أبعد.. عن شيء لم يكتب فيه شعرًا أو نثرًا، لأكون رائدًا فيه.. شاركته النظر داخل البيت، ثم جالت نظرها من النافذة.. قالت.

- وجدته.. أصغر شيء لم تَرَهُ إلا قربه.. ذرة رمل.

- كتبوا ويكتبون، إنها صحراء أجدادنا وأبناء عمومتنا، كتبوا في عمومياتها وخصوصياتها، فهم الآن لها يسجدون ويقبّلون وبخيرها يرفلون.. دلكت كفيها، يساعد الدلك تفكيرها إلى الوصول.. لاحظت عقارب ساعتها، الرابعة مساء، برق صبغُ أظافرها.. قالت:

- وجدته.. صبغ الأظافر.. أجابها:

- وهل الغزل في المرأة بمسيرته الطويلة وتنوعه منذ الجاهلية، لم يقبّل أو يحنو رأسه لصبغ الأظافر، وإلا لما وضعته كيلوباترا ومارلين مونرو.

- حيرتني.. قربتْ فمها من أذنه وهمست؛ فحلاوة الهمس في (اسمه)، أفضل من الخجل في لفظه.. ابتسم ولم يضحك، لأن أمره مطروق(•).. علّق..

- لقد ألّفوا فيه الكتب، في وصفه، شكله، مشعره وأملسه، سلبياته وإيجابياته، أكثر بكثير مما كتبوا في رفيق عمره، حتى إنهم سموه أسماء مختلفة حسب مرحلة عمر الأنثى والشكل وحركته (الكبيني، الشفاحي، الضحاك، السفافي، خشم الأرنب، الزفيري، الشفاط، الفرج، الكس، الزرزور، العضاض، الغلمون، أبو عنكرة وو و..).

(•) أفراد المجتمع الذي أعيشه، يلفظونه جهارًا كما يلفظون أعضاء الجسم، هذه ثقافتهم، الوضوح.

هنا رفع رأسه، غطّى أنفه بكفه. عطسَ.. تطاير رذاذ، لاح شيء من أنفه.. مسح. صاحت.

- وجدته ورب الكعبة، ولم يتطرق إليه أحد.

- قولي، ربما سأكون الرائد فيه.

- نخرور.. صفن.. يفتش عن قناعته فيه أولا.. أجابها.

- ذكروه ولو تطرقا، في أيام الطفولة، عنما يتذوقه طرف اللسان.. ولكن اقتنعتُ.

- إذن، اكتب عن أسمائه، الاسم المحلي، الاسم العربي، الوصف، الصفات، التعبير والتذميم، نكات، البحث في أول من قاله في الشعر العربي أو النثر.. وهناك مواضيع كثيرة، تدخلها. بأسلوب أدبي، كأن يكون ساخرًا أو دراماتيا.. ما زال هناك خيال، هناك أدب، فالأدب ركيزته خيال.

- لا، ليس هكذا، فتخيلَ دون كيشوت في طواحين الهواء وسخر فلسفيًا، وكتب دستويفسكي الجريمة والعقاب بتحليل نفسي.. اقتنعتُ بهذا الموضوع، ولكن يجب أن أدخل فيه رائدًا.

- بماذا ستبدأ؟

- اكتب مخططًا كالعادة أولاً.. لا، بل قبل المخطط، أتصفح الإنترنت، لأعرف المواضيع التي كُتبت فيه، كي تكون عندي فكرة عما كتبوا.

- أصبحت الكتابة تتكل على الإنترنت في المخططات والأفكار، معناه أصبح الأمر تجميع

- كلامك يثير جدل كثير.. ما الفرق في تجميع معلومات من مصادر الكتب كما السابق وربما الآن وبين تجميعها من الإنترنت.. اتركيني لأمري.

طبع كلمة نخرور على الغوغول.. ادخلها. ظهرت مواقع. قال لها.

- إنه اسم شخص، لا غير.

- ربما الكلمه فارسية أو تركية.

- ولِمَ لا، بابلية او سومرية، أو أصلا آرامية، ما هو اسمها الفصيح.. أجاب.

- مخاط.

- المخاط لا يدل عليها، فجسم الإنسان مبطن بالمخاط.

- فرّدْها إلى، مخاطة، مخطة، مخطانة.

- حسنًا، لأفتش عن كلمة مخاطة.. استمرت معه بالجلوس، فالموضوع أثار فيها رغبة المشاركة.. طبع، مخاطة. قرأ.. مخاطة الرحم، ويخالطه مخاطة الماء للماء.. قالت.

- اطبع مخطانه.. طبعَ.. ظهرت منتديات نكات و.. قال.

- يظهر أنها منتديات سوقية وتجارية الأفضل أن أفتش أولا في قاموس عربي.. نقر.. ظهر.. القاموس متعدد اللغات، قاموس الموسوعة العربية للكومبيوتر.. إلخ.. اختار قاموسًا.. طبع كلمة، نخرورة في الحقل.. نقرَ.. ظهرَ.. ابحثْ عن معنى مصطلح.. نقرَ.. ظهرت نتائج البحث؛ عفوًا، لا.. ثم قرأ أعلاه، قاموس مختار الصحاح.. ابتسم.. استفسرت.

- لماذا تبتسم؟

- كنت أملك نسخة منه وأنا في المتوسطة.. حمّلَ.. بحث.. قال ربما الكلمة أجنبية.. تأففت، قامت إلى أعمالها البيتية.. استخدم مواقعًا أخرى وأخرى.. اهتدى إلى معلومات كثيرة ومتنوعة.. قطع منها، نقل إلى صفحته الخاصة.. امتلأت مئات الصفحات.. استمر. نادت.

- الساعة الواحدة، هل تشاركني الشاي.

- نعم.

- يظهر أنك انتهيت.

- نعم، جمعتُ مئات الصفحات.. توقفَ.. أتت له بالشاي.. جلست، قال.

- المواضيع متنوعة ومطولة، أحتاج إلى وقت لأختار ما أريد.

- اخترْ ما لم يكتب فيه أدبًا، كي تكون رائدًا.

تكررين ما أنا عازمه. -

مرت أيام.. سألته.

- بشّرْ.. أجابها.

- انتهيت من الترتيب والتنظيم وما عليَ إلا أن أخللها بالتعليق والشروحات.. انظري إلى هذا الكم.. هزت رأسها.

- نعم، نعم، سوّدتَ وقطعتَ ونقلتَ.. فهمَ مغزاها المتهكم، فرد عليها بهدوء.

- ما أجمل شفتاكِ عندما تلتصقان وتكوّنان جمبدة مدورة.

- نعم، يا رائد النخرورة.

- لنكن جدّيان، كلمة رائد تخيفني وإنْ كنتُ أسعَ إليها.

- لماذا وأنت مسلح بمعلومات الإنترنت؟

- إذا ما أصبحت الرائد فيها، ستكتب الصحف اليومية والمجلات الأدبية، والقنوات الأخبارية، كي تكون هي الرائدة أيضًا في سرعة نقل الخبر.. ومن المؤكد ستطالبني بمؤتمر صحفي غرضها الأول منه ملأ صفحاتها، ولكن المهم ستطرح الأسئلة الكثيرة والاستفسارات، وأنا أخاف ذلك، فحافظتي ضعيفة ونقاشي أضعف.

- لا خوف من ذلك.

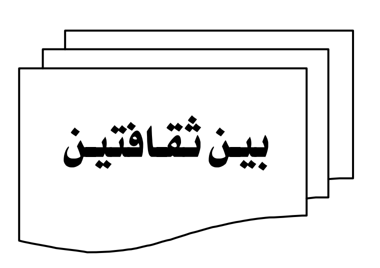
- وكيف؟

- اعتمد الذكاء في تكتيك ما تجيب عليه من أسئلة.

- وكيف؟

- اجمعْ الأسئلة أولاً، مثل ما عمله قبلك من رواد.. تصفحها.. ضع الأسئلة التي تعرف أجوبتها في المقدمة، ثم الأسئلة الموجودة أجوبتها في مطبوعك، ما عليك إلا قراءتها، أما الأسئلة الغامضة والتي لا تُعرف أجوبتها أو الإجابة عليها أو ربما فيها اختبار أو ذكاء، فاعتذر لضيق الوقت وشاغلهم حتى ينتهي وقت المؤتمر.

هولندا



بعد أن غسلتْ قدميه وقدمت له العشاء، حضنته لتعطيه دفءًا حتى ينام، وعند السَّحَر وأحيانًا قبل صياح الديكة، تنهض من الفراش لتعلف بقرتها ثم تحلبها فتجمع الحليب في إناء أكله الصدأ، وتضعه على موقدٍ ملأته بروث بقرتها الجاف. والدخان الكثيف يجعل دمعها ينزل مدرارًا وأحيانًا ترافقه قطرات تنزل من أنفها فتمسحها بذيل فوطتها السوداء، وإذا كان الطحين منتهيا تذهب إلى رحى الحجر لتطحن حبوب الحنطة ثم تخزنه في كيس خاص من القماش الأسمر، أو تطحن حبوب الشعير وتعزله في كيس أسمر آخر. وما أن يحلّ الصباح تجدها قد أنهت أعمالاً كثيرة بما فيها وجبة الفطور، وأول مَن يفطر زوجها لأنه على عجلةٍ من أمره، وبعد خروجه تنهض إلى رضيعتها ترضعها وهي راقدة في حضنها بينما تمسك بكفها الأيمن قطب الرحى لتطحن بقية الحنطة أو الشعير وقد تقضي نهارها في هذا الطحن، وتمسك بأصابع الكف الثاني، مرّة نهدها ليستمر الحليب في فم ابنتها، ومرة تمسك لقمة الخبز، تلوكها بعجلة دون أن تتذوق طعمها وأحيانًا ترمي بكسرة خبزٍ إلى كلبها

الذي يحرسهم وهو بعيد عنها فلا يحق للكلب أن يشارك داخل حدود دارهم، تلك الحدود التي لم يبقَ منها إلا لَبِنات معدودة لحّفها دخان موقدها بسواده.. ومرت السنون ونشأت طفلتها على هذه الحياة البدائية وأخذت تشارك أمها في بعض الأعمال البيتية، تتعلمها منها وتزيد عليها مهارتها فتحفظ وتتعلم مهارات أمها في الطحن والخبز وتحضير الطعام وتنظيف الأواني والملابس حتى تعدُّ نفسها أحسن استعداد لزوجها في المستقبل إذا ما دخلت سن البلوغ، واحتمال قبله كما تسمح العادة.. ثم وقع ما لم يكن بالحسبان، أخذ وجه المدينة يتغير، فقد بُلّط الشارع الرئيسي بالقار بعد أن كان ترابًا مرصوصًا، ومدّت أنابيب إسالة الماء لبعض البيوت المهمة بعد أن كانت حنفية ماء واحدة في كل حي أو بئر في منزلٍ، وسارت السيارات تنقل العمال إلى شركات النفط التي يديرها الإنكليز والبعيدة عن المدينة، وأنشأت مدرسة واحدة للذين يستطيعون كتابة الحروف الأبجدية والتي تعلموها من الكتّاب حيث صارت ضرورة لعددٍ من الأشخاص يلمُّون بالقراءة والكتابة لمساعدة الإنكليز في أعمالهم، ثم فتح الإنكليز جناحًا خاصًّا مِن مستشفاهم لمعالجة المرضى ودراسة بعض الأمراض المستوطنة والوصول إلى أدوية ضدها كي تصبح من إنتاج الشركات التجارية لبيعها عليهم أو تحصين الإنكليز أنفسهم من هذه الأمراض.. لقد تبدّل الكثير من جلابيب الناس، لكن أنفسهم، لكن عقليتهم وسلوكيتهم، فكانت متغيراتها بطيئة جدًّا، فبناء آلة أسهل وأسرع من بناء إنسان.. شملت التغيرات أيضًا هذه العائلة، فبدل أن تنهض

الزوجة فجرًا لتطحن الحنطة أو الشعير، أخذت تشتري ذلك من الدكان الذي يبعد عنها قليلاً وذلك مرة كل شهر عندما يأتيها زوجها ببعض الدراهم التي حصل عليها من عمله مع الإنكليز في شركات النفط، أما الرضيعة فقد شبّت وأصبحت تلبس نعّلاً في قدميها من جلد، وتضفر جديلتين بشريط أخضر فهذا اللون دليل الإيمان، تتدليان من تحت غطاء رأسها الملون، وترتدي ثوبًا مفضضًا أو مذهبًا بردنين يغطيان أصابع كفيها وبحاشيةٍ تصل حدّ نعليها.. كانت شديدة الذكاء لها ذاكرة قوية تحفظ الأشعار عن ظهر قلب من المرة الأولى بالسماع وهذا ما أهَّلها الدخول إلى المدرسة الوحيدة التي ضمّت عددًا قليلاً من بنات الوجهاء وكان ذلك أيضًا بتاثير أحد الإنكليز الذي يميل إلى أبيها، من فائدة المدرسة لابنته. كانت نشطة تنهض مبكرة ترتب الفراش وتساعد أمها في تحضير الفطور وغسل الأواني وذلك قبل ذهابها إلى المدرسة، وبعد أن تعود منها تكنس وتنظف وترتب ثم تحضر واجباتها المدرسية وكان هذا كل عالمها الذي تعيشه، إلا أن المدرسة فتحت لها خيالات كثيرة ما كانت تتخيلها، وعلّمتها مواضيعا لم تكن تعرفها، وغرست فيها أيضًا الحب، الطاعة، والاحترام، والإصغاء، والإيمان؛ طاعة الوالدين، واحترام الكبار وذوي الجاه، والإصغاء للمعلم وللمتحدث، والإيمان بأن كل صغيرة وكبيرة تسير بحكمته، وحتى زواجها بقسمة منه.. ولما بلغت سن الرشد لازمت البيت الذي أصبح عالمها الوحيد في هذا المجتمع.

في أحد الأيام وجدت أباها وأمها وعمها مجتمعون يتحدثون بأمورٍ سمعت منها وبصورة متقطعة، فراش، خلخال فضة، مشط خشب، حنة، وبعد فترة طويلة من النقاش، ناداها أبوها، فاستجابت له بسرعة، سألها أبوها.

- يا ابنتي لقد كبرت وأصبحت راشدة وطريقك معروف هو الزواج لقد جاءك عريس فما رأيكِ؟. مسكت حافة فوطتها الملونة وغطّت بها ابتسامتها وهي تميل برأسها يمنة ويسرة، وتتغنّج، وهنا صاحت بها أمها.

- ما هذا التصرف المشين، هل تعلمين بالعريس، أم تعرفينه حتى تبتسمي وتتغنجي دون حياء؟ أجابتها ابنتها ولم تفارقها ابتسامتها وهي تمطّ كلماتها مطّا.

- ومَن يكون غير ابن عمي من دمي ولحمي. فضحك الجميع وعدّل عمها عقاله، وأطلقت أمها زغردة الفرح وتمَّ الاتفاق على هذا الزواج العائلي الذي لم يكن هناك أي تدخل للعروسين فيه غير الالتقاء في ليلة الدخلة وعلى العروس أن تتذوق عريسها سواء أكان ليمونة أم حنظلة.

ومرت السنون وتوسعت الأعمال واحتاج الإنكليز إلى كادر وطني ذكي ونشيط لإدارة بعض أعمالهم واختار الإنكليز المقربين لهم فوقع الاختيار على زوج الفتاة فأرسل في بعثة إلى عاصمتهم.

وصل العاصمة مع زوجته، شاهدت الفتاة عالمًا آخر مختلفًا كليًا فكانت تقارن فقط دون أن تحلل، مع ما كانت تعيشه والذي يمثّل

ثقافتها؛ فلم ترَ فتاة تبتعد عن الرجال أثناء مرورهم فالكل ملتصقين مع بعضهم، ورأت بعض النساء بزيّ مثل زي الرجال، بنطلون وقميص، وأكثر ما شدّ انتباهها أن الكلاب تسير معهم دون نهرٍ أو ضرب.. وصلت مع زوجها المسكن المخصص لهما، فكان عبارة عن غرفة واحدة لها ملحقات مثل الحمام وفيه التواليت، وزاوية يحيطها نصف حائط وهو المطبخ وكان كل ما في هذا المسكن من مواد وأثاث غريب عنها.. (لا يُعاب على الإنسان عدم معرفته استخدام الأدوات والأجهزة التي لم يراها من قبل، بل يعاب عليه أنه لا يتعلم استعمالها)، ولكن بفطنة الفتاة وذكائها ومساعدة العجوز المؤجرة، عرفت بسرعة كيف تفتح صنبور حنفية الماء، وكيف تضغط على زر الجرس الكهربائي، وكيف تدير مفتاح الدوش، وكيف تضع قطعة النقود في المدفأة لتشغيلها، ولكن كانت مشكلتها الكبيرة هي التواليت الكرسي واختفاء الحنفية من جانبه وهذه المشكلة حلّها زوجها بطريقة أخرى. تعودت المكوث في غرفتها ترتب وتنظف وتغسل وتحضر الطعام الذي يشتري زوجها مواده لها، وبمرور الأيام التصقت بها العجوز المؤجرة بعد أن تعرفتْ عليها جيدًا وعرفت ذكاءها وبساطتها وسذاجتها واعتبرتها كابنة لها؛ لأنها لم تعرف طعم الأمومة فهي تعيش في عزلة وحيدة حيث أنهت أشواطَ حياتها في السفر والنوادي المختلفة واعتمدت في معيشتها على مورد عقارها، وإلا لالتجأت إلى مساعدات المؤسسات الاجتماعية وتموت بين أربعة جدران؟ وأول ما اهتمت له العجوز هو تعليم الفتاة اللغة الإنكليزية لأنها وسيلة الاتصال

والتخاطب مع المجتمع فوجدتها سهلة التعلم، ففي بضعة أيام أخذت تنطق الجمل وتكتب بعض الكلمات، وكانت دقيقة في تحضير وأجباتها ولم تلاقي العجوز صعوبة في تعليمها اللغة وبعض الأمور البيتية ولكنها لاقت صعوبة كبيرة في تعليمها العادات الجديدة لأن سلوكيتها تشبعت بتلك العادات التي ورثتها وتعلمتها من محيطها السابق. فاستعملت الشوكة والسكين في الاكل وتعلمت استعمال التواليت الكرسي.. أما الاختلاط بعالم الرجال ولبس البنطلون ودخول الملاهي والسينمات وشرب الكحول فكانت هذه من المستحيلات، ولكن العجوز استطاعت بالتأثير عليها بعد موافقة الزوج بالخروج معها في النهارات المشمسة إلى البارك القريب من سكنهم، ولم يلفت انتباه الفتاة في المرة الأولى بعض الغرابات لأنها لا زالت على عادتها تسير وتنظر إلى الارض ثم تعودت بعد ذلك أن ترفع رأسها وتلتفت يمنة ويسرى، وفي إحدى المرات زاغ نظرها نحو شاب يحضن فتاة ويقبلها،

فشهقت واستدارت إلى جهة أخرى ولكن المنظر كان نفسه أيضًا، فاستسلمت للأمر الواقع كما استسلمت لأمور كثيرة جعلتها تتقبل بعض الشيء ثقافة هذا المجتمع.

ومرت السنون وصار زوجها يشار إلى ذكائه بالبنان حتى إن بعض الشركات التي تسرق العقول أخذت تحوم حوله وحدث ذلك بعد تخرجه المتفوق حيث تغيرت الأمور في بلده، فقد تغير النظام الحاكم وظهرت أفكار تناوئ الإنكليز ومصالحهم وهذا كان من أهم الأسباب التي لقّت إحدى الشركات شباكها عليه، فاقتنع بسهولة بعد

أن اَلِفَ هذه الحياة العصرية وبعد أن ألقى على نفسه سؤالاً جوهريًا، ما فائدة العقول وما فائدة الشهادات العليا إذا كان أصحابها لا يملكون حقوق الإنسان ولا يحسّون أنهم بشر في مجتمع مأساوي تحكمه أفكار متطرفة؟

لقد تغير مدخوله، فتغير سكنه إلى الأفضل وامتلك سيارة فاخرة واشترك في بعض النوادي الخاصة باصحاب العقول، أما الفتاة فقد تغيرت هي أيضًا في حياتها وتغير الكثير من سلوكيتها، إلا الانتماء الروحي فكان من الصعب تغيره فبقت ملتزمة بتعاليم دينها لأنها الملاذ بالشعور للانتماء الروحي.. لقد وضعت طفلة سمتها، هدى.. هدى ترضع، هدى تزحف، هدى تذهب إلى المدرسة، هدى إنكليزية الثقافة في السلوك والعلاقات وطريقة التفكير، هدى منفصلة روحيًا وجسميًا عن مجتمع أبويها فالخيط الذي يربطها مع مجتمع أبويها عن طريق أمها وأبيها مهلهل ضعيف حتى لغة الآباء والأجداد لم تعرف منها إلا لغة البيت فقط، وكثيرًا ما كانت تغضب أو تحزن عندما تسمع أن مجتمع الآباء والأجداد حدثت فيه فضائع القتل والدمار وتناوب الأنظمة الدموية وأن الإنسان هناك أقل من منزلة الكلب هنا، كانت تنفر من أي حديث يذكرها بأنها منسوبة إلى ذلك المجتمع والذي تتزوج فيه عائلتان وليس العروسين كما تحكي لها أمُّها، كذلك لم يستطع الفرد هناك اكتشاف نفسه لأنه يقضي حياته متعبدًا صنم الآخرين.. هدى ورثت ذكاء أبيها وفطنة أمها، فكان نصيبها التفوق في التخرج في كلية الطب ثم صار لها عملاً في إحدى المستشفيات وعضوة في كثير من النوادي الخاصة

وصار لها الصديقات والأصدقاء وتحضر الاجتماعات والندوات والزيارات المتبادلة.. (تصادم الثقافات وارد عن طريق منتميها ولا بدّ من هذا التصادم بين ثقافة ستاتيكية متخشبة وبين ثقافة عصرية متطورة، بين ثقافة تُلبّس منتميها منذ الولادة ثوبًا مفصلاً بقياسات منذ مئات السنين وتفرض عليه طريقة تفكير باتجاهٍ واحد، وبين ثقافة عصرية متطورة ومنتميها يبدع ويجدد ويسلك طرقًا في المناقشة والتفكير)، في أحد الأيام كانت أم هدى واقفة تنتظر ابنتها فقد حان موعد عودتها، لمحت ابنتها من وراء الزجاج شابًّا يعانق ابنتها ويقبلها، فارتجفت أوصالها وتصبب العرق من جبينها فسقطت على الأرض مغميًّا عليها ولما دخلت هدى وشاهدت أمَّها، عالجتها بالروائح والتدليك وبعد فترة استعادت الأم وعيها، فسألتها هدى بهدوء.

- ماما، لماذا أغمي عليكِ؟ أجابتها بتشنج.

- تسأليني لماذا، وكانك لم تعرفي العمل المشين الذي قمتِ به؟

- ماما، لا أعرف أي عمل مشين تقصدينه؟

- أي عمل مُشين! لقد رأيتك بأم عيني وذلك الشاب يقبلك. أجابتها بصدق وصراحة.

- نعم، إنه صديقي وسوف يكون رفيق العمر.

- صديقك؟ رفيق عمرك؟ ماذا تقصدين؟ شرحت لها في كل هدوء وأمانة.

- اتفقنا على أن ناخذ لنا مسكنًا ونعيش سوية.

- معناه تتزوجينه؟!

- لا، لا، ماما، أبعدي فكرة الزواج عن تفكيرك، نحن سنعيش سوية.. وهنا أخذت الأم ترتجف ووردت ذهنها فكرة المحضية فغابت عن وعيها مرة ثانية، وقامت هدى بتدليكها وهي في حيرة من أمرها، إنها وضّحت لها بأمانة وبصدق وبصورة مباشرة فلم تتعلم التغليف أو اللّف والدوران، مسكت الصمت مع أمها حتى عودة أبوها. ولما عاد الأب شرحت له الأم ما جرى وبإضافة بعض الكلمات التي لها التأثير النفسي عليه وهي متوقعة ثورة الأب والجزم النهائي بالأمر. في بداية الأمر تصببت جبهته عرقًا ولزم الصمت طويلاً بينما عيناه تمسمرتا إلى الأسفل، أما هدى فلزمت الهدوء. سأل الأب ابنته.

- وضّحي الأمر أكثر؟ وكأنه يلمس الفارق بين العقليتين في شرح الأحداث، شرحت هدى.

- أولاً، ما كنت أتوقع تصرف ماما بهذه الطريقة، وكان بنفسي أن أزف لكما هذه البشرى، لقد اتفقت مع صديقي في العمل والذي أنهيت معه سنوات الدراسة الطبية، أن نتّخذ لنا مسكنا ونعيش فيه سوية، واستغرب أنك تطلب مني أن أوضح حالة عادية أنت تعرفها. قال الأب.

- أنا لا أستطيع أن أناقشك الآن، فأحتاج إلى قسطٍ من الراحة.. مسك حقيبة عمله وذهب إلى غرفته وهو في نزاع بين ماضٍ مندثر مغروس في الذاكرة وبين حاضر أضاء له طريق حياته فأصبح

نجمًا معروفًا بعلمه وسلوكه، وقع بين رحى معركة الماضي الذي نساه والذي بانت له أنيابه فجأة وبين حاضر نوّر له طريق حياته وجعله إنسانًا يُشار إليه بالبنان.. اما الأم فلم تستطع السكوت، عادت وأخذت تناقش ابنتها.

- ألَم تفكري بأن لك أبًا وأمًّا، ماذا يحلّ بنا؟ هنا استغربت هدى وأجابتها.

- نعم، أنت أمي وذاك أبي، ما الغرابة في الأمر، وماذا يحل بكما؟

- كيف تصرفتي هكذا وكأنك بنت شارع؟

- ماما، أرجوك لا أتقبل منك هذا، فالذي أنا معه رفيقي في الحياة وكنت على أحّر من الجمر أن أزفّ إليكما هذه البشرى وبعد أن نهيئ مسكننا ومستلزماته.

- أنا لا أوافق وأبوك أيضًا لا يوافق.. صمتت هدى فترة وقالت

- همممممم، ذكرتيني بحكاية جدي وجدتي عندما تزوجا من جدي الثاني، أقصد اتفق أبوك وأمك مع أخيه على زواجكما وأنت فقط تبتسمين وأبي كان غائبًا في العمل، هذا ماضيكِ الذي تريديه لحاضري، ماما، أنا بنتُ زمنٍ ليس زمنكِ، أنا منذ الولادة إنكليزية الثقافة وأعيش حياتي وليس لي علاقة بماضيكِ، ودليلي على ذلك أني لا أفهم أفكارك وأنتِ أيضًا لا تفهمين أفكاري ومع ذلك أنا ابنتك.

- لا، لا، تُحرّم عليك هذه التسمية إنْ طبّقتي أفكارك.

- أفكارك غريبة، تنفين حملك بي وولادتي بكلمات تطلقيها شفاها وتحكمين بنفي الواقع وتحددين مسيرة حياة غيرك، أية أفكار متعصّبة هذه، ماما.

- أنت لم تكوني غيري، أنت أنا، أنت دمي ولحمي، أنت ملكي ولي حقوق عليك.

- نعم، أنا ابنتك ولك حقوق عليَّ، حقوق الحب والاحترام والتعاون والعلاقات العائلية الطيبة، فلا أستطيع ولا يمكن أن أنفي أنك أمي بمجموعة كلمات كما تفرضين.. وهنا ابتسمت هدى واستمرت بالكلام.. ماما، أرجوك أن نخرج معًا للتنزه.. وهنا ارتعشتْ الأم وقالت عاليًا.

- سأقتل نفسي من أفكارك.

- ماما، إذا شعُرتِ بتعبٍ أو إعياء، عليك بالتنزه، هذا هو العلاج الشافي.. وهنا صرخت الأم بزوجها أنها تريد العودة إلى بلدها الأصلي دون تردد.. جاء الأب ليهدئ الوضع وتكلم.

- يا ابنتي أنت طبيبة بحق، تعالجين أمراض الأجسام لكنك لا تستطيعين معالجة الروح، فروح أمك، روح آبائها وأجدادها، تتحكم بها وتحكمها، فأرجوك أن تتروي بالأمر لمعالجته بصورة هادئة ومهما يكن فأمك عزيزة عليك.

- أبي، لا زلت ملتصقًا بالارواح وتعابيرها نحن أبناء هذا الواقع، وهذا الواقع لا يعرف استاتيك الآباء والأجداد والدم الذي يسري، كل جيل له ثقافته، وثقافتنا ليست ثقافة أجدادنا.. وهنا صاحت الأم.

- تضربين عرض الحائط عاداتنا وتقاليدنا وما يفرضه علينا إيماننا؟

- ماما، لم ينفذ صبري منك فأنت أمي العزيزة، أتركُ أجدادكِ لكِ، وثقافتي التي هي كياني لا تقبل بفروض منذ مئات السنين.. قاطعها الأب وقال:

- كل إنسان يا ابنتي، مثل ما يحتاج إلى الماديات يحتاج أيضًا إلى الروحانيات وهذا ما أثبتته علوم الحاضر.

- نعم، إذا كانت الروحانيات هي الحب، حب الإنسان، حب الطبيعة، حب الخير، هذه وغيرها هي أيضًا روحانيات يناضل من أجلها الإنسان حتى تصل عند البعض درجة التعبد، ألَم تكن هناك روحانيات للذين ماتوا من أجل فكرة الإنسان هو الهدف؟ ألم تكن الأهداف هي روحانيات لعلمائنا الذين ينهون حياتهم من أجل اكتشافٍ أو اختراع؟ هل نسيتَ نفسك؟ أم أن الروحانيات فقط هي في السماء وما تفرضه من تعاليم، كلْ وتزوج وتصرف هكذا وو.. بابا، أنا أعرفك جيدًا، عقلك علمي وتفكيرك منطقي، أرجوك لا تجامل ماما.. وهنا صرخت الأم.

- العودة، العودة إلى بلدي لأهرب من هذا الجحيم. هنا تلألأ دمع من عيني الأب استطاع منعها لأنه يعرف قرار الأم لا يتغير.. لما اختلتْ هدى بأبيها في غرفته سألته.

-هل بالإمكان أن أحدد موعدًا معك للنقاش في أمر ماما؟ أجابها. مع بُعدِ نظر.

- لا حاجة لذلك فعندي من الوقت عشرة دقائق، لقد فكّرتُ مليًّا بأمر أمك، إن الذي حدث لها كان وسيلة تبرر بها رؤية أهلها وهذا من حقها فقد تركتهم شابة ولم تكن هناك علاقة لها بهم غير الرسائل والمساعدات المالية، وأجدها مفتقدة حناني أيضًا بسبب انشغالي بالدراسة والبحوث وكما قلتِ فهذه أصبحت روحانياتي، وما إن ترى ذكرياتها هناك مجرد سراب بالإضافة إلى الحياة الصعبة ستعود الينا خلال أشهر.

- أتمنى ذلك، قالت ذلك وهو كافٍ للأعراب عن شعورها الحقيقي، أي، قُلْ ما قلَّ ودلْ. ثم أضافت.. بابا، وضعنا خططًا لدراسة الدكتوراه، أنا وهو، ربما أحتاج إلى اقتراض مالي.

- جيد جدًّا، لي رصيد مفتوح من إحدى الشركات كما تعلمين، سأستغله لذلك.

- شكرًا جزيلاً.

عندما أصبحت الطائرة في كبد السماء، وضعت رأسها على نهاية كرسيها وأخذت الذكريات تترى عليها.. تخيلت وجه أمها ووجه أبيها وتوقعت ستراهما بخدودٍ ممطوطة وتخيلت نفسها كيف كانت تنظف وتطبخ وتخيلت جدائلها وثوبها المفضض ثم سرت بأحلامها إلى مدرستها التي لا بدّ أن تزورها وتسأل عن صديقاتها، وأرادت استعادت كل الذكريات لكنها لم تفلح لأنها غطّتْ في نومٍ عميق.

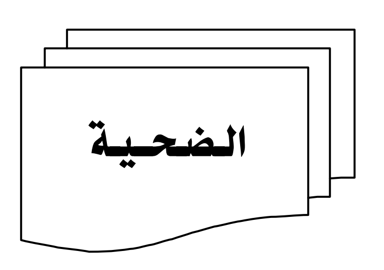
كان في استقبالها مجموعة أفراد لم تعرف أي واحد منهم، شاهدتهم في فوضى من أمرهم، هذا يضحكُ عاليًا، وهذا يستغرب منها،

وهذا يضرب كفًا بكف، وهذا يضرب الأرض بقدميه أثناء كلامه، ذهلت لهذه الفوضى للوهلة الأولى لكنها قبلت الأمر على مضض، فقد نست هذه العادات بالمرة.. سألت عن أبويها أولاً، فقالوا لها إنهما عجوزان لا يستطيعان ركوب السيارة لمسافة بعيدة.. سارت بها سيارتها وسط مجموعة أخرى من السيارات الزّافة لها، دخلت المدينة فشاهدت صورتها مختلفة كليًا عما سبق، سيارات كثيرة وشوارع غاصّة بالناس وبنايات عالية، فجأة توقفت السيارات على إثر اصطدام بين سيارتين.. أخذ السائقان يتضاربان ويدمي كل منهما الآخر، فغطّت عينيها بكفيها، ربما كان الأمر حلمًا.. ثم شاهدت فوضى البيع والشراء على طول الشارع، وصراخ الناس مع بعضهم، وبائعي الجرائد والسكاير، أطفال حفاة. ثم شاهدت فتيات بملابس جميلة ونساء بعباءات لمّاعةٍ ومعتمة، وسيارات بعضها أكلها الصدأ وبعضها فاخر، ثم أغمضت عينيها بعد أن أحست بالصداع.. وصل موكب السيارات الحيّ فنزلت مع الجميع وفي هذه الأثناء أخذت بعض المسدسات تطلق العيارات النارية في الهواء، فأغمي عليها ثم فاقت على إثر ماء بارد رُشّ عليها، فصاحت، أبي أمي، تلاقت مع عجوزين قليلي السمع والبصر فعانقتهما بحرارة والدموع تنزل مدرارًا ثم عاد العناق حتى تعبوا.. وقبل أن تصل باب الدار، شاهدت كبشين كبيرين وسكين كبيرة تلمع، وبلمح البصر، قُطعتْ حنجرة كل كبشٍ وسال الدم الأحمر وظهرت الأعصاب والعضلات المقطّعة وعظم الرقبة، أخذت ترتجف وأدارت وجهها إلى جهة أخرى.

مرتْ الأيام ثقيلة، الشمس محرقة وحرارة الهواء لافحة، أخذت فيها قسطًا من الراحة وأعادت نشاطها بالحديث مع أبويها عن الماضي وعمّا جرى، وهما يسألاها عن حياتها.. أخذت تبحث عما بقى من ماضيها، الدار القديمة، الكلب، الدكان الذي كانت تشتري منه، مدرستها وصديقاتها، فلم تعثر على أي أثر من ذلك ولا حجارة من أساس مدرستها، فحزنت على ماضيها الذي لم يبقَ إلا في الذاكرة.. في يومٍ سمعت صراخًا وعويلاً، فسألت عما حدث، قالوا لها.

- إحدى الفتيات قتلها ابن عمها غسلاً للعار.. فتراءت لها صورة ابنتها فارتجفت.. وفي يوم حار جاف انقطع التيار الكهربائي طول النهار وتعبت يدها من ثقل مهفة الخوص وتحريكها.. وفي يوم دقَّ الجرسَ مجموعة من المدنيين، تحققوا من هويتها وإقامتها ثم استدعوها للتحقيق في دائرة الأمن..

مرَّت ثلاثة أشهرٍ انفقت مالاً على أبويها وأقربائها فاشترت لأبويها ما يحتاجانه من أثاث وأدوات منزلية، وخصصت مبلغًا من المال لرعايتهما من قبل أولاد العمومة، فالروابط العائلية هنا تعمل عمل المؤسسات الاجتماعية هناك.. عادت بعد ثلاثة أشهر ذاقت فيها الأمرين وإحباط لا يوصف لأمنياتها التي باتت أحلامًا في الذاكرة.. وما إن وصلت المطار تعانق الثلاثة عناقًا حارًا، والصديق الإنكليزي وقف على مقربة منهم مبتسمًا وبيده باقة ورد.



تحت ضياء المصباح الذي انتصب في زاوية الغرفة، تقرأ في كتابها المقدس ساعة كل صباح وهي جالسة على قنفة من الجلد الطبيعي وأمامها منضدة توسطت الغرفة، عليها مزهرية وردٍ بلون الرمان ومجموعة من الكتب منها ما يسرد تاريخ بلادها، ومنها ما يصف كرم قومها على شكل قصصٍ، ومنها ما يذكر أخلاقهم على شكل حكايات ومحاورات وبتاليف مختلف الكتّاب منهم من بني قومها ومنهم من خارجهم.. بعد انتهاء الساعة، تأخذ شيئًا من الراحة في سماع أخبار العالم المفصلة بعد أن تضع نظارتها جانبًا. نهضت إلى عمل شايها الخاص ذي النكهة الهيلية، تحضّره بطريقتها الخاصة التي تعلمتها زمن أمها والتي لم تحوّر فيها أبدًا، ثم ترتشف بالأكثر قدحين ومع كل رشفةٍ تاخذ (صفنة)، ثم صفنة، فتمر عليها صور سريعة وقصيرة لذكريات منها القريبة ومنها البعيدة، تأخذها هذه الصفنات حتى بعد الانتهاء من ارتشاف الشاي، فأصبح التلذذ بها طريقتها في قتل الشعور بالوحدة وتنفيسًا عما يتجمع في قلبها من كآبةٍ فتنفثها مع كل رشفة طويلة من الشاي على

شكل زفرة. كانت أطول ساعات يومها تقضيها في هذه الانسراحات لأحلام يقظتها، فلا ألذّ عندها من تذوق صور شريط حياتها في غربتها. بعدها تأخذ كتابًا من كتبها فيه ما يذكر عن تاريخ قومها، ومنها ما يذكر في حلم معن بن زائدة.

- سبحان الذي أعطاك مُلكًا وعلمك الجلوس على السرير.

- سبحانه تعالى.. بعدها تصفن لاستعادة هذه الجمل في ذاكرتها التي سبق أن قراتها في كتاب القراءة والمطالعة أثناء دراستها.

ومنها في كرم حاتم الطائي.

- جئنا نطلبُ حصانك.

- لقد أطعمتكم لحمه.

ومنها في الاستغاثة.

- وامعتصماه.. وهنا تذكرت ملامحًا باهتة من تلك التمثيلية التي مثلتها بعض الطالبات وهن يرتدين الملابس الملونة التي استعارنها بعض اللواتي لا يملكنها من بعض اللواتي يملكنها.

وهكذا تنهي ساعات في هذه الثقافة التي تعطيها عزّة في النفس وعزيمة على مواصلة الكفاح ضد الاغتراب، ثم أملاً وتفاؤلاً وارتياحًا ورضاء.. بعدها تنهض بنشاطٍ وهمّة إلى مطبخها تحضر لها طعام وجبتها الحارة من بعض الخضار المفرومة وشريحة من لحم البقر أو من لحم السمك مع قدحٍ من اللبن الخاثر الذي استمرت في شربه مع الطعام حتى نهاية حياتها، كانت تحضره لنفر واحد، فمنضدة طعامها ذات الستة كراسي لم يتدفأ إلا جلد واحد منها هو

الذي تجلس عليه لتتناول طعامها، وبعد أن تنتهي من أكل طعامها تستمع إلى أشرطة معينة لأغاني من حناجر قومها، فطريقة الغناء، وأداء الحنجرة، والكلمات المعبّرة، تثير اللذة والألم فيها والتي لا يمكن أن تثيرها أية أغنيات خارجة عن هذا الإطار لأنها تمثل الشدّ الروحي لانتمائها ومهما مرت السنون عليها فتبقى هذه الأغاني المورد الأولي الذي يرتوي منه قلبها. مرة تنسجم مع بعض الكلمات فترددها مع مغنيها، ومرة تجرّ حسرة من إثارة معانيها، ومرة تهزّ رأسها مع أنغام الموسيقى الحلوة التي فيها، هكذا تنهي بعض الوقت ثم تعود إلى كتابها فتقرأ، وهي لا ترتجي دقات تلفونها ولا رنة جرس بابها لأنها في أيام الأسبوع الخمسة الذي اعتاد تلفونها ألا ينبهها فيها..

وإذا ما حلّت عطلة الأسبوع يبدأ تلفونها بالعمل.

- ماما، كيف حالكِ، سآخذ ابنتي معنا إلى الجنوب ونعود بها غدًا الأحد وبعد الظهر نقضي معك ساعتين لشرب الشاي.. اخبار الأنواء الجوية لهذا اليوم، الجو مشمس، أرجوك أن تخرجي إلى البارك لتتشمسي وتغيري جو البيت.. هل تلفن بابا؟ هذه ابنتي تعطيك قبلاتها، أتمنى لك الصحة، إلى اللقاء.

هذه المكالمات تعتبر بالنسبة لها، قطرات مطر يتساقط ليروي أرضًا عطشى ولكنها مرة كل أسبوع وأحيانًا تتخلل الأسبوع، هذا كل رصيدها الأسبوعي من مكالمات ابنتها هدى وحفيدتها، أما رصيدها من زيارات ابنتها فهو بضعة ساعات في عطلة الأسبوع

أو بعض العطل الرسمية أو عندما تأخذ مربية حفيدتها أجازتها السنوية أو أجازةٍ مرضية، فتصبح هذه الأيام، أيام عيدٍ وسلوى تقضيها مع حفيدتها حتى إنّ ما اعتادت عليه من قراءة الكتب يكون في حكم الأجازة، وبرنامجها اليومي يحدث فيه خلل. فلا ألذ من برنامج حفيدتها حتى إنها في بعض الأحيان تنسى نفسها في اللعب مع حفيدتها فتعود إلى أيام الطفولة في تمثيل الصوت أو الحركة، فتقلّد لحفيدتها أصوات الطيور والحيوانات أو تتحرك حركة الكلب أو الحصان. والبرنامج الذي تتمسك بانتظامه في هذه الفترة هو؛ تغذية حفيدتها وإحضار وجبتها الحارة وما عدا ذلك هو العودة إلى أيام الطفولة باللعب مع حفيدتها أو العودة إلى الأمومة بتحضين وتنظيف وتطعيم حفيدتها.

بعد أن انتهت هدى من المكالمة مع أمها بقتْ ماسكة بسماعة التلفون لا تريد إعادتها عسى وأن تتكرم عليها ابنتها بكلمات إضافية، لكن كلمة الوداع وضعت حدًّا لذلك. ثم جرّت رجليها جرًّا إلى مكان جلوسها وهي في صمتٍ مطبق لأنها كانت تحسب الساعات إلى موعد عطلة الأسبوع كي تغير روتين يومها، وتمرن أذنيها بكلمات من ابنتها بعد استراحة الخمسة أيام من الأسبوع، وتحرك عضلات جسمها في اللعب مع حفيدتها بعد هذا الركود.. ولكن؟

ارتدتْ ملابس طلعتها البسيطة ذات اللون الرصاصي الذي اعتبرته أفضل من لون الحداد الأسود على أبويها وذهبت إلى حيث نصحتها ابنتها تتشمس وتشم هواء نقيًا.. ولكن الوحدة والكآبة سكين

ذات حدّين فهي كامرأة شرقية تأكل همومها داخليًّا فلا تنفيس مع إنسان آخر يخفف عنها همومها أو يمتصها لها عن طريق المشاركة بالحديث، ثم لا منفذ لهواية مع الآخرين تعينها على امتصاص كآبتها، ومن هذه المشاعر يشدها الحنين إلى الماضي وما فقدته هنا من رباط عائلي متين، فلا أقرباء تزورهم، أيضًا برمجتهم الأعمال والأوقات تضع حاجزًا بينها وبين زوجها وابنتها وحفيدتها، هذه معاناة الغربة التي تعذّب هذه المراة الصامتة الهادئة، فاخذت شمعة حياتها بالضؤول التدريجي لتضيء درب زوجها وابنتها، هذه التضحية التي لا تعرفها المرأة الغربية والتي تعيش حياتها الخاصة، فثقافة هذة المرأة هي التضحية والذبول والضمور في سبيل الدم، وثقافة تلك المرأة هي الاستقلالية وحب النفس لأن دستور حياتها أنها تعيش مرة واحدة فتستغلها أمثل استغلال..

أنهت ساعات من يومها المشمس كاسرة روتين برنامجها اليومي، مندمجة مع ما يحدث في هذا المكان الذي اكتضّ بالناس ذوي الألسن المختلفة، فهنا طفل ذو شعرٍ ذهبي يمسك بلعبته، وهناك فتاة تلعب الحبلَ، وعلى مسطبةٍ مقابلة حضن شاب صديقته، وهناك أصوات (قاق وقيق) الصادرة من مجاميع البط الذي يسبح في بركته المخصصة له.. إن الهواء الطلق في هذا المكان والذي تملأ به رئتيها يعطيها انشراحًا أكثر من هواء غرفتها الدافئ والذي يمتص معظم اوكسجينه ذلك الموقد الذي يتوسط غرفتها.. عادت حيث موعد تحضير وجبتها الحارة وكالعادة خضارٍ مفرومة وقطعة من لحم البقر أو من لحم السمك مع قدحها المستمر من اللبن

الخاثر.. وكرسيها ينتظرها لتدّفئ له جلده، وبعد أن أنهت أكل وجبتها، استمعت إلى أشرطة الغناء التي تنسجم معها كليًا وفي هذه المرة كانت أغنية (يا طيور الطايرة روحي الهلي.. يا شمسنة الدايرة. سلميلي)، انسجمت معها وأخذت ترددها حتى سألت الدموع على خديها، وبعدها ذهبت حيث مكان جلوسها.

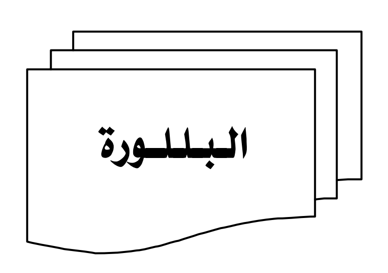
ولما حلّ يوم الأحد وحان موعد الساعة أخذت بالاهتزاز كالرقاص الذي يتحرك إلى نقطة التوقيت التي بها يبدأ دق جرس الساعة، وهكذا دق جرس بابها فأسرعت إليها وهي فاتحة يديها واحتضنت حفيدتها وأخذت تشمها شمّاتٍ وشمات، كشمات مَن يشم ثمرة الشمام الزكية الرائحة، وأخذت تلهو معها وتقدم لها اللّعَب حتى إنها تناست ضيفيها وأخذت هدى على عاتقها إحضار الشاي والتقديم.. هذه هي برامج حياتها. تَكسب من ابنتها هدى الابتسامة وتكسب من حفيدتها اللعب والمرح وتكسب من زوجها شهرته وغيابه.

في يومٍ كان فيه الوفر ينزل وكأنه ريش في بداية عمره يكسو أوراق الأشجار بلونه الأبيض وينسرح على زجاج شباكها الذي تراكم قسمٌ منه على حوافيه، كانت قد وضعت كمية كبيرة من الحطب في الموقد زوّد هواء غرفتها حرارة ولوّن ما فيها احمرارًا، وبينما هي ماسكة بكتاب فيه أشعار، تصبب العرق بكثرةٍ من جبهتها وأحسّت باسترخاء لم تستطع حتى تحريك يديها فبات الكتاب مفتوحًا في حضنها يتصدر صفحته الأولى هذا البيت، بلادي بلادي لك حبي واشتياقي.. فقدت وعيها ثم مال رأسها جانبًا.. وفي اليوم

التالي، خمد فيه الموقد، ولم توقد فيه شعلة الطباخ، ولم يدفأ فيه جلد الكرسي، ولم يلف فيه شريط أغانيها..

وهكذا مرت بقية أيام الأسبوع حتى حلّت عطلة نهاية الأسبوع وجاءت الساعة فدقت ابنتها جرس بابها ولم تكن هناك يدٌ تفتحها واستمرت على الدق ولكن لا يد تفتحها، تذكرت مفتاح الاحتياط، ذهبت مسرعة، عادت، فتحت.. هجم عليها هواءٌ عفن يحمل روح أمها الهاربة من مأساة الغربة.

في اليوم التالي نشرت بعض الجرائد خبر وفاة زوجة العالم.



كرةٌ بلّورية كبيرة الحجم، تتوسط الظلام، تدور حول نفسها ويظهر عليها خطوط لأشكالٍ غير منتظمة تشبه قارات خمسة، وبقع تتراوح ألوانها بين الدكنة والفقوع وكأنها بحار ومحيطات. ويشع ضياء أبيض من قمتيها العليا والسفلى وكأن كل قمة قطبٌ مغطى بالثلوج، وهي تعكس ألوان الطيف الشمسي، مناطق تعكس اللون الأصفر وأخرى تعكس اللون الأخضر وأخرى تعكس اللون الأزرق وأخرى تعكس المزيج منها.. لا يأتيها دمار إلا من مَن عليها أو من زيادة حرارة تنهيها أو صدمة من أهاليها؟ وقف أمامها مبهورًا من جمال ألوانها وجمال شكلها.. مرّ عليه وقت نسى فيه حتى نفسه، ولكنه سرعان ما صحى على صوتٍ يكلمه :

ـ هل أذهلتكَ هذه الكرة؟ أجابه.

ـ نعم، حتى أكاد أفقد عقلي.

ـ ماذا تريد أن تعرف عنها؟ حاول رؤية مصدر الصوت لكنه لم يستطع، فقال له:

ـ مَن أنت؟ حتى أقدّر إجابتي لك على قدر تقديري لك.

ـ أنا الزمان، الذي لا بداية له ولا نهاية. أغور في أعماق الكون وأعرف أسرار الذرة والنجوم، أنا مطبوع على كل صغيرة وكبيرة، من تزاوج الفيروس إلى تزاوج الجنس والأنس والحشر، ومن انصهار البَرَد إلى انصهار الجبال والأقمار والسدم، ومن بداية أي شيء إلى نهايته.. قاطعه السامع وقال له:

ـ كفى، أنا أملكُ من المعرفة عنكَ ما يغطي حياتي، وإنْ أردتَ أن تذكر لي الجزء اليسير من ما هو أنتَ، لم تتوقف؛ لأنك لا تملك بداية وليست لك نهاية، والأفضل أن أجيبك على سؤالك. أريد أن أعرف هل لهذه الكرة سيد، أقصد ساكن؟

ـ نعم، لها سيد بل سادة وهم من الكثرة لا تستطيع أنت استيعابهم ولكنهم كلهم من صُلبٍ واحد.

ـ لا أفهم كلامك، إني أفضل الرؤية على الكلام.

ـ سأريك بلمح البصر مسيرة بعض الأحداث التي تخص سؤالك وبصورة مختصرة جدًا.. انظر بإمعان وركز على ما تشاهده وأخبرني؟ أخذ ينظر ويتكلم.

ـ بدأتُ الآن أرى بوضوح.. أرى كائنًا يغطي وجهه الشعر، ويستر نفسه بورق النبات، ثم استبدل سترَ ورق النبات بستر جلد الحيوان.. هنا قد غطى جسمه بقطع القماش محاكة من خيوط نباتٍ أو من شعر حيوان.. هناك توصلت زوجته إلى غزل خيوطًا من صوف الحيوان وشعره، بمغزلٍ وتحيك أشياء.. بعدها قد غطى جسمه بأنواع الملابس من قطن وصوف وحرير ومن تحويله بعض المواد الطبيعية التي اهتدى اليها.

- انظر هنا بإمعان فهذه مسيرة سريعة اخرى، وتكلم؟

- أرى مساكنَ.. هنا مبنية من ثلوج تلحفها الجلود وهناك مبنية من قصب وطين وهناك هي كهوف في جبال، إنها أنواع مختلفة من البيوت أجدها لا تخضع إلى طريقة بناء واحدة وأنها ليست من مادة واحدة.. باهٍ، باه، باه.. لا أصدق.. أن بناءه أصبح من حجارة وزجاج وحديد.. أخذ بعضه يلامس الغيوم.

- انظر هناك فتلك مسيرة أخرى.

- هناك ينتقل في الماء على جذوع الشجر، وهناك ينتقل في الصحراء على ظهور الجمال.. إني أرى أشياء غريبة ملأ بها اليابسة والماء والسماء، يستعملها في الاتصال والانتقال.. إن الأحداث تمر بسرعة جدًا.. هنا أرى شيئًا غريبًا، يضرب على أزراره فيحصل على نتائج في لحظات لم يستطع أسلافه الحصول عليها في سنوات.

- هذا يكفي، هل من مقارنة لما رايت؟

- توجد مقارنه لكنها مذهلة. بدأ هذا الكائن بسترعورته بورق الأشجار ثم لبس الصوف والحرير والأقطان، ومن مواد ليست بنبات أو حيوان، إنه ذو عقل عجيب.

- ثم ماذا؟

- رأيتُ داره بين الأشجار والأحجار ثم صارت تنطح السحاب.. ورأيته يعدُّ على أصابعه وأخيرًا يعدّ بأعداد لا تنتهي.. ثم كان يستخدم النبات والحيوان في الانتقال وأخيرًا ينتقل في ساعات إلى أنأى مكان.

- انظر إلى هذه الجهة فإنها تختلف عن سابقاتها وتكلم؟

- هذا كائن يغطي أغلب جسمه الشعر، يستعمل يديه في ضرب حجر بحجر، استعمل هذا الحجر في صيد الحيوان، ثم أخذ يشدّ ما شدّبه مع عصاة بخيوط من نبات استعملها في قتل الحيوان وعمَل الحفر.. هناك استعمل سيقان الأشجار رماحًا ونبالاً ومن أليافها شباكًا وحبالاً.. استعمل الحديد والبرونز ثم أخذ يستعمل مواد أخرى، أما يستخرجها خامات أو يصنّعها بنفسه.

- انظر هناك بإمعان وتكلم؟

- هذا كائن يبدو إنه مريض، يمضغ النبات أو يلف به ما تلف من جسمه.. إني أرى مريضًا آخر، يجمع الخرز ويلفها حول عنقه، أو يضع مواد في نارٍ ويشم أبخرتها ويتمتم.. أواه.. هذا مريض آخر لكنه يستعمل الكَيّ أو الصَفَد أو البتر.. هنا آخذ يستخرج المواد الشافية من النبات والحيوان والمعادن.. هنا أخذ يستعمل أدوات ومعدات ومكائن لتشفية مرضاه.

- انظر هنا بإمعانٍ وتكلم؟

- أرى كائنًا صفاته نفس صفات الذي شاهدته سابقًا، يأكل النبات وهناك يأكل لحم الحيوان نيئًا ثم أصبح هنا يأكله شيًا، هنا استعمل الأدوات والمكائن في تحضير طعامه.. أسمعه يتناقش حول ما سمّاه بالفيتامينات، ثم أخذ يستعمل أغلفة في حفظ عصارة مواد طعامه، أن الذي أسمعه هنا من كلام يثير الضحك؛ يتخيل أن طعامه في المستقبل البعيد سيكون عصير مواد الطعام فقط وهذا سينهى حاجته للأسنان.

- بأية طريقة يتخاطبون؟

- لم أنتبه، أرجو إعادة بعض الأحداث؟

- سأعيد عليك بلمح البصر مسيرة تاريخية لما تريد.

- نعم، نعم، أكتفي، لقد توصلت إلى نتيجة، كفى ما شاهدت؛ إنهم يتخاطبون بلغات مختلفة اندثر بعضها وتغيرت الأخرى، إما عن طريق الهواء أو عن طريق الكتابة.. أخذ باستعمال الريش ثم صنع الأقلام وأخيرًا استعمل الأجهزة.. ولكن الذي يدهشني هو أني أرى القلة القليلة منهم تتخاطب عن طريق نقل الأفكار فيما بينهم وقد سماها بعضهم بالحاسة الجديدة وهي تعني عندهم أنها ستحل محل لغاتهم.. هنا الأحداث سريعة والذي أراه يسلب العقل؛ إنه أصبح يحوّل الخيال إلى واقع، يأخذ كائنًا حيًّا ويستنسخ منه آخر.

- ما خلاصة كل مشاهداتك السابقة؟

- إني شاهدت كائنًا عجيبًا، بدأ حياته وفي كل الأمور من البسيط الساذج وطوّره على مر السنين التي تعاقبت أمامي إلى ما لا أستطيع إدراكه، إنه ذو عقل عجيب وذو إمكانية غير محدودة وهي لن تتوقف مع مرور الزمن، أيها الزمان.

- كل الذي رأيته يمثل وجه واحد وهناك وجه آخر.. سترى وتتكلم؟

- إني أرى صبيًّا مبتعدًا عن أترابه، يتفحص ويتمعن في النبات والحيوان والصخر.. هنا صار شابًّا لكنه لم يفارق الكتب.. الآن توسط الكتب والأدوات لا أعلم ماذا يعمل أنه يكتب كثيرًا ويقرأ دون ملل أو كلل.. لقد شاخ ومات بين كتبه وأدواته وفي يده القلم.

- ساريك لمحات أخرى، انظر وتكلم؟

- أرى مجموعة تنازع أخرى على عشبٍ وتلك أخرى تتنازع على حيوان، وهنا قتلٌ بين مجموعتين على فتاة، ثم حرب بين أمتين سببها إحدى الجميلات، هنا استيلاء مجموعة على دولة وتشريد أهلها، هنا سيطر شخص واحد على مجتمع ثم حرّكه إلى حرب دولة بعد دولة.. باه، باه، ما هذا الذي أراه أنه أمر غريب، شخص يحمل شارةَ صليبٍ معقوف، يحارب ويحارب وقد قتلَ أتباعه الملايين من الآخرين وهو لا يتوقف عن الحرب والدمار، لا بد أنه مجنون ولكن الذين يقاتلون من أجله هم مجانين المجنون هذا.

- انظر إلى تلك الجهة وتكلم؟

- هنا نزاع بالأيادي ثم صار بالرماح وبالسهام ثم صار بالسيوف، استعمل بعد ذلك الأدوات والمعدات.. باه، باه، ما هذا الذي أراه؛ جسم طائر قذف جسمًا صغيرًا على بلدٍ، أباد أحياءه وصهر بناءه.

- كفى، ما تعليقك على ما رأيت؟

- هذا الكائن لا بد وأنه مجنون، إما ان يولد ويموت بين الكتب أو يستعمل أجهزة وأدوات لإبادة جنسه؟

- انظر هنا وتكلم؟

- أرى اثنين يتنازعان على شيء، هنا مجموعة تستولي على شيء وتحرم منه أخرى.. هناك نزاع بين مجموعات لا أعلم على ماذا.. هنا نفر واحد يوزع أوراقًا ملونة على الجميلات والراقصات والعازفين له.. لقد جاءته مجموعة ووزع عليها من نفس الأوراق

بعد أن قتلت له مجموعة أخرى.. هنا كلٌّ يريد لنفسه كل شيء وبأية طريقة.. هذا ما توضح لي من الأحداث.

- ما تفسيرك مما توضح لك؟

- إنها نزعة الأنا للسيطرة والتملك.. ولكني أسالكَ أيضًا، ما تفسير سلوكية الذي مات بين الكتب؟

- إنها التضحية التي لا يعرفها أصحاب الأنا، ولكنه يخضع لإنّاتهم. ومن صفاته يعطي دائمًا، وعلى يديه يتم التجديد والتغيير لبناء جنسه وهو لا يأخذ حتى ولو عرضت عليه أملاك الأغنياء أو سلطة الحاكم.. هل تريد رؤية المزيد من الأحداث؟

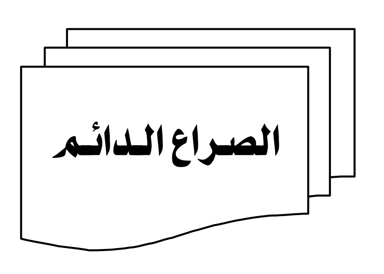
- أرجوك، اكتفي بما رأيت، أريد أن أحافظ على سلامة عقلي.

- إذن سؤالي الأخير هو، هل عرفتَ مَن هو الكائن في الوجه الأول ومَن هو الكائن في الوجه الثاني؟

- لا أبدًا.. في الوجه الأول كائن عظيم، يبني ويطور، يبتكر ويجدد.. وفي الوجه الثاني، مجنون بحق، يقتل ويدمر حتى يسيطر ويمتلك.. وشتان بين الاثنين؟

- لا شتان بينهما. فكلاهما واحد. هو الإنسان.

هولندا



مثل ما يحبُّ القلب، يكره

ومثل ما يكره القلب، يحب

والحب والكره في كفتي ميزان:

إنْ علت كفة الحب، فاض الكره.

وإنْ علت كفة الكره فاض الحب

ولا يخلو قلب مخلوقٍ منهما، كقلبي وقلبك وقلب الضفدعة.

- مَن أنت وأين تسكن؟

- أنا زغردة العصفور إلى أنثاه، التي معها يستمر بقاؤه.

أنا قطرة ماء المطر، التي معها ينمو الزرع وينتشر.

أنا الجنبدة التي في ثناياها ستأتي الثمرة.

أنا حبة القمح الحبلى بأجيالها القادمة.

عرشي في كل القلوب وبالأخص قلب الإنسان!

- مَن أنت وأين تسكن؟

ـ أنا موجود في كل مكان أنت فيه.

لا يعرفكَ قلب الإنسان، إلا بعد معرفتي.

ولا يتفاعل بك الإنسان، إلا بعد مخافتي.

ولا يستقر الإنسان نفسًا، إلا بعد أن يعيش معاناتي. فأنت في كل الأوقات تأتي من بعدي.

ـ الكُره:

أنتَ أيها الحب، هو أنا، ولا يمكنك أن تنكر ذلك.

ـ الحب:

إنكَ تجعلني أسخر من كلامك، أرجو المعذرة عن هذا السلوك الذي وضعتني فيه فالسخرية ليست من خصالي.. كيف أنا هو أنتَ؟ ونحن على طرفَي نقيض.

ـ الكُره:

أحسنتَ، لقد حكمتَ على نفسكَ بنفسك، نحن على طرفَي نقيض، أنا على طرف نقيض الذي أنت عليه، ولا يمكن لنا أن ننفصل، فقلب الإنسان، إنْ أردنا التحدث عن العواطف، نجتمع فيه معًا، نولد ونعيش فيه سوية، ولا يمكن لنا، أردنا أم أبينا، إن نبرح هذا المكان، فهو وطننا، ومصيرنا مربوط معًا. نولد سوية بولادة القلب ونموت سوية بموت القلب، أفعالي غير أفعالكَ ولكننا متحدان، فلا يستطيع أحدنا إزاحة الآخر من كل المواقع في القلب هذا. إننا حقًا نكره بعضنا، ونزاعنا مستمر لا ينقطع، مرّة أنا المنتصر ومرة أنت المنتصر، ومع كل ذلك نبقى متلازمان لا ننفصل، فأية رابطة أقوى

من رابطتنا هذه؟ وحذار أن تستغل كلامي هذا فتنقضه بقولك أنَّ الرابطة الواحدة بين نقيضين معناها الحب، أي أنكَ تُغَلّب نفسك عليَّ في هذه الحالة، فكثيرًا ما يجتمع نقيضان في رابطةٍ واحدة ولا توجد علاقة حب بينهما.. وهل عندك رأي آخر؟

- الحب:

لا يمكن إنكار الحقيقة، أنا لا أستطيع إنكارها وأنت لا تستطيع إنكارها. وأنا هنا أبتعد عن مناقشات الفلاسفة، حول أنّ الحقيقة عند الإنسان ليست مطلقة وإنما نسبية، وأبسّط لك القول، إنه لا توجد حقيقة مطلقة عند جميع أبناء البشر فهي تُفَسَر كلّ بمنظاره، ولا حقيقة مطلقة خارج الطبيعة. لنبتعد عن الفلسفة، فنحن نتكلم عن قلب الإنسان الذي نُعرّش فيه، أنا وأنت منذ صيرورته. نعم نحن متضادان، وكل منا ينازع الآخر على مواقعه في قلب الإنسان هذا، ولكن هيهات أن يستطيع أيًّا منا أن يحب الآخر. وهذا تأكيد مني على قولك السابق بالرغم من نزعتي التفاؤلية، والتي هي نقيض نزعتك التشاؤمية في مستقبل الإنسان، فأنا رمز الحب بل الحب نفسه، وأنت رمز الكره بل الكره نفسه، ومني ومنك تتشكل عواطف الإنسان، وهكذا تسير الأمور.

عرشي في كل القلوب، وبالأخص قلب الأنسان.

- الكُره:

ها، ها، ها.

إن كلامك ليثير سخريتي حقًا. لقد قلتَ، ومني ومنك تتشكل عواطف الإنسان، وهكذا تسير الأمور. إذن لا ياتي يوم، أنت وحدكَ تعرش في قلب الإنسان بدون وجودي، وإذا تغيرت أساليب حياة الإنسان، تغيرت صورنا أيضًا، ويبقى وجودنا في قلب الإنسان مستمرًا.

- الحب:

ولكن النتيجة هي أنا المنتصر، ومسيرة عواطف الإنسان هي إلى التحسن والتقدم، فظهور الضمير وبزوغ معاني الإنسانية خير دليل على ذلك.

- الكُره:

عندي لكَ بحر من الأمثال التي تنقض قولكَ هذا، كيف تسير العواطف إلى التحسن والتقدم؟ تقصد تركيز وجودك في قلب الإنسان بإزاحة وجودي منه. لا.. لا.. لا..

منذ آلاف السنين تتنازع عواطف الإنسان المتناقضة ولم يغلب أحدها الآخر، وعلى مختلف مراحل حياة البشر، تبدّلت فيها المسميات فقط، فإنْ تحسن وتطور واحد منها، كان نقيضه أكثر منه ضراوة. فأساليب الحب تغيرت ومعها تغيرت أساليب الكره أيضًا. ومرحلة هيمنة العقل على القلب أقصد العاطفة، تلونت فيها أيضًا أساليب الحب والكره. الخير والشر، اللذة والألم، إلى ما لا نهاية من المسميات. إن تقدم العقل على حساب العاطفة هذا لا يعني زوال هذه التناقضات. وبصورة مختصرة. سنبقى أنا وأنت رموز البناء

والهدم، مهما اختلفت المسميات. وهكذا تستمر أساليب حياة البشر. إذن أنت لا تستطيع أن تفارقني ولا أنا أستطيع أن أفارقك.. يحيا الكره، يحيا الكره.

- الحب:

يحيا الحب، يحيا الحب.

- الأرض:

درتُ وأدور وسادور.

ومن دوراني أيها الإنسان، همرتُ لك المطر، وأوجدتُ لك النابت والسابح والدابي، وجعلتك ابني المدلل. فسرتَ على وجهي مستغلاً دوابي، ومخرتَ مياهي صائدًا متنقلاً، وشاطرت الطيور في سمائي. وعندما اشتدَّ عودك، استعملت أنواع خيراتي وأخذت تكشف سراري وتماثل بعض أعمالي.. لكني أخاف غرورك وتعبث بأسراري فتحدث الكارثة! وكل ما أرجوه منك أيها الإنسان، هو أن تضع حجم قيمتك المتعاظمة بإمكانياتها التي لا حدود لها في المكان الصحيح لخدمة نوعك. وما حياتك إلا جزءًا ليس له قيمة من مسيرة حياتي. وأن لا تغتر بإنجازاتكَ فتعبث وتنجر إلى التهلكة بفنائي!

وإن أردتَ أن تبقى ابنًا مدللاً طوال وجودك وتتمتع بهذا الدلال أرشدكَ إلى:

الحب، حب الخير، فهو يعزِّز بقاءك.

هولندا



المؤلف في سطور



(+2) 01288890065 /(+2) 02 27270004

www.shams-group.net